البيان

AL BAYAN

مجلة إسلامية شهرية جامعة

السنة الثامنة والعشرون . العدد ٣١٣ . رمضان ١٤٣٤هـ . يوليو - أغسطس ٢٠١٣م

هامان.. بين «التوراة» والقرآن

سيد الضمانات الفكرية

الجهاد وشهر الفتوحات

حوار مع الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل



العبور الأمريكي عبر «الزوايا الصوفية»

9 771658 646803

مجلة
البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.

الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .

سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .

البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.

السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.

السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.

قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.

الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.

المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.

اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk
YouTube | f | t

اشتراكات البيان Whatsapp & SMS
٠٠٩٦٦٥٥٤١٩٢٤١٣

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو



الافتتاحية

هامان.. بين «التوراة» والقرآن
التحرير
٦

العقيدة والشريعة

العبور الأمريكي عبر «الزوايا الصوفية»
إعداد: مركز الأبحاث والدراسات
٨

مقامات في المقامات.. قراءة توصيفية حكمية في المقامات القرآنية
عبد اللطيف بن عبد الله التويجري
٢٠

مِلَلٌ ونِحَل

«والكلمةُ صارَجَسَداً»..قراءة في مذهب الجذبيَّة
فيصل بن علي الكاملي
٢٤

قضايا دعوية

البحث في قضايا الهوية والقيم
أحمد فهمي
٢٩

قضايا تربوية

واجبنا نحو القرآن الكريم
هشام عقدة
٣٢

معالم في تربية النفس في ظلال رمضان
عبد العزيز مصطفى الشامي
٣٨

حوارات

حوار مع الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل
أجرى الحوار: إسماعيل طه
٤٤

معركة النص

٥٠ سيد الضمانات الفكرية
فهد بن صالح العجلان

المسلمون والعالم

٥٤ حقيقة الصراع في معركـــة استكمال الثورة المصرية
د. تامر بكر

٥٨ الحـوثي.. ذراع إيـران فـي خـاصـرة الخليج
إعداد: محمد الأحمدي ومصطفى حسان

٦٤ الوحدة أم الانفصال.. خلاف العلماء وعدل الشريعة
أنور بن قاسم الخضري

٦٩ سدُّ النهضة.. بين سيناريو المؤامرة وجدوى التنمية
عمرو عبد البديع

٧٢ الـطـائـفـيـة الـتـي أرهـقـت لـبـنـان
أحمد أبو دقة

٧٨ مرصد الأحداث
عمرو عبد البديع

عين على العدو

٨٢ قـراءة صهيونية في يوميات الثورة السورية
د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٨٤ أضـواء على المجتمع الإيـراني بعد الثورة
د. غازي التوبة

تاريخية

٨٨ الـجـهـاد وشـهـر الـفـتـوحـات
د. سيد حسين العفاني

قصة قصيرة

٩٢ الـنـداء الـخـفـي
هاني إسماعيل محمد

الورقة الأخيرة

٩٤ مـع ابـن تـيـمـيـة فـي شـهـر الـصـيـام
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف



[كلمة صغيرة]

المناعة والوعي

الحمـد للـه ربِّ العالـمين، والصَّلاة والسَّلام علـى نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

يوجب سـيلُ المعلومات والمستجدّات مزيداً من العناية بمناعة الإنسان ووعيـه، دون الاكتفاء بما يفرضـه المجتمع، أو تسـتلزمه التجمّعات من ضوابط؛ فالمرء يواجه المواقف بشهواتها وشبهها وحده غالباً!

فالمناعة تزيد بتعظيم المراقبـة وعبودية المراغمة حتى يصل العبد لمرتبة الإحسـان، ويستوي حاله في خلوته وجلوته. ومن تعزيز المناعة العناية بعبادات القلب؛ فالمخلص لا يرائي، والمحب لا يعصي، والمتوكل لا يهاب.

وإن التسـاقط في وحل المعصيـة، والانجرار لخلافات ليس لها ما يسـوغها وكان يمكن وأدها في مهدها لو سَـلِمت النفوس من أوضارها وصفت النوايا من أوشـابها؛ كل ذلك يعلي من شـأن التربية الإيمانية، ويزيد من أهمية رفع مستوى المناعة الذاتية.

وأما الوعي فينجو به الإنسـان من مضلات الفتن وجنايات الهوى، ويسلم من آثار قصور النظر واحتجاب بعض الحقيقة، ويحمي نفسه من الوعي الزائف، ولو لم يكن في الوعي إلا حفظ النفس من أن تكون مطيَّة لظلم أو جسراً لفساد أو معبراً لفرقة؛ لكفاه.

ويتحقق الوعي بإصلاح طرائق التفكير والاسـتنتاج. ومن سبل رفع الوعي التنبّـه للألفاظ والمصطلحات، والتحرز من التعميمات التي توقع في شَرَكِها من يصدق كلاماً ينقصه التحقيق أو الدليل.

ويرتفع الوعي بمعرفة التاريخ وحوادثه، والنظر في الحاضر ووقائعه، والتبصّر للمستقبل ومآلاته. ومن خير ما يعين على الارتقاء بالوعي الإلمام بالمسلّمات الشرعية، والإحاطة بالسنن الإلهية في الكون والأفراد والأمم.

وإن النظر في القرآن الكريم، وتدبّر آياته؛ مما يحصّن الإنسـان من الزلل ويرفع مسـتوى الإدراك، حتى تفتح الآية الواحدة لمتدبرها أبواباً من التوفيق ما كان ليصل إليها بيسر لولا هذا الكتاب الميسِّر للذكر.

وكم نحن في حاجة لربط أنفسـنا وأجيالنا بالقرآن والسنة وعلومهما وأحكامهما، فإن الدعوة لا تبلّغ كمالاتها وتصل إلى ذروة رشدها دون التصاق علمي وعملي بهذين الوحيين الشريفين، وما اللمعان الذي يبدو على الثقافة الغربية إلا كبرق خلب لا ينعش فكراً ولا يحيي قلباً.

وما أسعد الأمة بجيل تربّى على ما يحقق فيه المناعة ضد الشهوات والشبه، والوعي من المكائد والخدع؛ فالعدو متربص بالكبار فضلاً عمّن دونهم، وقد مكروا مكراً كبّاراً لا يحسن معه إلا العمل الدؤوب في تربية النفوس وإصلاحها وربطها بما عند الله، فما عنده خيرٌ وأبقى.



هامان.. بين «التوراة» والقرآن

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ﷺ.. أما بعد:

فإن مما امتنَّ الله به على نبيه ﷺ ما أطلعه عليه من أخبار الرسل – عليهم السلام، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

ومن أعجب ما قصَّ القرآن العظيم ما كان من أمر موسى – عليه السلام – ودعوته لفرعون وقومه، فهي إلى ما فيها من مواعظ وعبر تَذْكُرُ من حقائق التاريخ ما لم يتكشَّف للباحثين إلا في القرن العشرين؛ من ذلك تفريق القرآن الكريم بين لقبي (الملك) في زمن يوسف – عليه السلام – ولقب (فرعون) في زمن موسى – عليه السلام، فإن ملوك مصر في زمن يوسف – عليه السلام – كانوا من الهكسوس لا المصريين، وكانوا يلقّبون بالملوك، بخلاف زمن موسى – عليه السلام.. ومن ذلك تفاصيل نهاية فرعون، وقصة التيه، ودخول بيت المقدس، وغيرها.

ورغم دقة القرآن الكريم في وصف رسالة موسى – عليه السلام – وما كان من أمره مع فرعون، إلا أن بعض المستشرقين من اليهود والنصارى لما وجدوا بعض ما جاء في قصة موسى – عليه السلام – في القرآن الكريم مخالفاً لما عندهم، جعلوا ما عندهم أصلاً وعدّوا ما سواه باطلاً، وما علموا أنهم إنما تعلقوا بقشة في مهب الريح.

ومن أشهر ما اعترض به المستشرقون على قصة موسى – عليه السلام – في القرآن الكريم، دعواهم أن «هامان» لم يكن معاصراً لفرعون، بل لم يكن من قوم فرعون أصلاً؛ وإنما كان وزيراً في البلاط الفارسي في عهد الملك أَحَشْويرُوش، كما ينص على ذلك سفر أستير التوراتي. وأول من قال بهذه الدعوى – وفقاً لما بين أيدينا من كتابات – الإسباني «بيدرو دي لا كاباليريا» عام ١٤٥٠م تقريباً[1].. يقول هذا اليهودي المتنصِّر في كتابه «حماس المسيح ضد اليهود والسراسنة [المسلمين] والكفار»:

"هذا المجنون [يعني محمداً ﷺ] يجعل (هامان) معاصراً لفرعون... وهو كما ترى من الكذب والجهل كما سيصرح

(1) ‘Abdullah David & M S M Saifullah. “Biblical Haman » Qur’ānic Hāmān: A Case of Straightforward Literary Transition?” at (www.Islamic-awareness.org).

بذلك كل من له دراية بالكتب المقدسة. أمَّا هو [ﷺ] وأتباعه فليخرسوا كالبهائم"[1]. وبغض النظر عن سباب هذا الجهول سيرى القارئ في خاتمة المقال من الأجدر أن يخرس كالبهيمة!

بيد أن هذه الدعوى ليست مما استقل به «كاباليريا»، فإننا نجد المستشرق الإيطالي الشهير «لودوفيكو مراتشي» يجترُّها قائلاً:

"لقد خلط محمد قصصاً مقدسة. فقد اعتبر هامان مستشاراً لفرعون بينما كان في الحقيقة مستشاراً لأحشويروش، ملك فارس، وكذلك ظن أن فرعون أمَر أن يُبنى له صرحٌ، نقلاً عن قصة برج بابل"[2].

وقد سار في ركاب هذين المستشرقين «نولدكه» و«منغانا» وغيرهما ممن طاروا بها فرحاً وظنوا أنهم وجدوا مفارقة تاريخية في كلام رب البرية الذي خلق فرعون وهامان وهو بهما أعلم.

والرد على هذه الدعوى من وجهين؛ الوجه الأول: أن قصة «هامان»، وزير الملك الفارسي، لا تثبت تاريخياً بشهادة علماء التوراة، فكيف تكون أصلاً؟.. يقول أستاذ الدراسات اليهودية بجامعة هارفرد «جون ليفينسون»:

"**إن الإشكالات التاريخية في [سفر] أستير كبيرة جداً** إلى حدٍّ يُقنع كلَّ من لم يؤمن بتاريخية الرواية التوراتية بدافع عقدي أن يشك في صحة تلك الرواية"[3].

بل إن «الموسوعة اليهودية» لا تتردد في الحكم على سفر أستير بقولها: "قلة من العلماء المعاصرين ذوي الشأن يعدون رواية أستير قائمة على أساس تاريخي... **إن جمهور الشراح المعاصرين** توصلوا إلى أن السِّفر **قطعة من الخيال المحض**"[4].

فكيف يستدل الحالمون على دعواهم ضد كتاب الله عزّ وجل بهذا الخيال المحض؟

الوجه الآخر: أن الآثار الفرعونية تشهد أن كبير كهنة الإله «آمون» أو «آمان» – كما في أحد النصوص البابلية المعاصرة لزمن فرعون[5] – كان القائم بأعمال فرعون، وكان مشرفاً على بناء الصروح لسيده. يقول كبير كهنة «آمون» عن نفسه:

"لقد كانت لي أيادٍ بيضاء في أملاك «آمون» حين كنت رئيس الأعمال لسيدي. فقد صنعت له هيكل رعمسيس [الثاني]... عند البوابة العليا لهيكل آمون. جعلت له فيها مسلات من الصوان، بلغت السماء حسناً"[6].

وتأمّل قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

فهامان لم يكن وزيراً للملك الفارسي (أحشويرش) كما يدَّعي سفر أستير، بل كان كبير الكهنة في بلاط فرعون مصر (رعمسيس الثاني).

وأما سبب تسميته «هامان» فقد بحثه الأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة بحثاً وافياً في كتابه القيّم «من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن». وخلاصة ما ذهب إليه أنه اسم مزجي من المصرية القديمة يدل على منصب كبير كهنة آمون: (ها + آمان)؛ علماً أن صيغة (آمان) هي الواردة في النص البابلي للمعاهدة التي أبرمت عام ١٢٨٠ ق. م بين خاتوسيلاس ملك الحيثيين ورعمسيس الثاني فرعون مصر. ومعنى (ها + آمان): النافذ إلى [الإله] آمون، أو المدلف إلى [الإله] آمون[7]، أي أنه حاجب الإله آمون، وهو وصف لائق بكبير الكهنة.

فتبيَّنَ أن حجة المستشرقين داحضة، وأن البهيمة حقاً هو المستهزئ «كاباليريا» ومن ادَّعى دعواه.. وقد قال تعالى عن مثله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١ – ٤٤].

(1) A. Reland (Trans. Anon). «Treating Of Several Things Fasley Charg'd Upon The Mahometans» in Four Treatises Concerning The Doctrine, Discipline And Worship Of The Mahometans (J. Darby, 1712), p. 82.

(2) L. Marraccio, Alcorani Textus Universus (Patavii, Italy: Ex Typographia Seminarii, 1698), p. 526.

(3) J. D. Levenson, Esther: A Commentary (SCM Press Limited, 1997), p. 23.

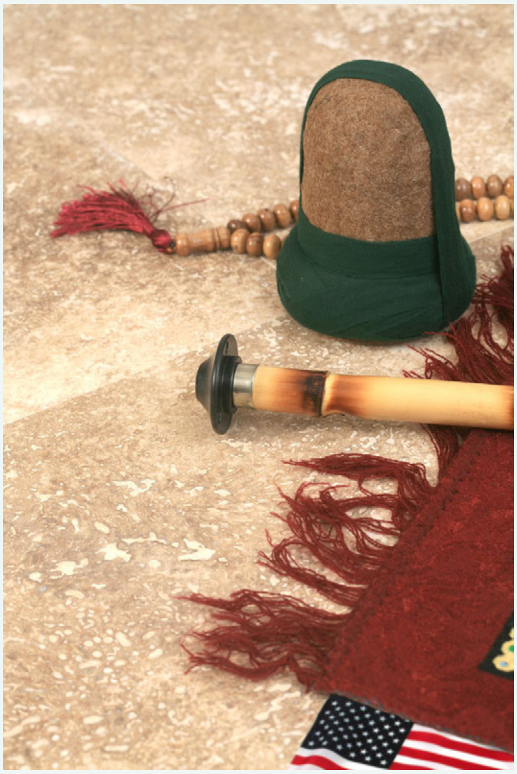
(4) The Jewish Encyclopaedia (London & New York: Funk & Wagnalls Company, 1905), vol. V, pp. 235236-.

(٥) نبيلة محمد عبد الحليم، معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، ص ٦٩–٨٧. كما في: محمود رؤوف أبو سعدة، من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن.

(6) K. A. Kitchen, Ramesside Inscriptions, Translated & Annotated (Oxford, Blackwell Publishers, 2000), vol. III, pp. 214.

(٧) محمود رؤوف أبو سعدة، من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن (اليمان للنشر والتوزيع، ١٤٣٢ هـ)، الجزء الثاني، ص ٧١ – ٧٢.

العبور الأمريكي عبـــــــــ



«الوهابية والسلفية هم أشد أعـداء الصوفيـة والتقليديـة في العالم الإسـلامي. ونتيجـة لهذا العـداء فالصوفيـة والتقليديـة هـم حلفاء طبيعيـون للغرب في حربهم ضد الراديكالية».

من كتاب: «العالم الإسلامي بعد أحداث ١١/٩»

■ **إعداد: مركز الأبحاث والدراسات**

مدخل:

"لا تخافوا سائر الإسـلاميين، خافوا السلفيين".. بهذه العبارة الموجزة لخص الكاتـب "روبن رايت" هواجس أمريكا حول "التطرف الإسـلامي"، زاعماً ظهور ما يسـميه (هلال سلفي جديد يتشعب من مشيخات الخليج الفارسي إلى بلاد الشـام وشـمال إفريقيا، هو أحد المنتجات الجانبية الأكثر تجاهلاً والمثيرة للقلق من الثورات العربية. وبدرجات متفاوتة يتحرك هؤلاء المتشدّدون الشـعوبيون في الفضاء السياسي الذي كان يحتله المسلحون الجهاديون، والذين هم أقل رواجاً الآن. وكلاهما أصوليون يفضلون نظاماً جديداً مشـكلاً على غرار الإسـلام الأول. وليس بالضرورة أن يكون السـلفيون مقاتلين، فأغلبهم ينبذ العنف)[1].

وهكذا قويت مع الزمن هذه الهواجس في نفوسهم، لدرجة وضع فيها الغرب جميع السلفيين في خانة التشدد، وانطلقوا يهرفون بمواجهتهم بما يصفونه بتيارات "الإسلام المعتدل".

ولقـد كان من إحدى العلامات البارزة في مجال صناعة وصفة "الإسـلام المعتدل"، توظيف الغـرب مراكزه وبحوثه ودراسـاته المتخصصة في المجالات الإسلامية لبناء مصادر معلوماتية زاخرة لصنّاع القرار والسياسات، واضعاً بين أيديهم

---

(١) «روبن رايت»، باحث بمعهد السلام الأمريكي - كلامه حول السلفيين مترجم من مجلة «نيويورك تايمز»، ٢٠-٨-٢٠١٢: (http://www.nytimes.com/2012/08/20/opinion/dont-fear-all-islamists-fear-salafis.html?r=0).

ـــــر "الزوايا الصوفية"



خلاصات رصد الصحوة الدينية وسط المسلمين، والتي يجرى دفعها في نهاية المطاف إلى "المطابخ الاستراتيجية" من أجل تحويل مخرجاتها النهائية لأغراض الإنذار المبكر حول الإسلام والجماعات الإسلامية والصحوة الإسلامية، هذا إلى جانب الاستفادة منها في بناء الاستراتيجيات والسياسات الميدانية لمواجهة التطور الحاصل في العمل الإسلامي على مستوى الدول والمجموعات الإسلامية.

وقديماً كانت تضطلع بهذا الدور المعلوماتي المهم حركة "الاستشراق والمستشرقين" التي أسدت خدمات جليلة في ذات الاتجاه؛ من خلال الغوص في أعماق التاريخ والإرث الإسلامي العميق، والعمل على استكشاف كل ما يمكن الاستفادة منه في خدمة الغرب في سجاله ومواجهته الإسلام عبر العالم؛ فكان عملها خير عون ومساعد للجيوش الاستعمارية الغربية في غزو واختراق الدول والمجتمعات الإسلامية.

وتمثل الأسطر التالية جانباً أولياً من الرصد والمتابعة والقراءة في مسيرة تطبيق استراتيجية الولايات المتحدة في "بناء شبكات إسلامية معتدلة" لمواجهة "السلفية" في العالم. وهذا الجهد في مجمله تلخيص لمعلومات وردت عبر مختلف الوسائط الإعلامية.

أولاً: أبعاد الاستراتيجية الأمريكية في استغلال الصوفية لترويض العالم الإسلامي:

كما هو معلوم انشغل عديد من مراكز البحوث الاستراتيجية الأمريكية فيما بعد (٢٠٠١م)، وطبقاً لموجّهات استراتيجية عليا؛ بهندسة استراتيجيات عملية لتحجيم "السلفيين" ومحاصرة ما يصفونه بـ "الإسلام السياسي"، عبر إنشاء شبكات من مجموعات إسلامية أخرى - تحديداً ممن يطلقون عليهم الجماعات الدينية التقليدية، ممثلة في (الصوفية) و(جماعة البلاغ) والعلمانيين (الليبراليين) في جانب، والشيعة في الجانب الآخر.

وكما هو معلوم أيضاً يتلخّص الدور المناط بهذه الشبكات في تحقيق القبول لأمريكا وسط المسلمين، وتحسين صورتها ومساعدتها على خلق بيئة هادئة لعمل استراتيجياتها التي تنشط داخل أرجاء العالم الإسلامي. ولم يعد سراً اعتماد الاستراتيجية الأمريكية "الإسلامية الجديدة" على تدشين عملية بعث الفكر الصوفي والطقوس الصوفية بَدءاً بتوثيق الصلات الأمريكية مع المشيخات والطرق الصوفية التي اختيرت بعناية فائقة للعب الدور المنتظر منها، وظهر بجلاء انخراط البعثات الدبلوماسية الأمريكية في مهام جديدة عبر صندوق سفرائها لإعادة إحياء المقامات والأضرحة من أجل إعلاء المؤثرات الروحية الصوفية التي يرون فيها سبيلاً للقضاء على تأثيرات التيارات "المتشددة". وبالطبع، تنتظر أمريكا مردوداً سريعاً لذلك العمل المشترك - سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً.

الدراسات الأمريكية التي تناولت الإشارة للصوفية كبُعد استراتيجي للولايات المتحدة	
الجهة	**الفعالية**
مؤسسة راند	عام ٢٠٠٣م - دراسة بعنوان: **(الإسلام المدني الديمقراطي)**
مركز نكسون للدراسات	عام ٢٠٠٤م - مؤتمر بعنوان: **(فهم الصوفية ودورها المحتمل في سياسة الولايات المتحدة)**
معهد الولايات المتحدة للسلام	عام ٢٠٠٥ - دراسة بعنوان: **(الإسلام السياسي في إفريقيا جنوب الصحراء)**
مؤسسة راند	عام ٢٠٠٧م - دراسة بعنوان: **(بناء شبكات إسلامية معتدلة)**
مؤسسة كارنجي للأبحاث	عام ٢٠٠٧م - دراسة موسعة: **(الصوفية في آسيا الوسطى)**
مؤسسة راند	عام ٢٠٠٩ - دراسة بعنوان: **(الإسلام الراديكالي في شرق إفريقيا)**

ا. منبع اهتمام أمريكا بالصوفية:

على امتداد سنوات العقد الماضي تركز اهتمام الإدارات الأمريكية المتعاقبة على الجماعات الصوفية في باكستان والصومال والسودان ومصر والأردن، وبعض دول المغرب العربي، ودول أوروبا وأمريكا.

ومبعث هذا الاهتمام الكبير بالصوفية، والفئات الأخرى؛ هو بحث أمريكا عن شريك داخل جسد الأمة المسلمة يمكن أن تنفذ من خلاله استراتيجياً إلى تحجيم وإبعاد التيارات السلفية التي تقف حجر عثرة أمام هيمنتها على المسلمين ومسعاها لإقصاء الإسلام من حياتهم. وقد وجد الباحثون الأمريكان هذه الضالّة المنشودة في الصوفية بصورة مركزية، من خلال وجهات نظر عديدة:

• **فكرياً**: يرى الأمريكان أن "فرق المتصوفة" و"النخب الليبرالية" على امتداد العالم الإسلامي، هم أكثر المجموعات التي يسهل استيعابها وانخراطها في المشروع الأمريكي لمواجهة "المد السلفي" و"الإسلام السياسي" في العالم؛ لما يتمتعون به من رغبة قوية واستعداد ذاتي للالتقاء والعمل مع الآخرين من أجل إقصاء "السلفية" من واجهة التأثير في العالم الإسلامي.

• **دينياً**: يتصور الغرب، وأمريكا على وجه الخصوص، أن الصوفية أكثر الفئات المسلمة تساهلاً في اتباع السنة وأعلاها احتفاء بالمبتدعات وأقلها في جانب تطبيق النصوص المنادية بالعمل بفهم السلف الصالح؛ ولذا يعتبرونهم غير متشددين في التطبيق والممارسة، بينما يشيدون بما يتميز به الفكر الصوفي من تقديس الأضرحة والمشايخ وحب الإنشاد والميل للطقوس الاحتفالية والموالد، فهي أمور يرتضونها ويعتبرونها ممثلاً للإسلام "الوسطي!"، وهم على استعداد لدعم انتشارها وترويجها في المجتمعات الإسلامية.. وهذا بالطبع مردّه إلى أن النصرانية واليهودية لا ترغبان في وجود أمة إسلامية قوية في عقيدتها وارتباطها بربها ونبيها حتى تسهل مهمتهما بين المسلمين.

• **سياسياً**: يتصوّرون أن الفرق الصوفية أكثر المسلمين اعتدالاً، وأكثرها ابتعاداً عن العمل السياسي ونهج العنف. وطبقاً لذلك هم يتصوّرون أن المتصوفة أكثر عداء "للإسلام السياسي"، وأقل إلحاحاً في المطالبة بتطبيق الشريعة، ولا يعملون بصورة منظمة من أجل انتقال بلدانهم للحكم بالإسلام.. ولهذه الخصائص السياسية التي يتوقعونها من الصوفية فقد جعلوهم في تلاقٍ كبير مع الليبراليين لتشكيل جبهة للوقوف ضد خصومهم هؤلاء لمحاربة "التطرف والغلو"! بحد زعمهم.

خلاصة الدراسات الأمريكية التي بُنيت عليها استراتيجية استغلال التصوف

- الصوفية تمثل: "البديل الثقافي والاجتماعي والدين الأساسي لمواجهة الأشكال الأيديولوجية للإسلام المهيمنة حالياً في العالم الإسلامي".

- الصوفية هي: "الإسلام الذي يمكن أن تتعامل معه أمريكا والغرب، حيث يمكن أن تقدم مساعدة عظيمة للعالم، وذلك عبر مواقفهم من الاستقلال والتعددية واحترام الأديان والعقائد الأخرى".

- الصوفية تعتبر: أوضح خيار للمسلمين للمصالحة بين "العالم اليهودي - المسيحي" و"العالم الإسلامي".

٢. السفارات الأمريكية تسابق الزمن في تنزيل استراتيجية استغلال الصوفية:

ليس صدفة أن ينهمك الدبلوماسيون الأمريكيون في الدول الإسلامية بإبداء رعاية خاصة للطرق الصوفية، فالمعلومات التي تتناقلها الوسائط الإعلامية المختلفة تشير إلى شروع الدبلوماسية الأمريكية، من خلال السفارات الأمريكية المنتشرة عبر دول العالم الإسلامي؛ في فتح قنوات تواصل وتنسيق مع الفرق الصوفية المنتشرة في هذه الدول في إطار تنزيل استراتيجية أمريكا في استخدام التصوف في محاربة "المد السلفي" في العالم الإسلامي.

وتتسابق السفارات الأمريكية ودبلوماسيّوها في العواصم الإسلامية على خلق علاقات قوية مع مشايخ الطرق الصوفية (الذين يدين لهم جميع مريديهم بالولاء والطاعة الكاملة) عبر الزيارات واللقاءات التي تتم معهم في دورهم ومشيخاتهم، وذلك كأسلوب عملي مؤثر للنفاذ إلى قلب الطريقة الصوفية ومحبّيها، ومن ثم البناء على تلك العلاقة لخلق أرضية للعمل المشترك مع الصوفية. وسنعرض نماذج من دبلوماسية التقرب من الصوفية في الفقرات الآتية.

ثانياً: المجهودات العالمية لبعث التصوف:

الغريب أن جميع المجهودات الدولية التي تستهدف إعادة بعث التراث الصوفي وإعادة ترميم وصيانة الأضرحة والمقامات الصوفية؛ تأتي في إطار الاستراتيجية الأمريكية في نشر المنهج الصوفي وتسويقه كبديل مقبول لتطبيق الإسلام في العالم لإحلال الإسلام القائم على المنهج السلفي.

١. مؤتمرات التصوف ذات الصبغة الدولية:

شهدت السنوات الماضية العديد من المؤتمرات والندوات التي عُقدت بغرض إحياء وبعث التراث الصوفي داخل وخارج العالم الإسلامي، وكان من أبرزها:

- ألمانيا (٢٠٠١م) - المؤتمر ٢٨ للمستشرقين الألمان، بحوث بعنوان: (الأخوّة الصوفية كحركات اجتماعية)، و(الحركة النقشبندية في داغستان)، و(التيجانية في غرب إفريقيا)، و(صورة الموالد الشعبية في مصر)[١].
- ألمانيا (٢٠٠١م) - المؤتمر العالمي الأول لدراسات الشرق الأوسط، بحث بعنوان: (الإسلام الحديث والطريقة النقشبندية المجددية الصوفية)، و(الأولياء الصوفيون وغير الصوفيين)[٢].
- مصر (٢٠٠١م) - مؤتمر "التصوف منهج أصيل للإصلاح"، وقد نظمته "أكاديمية الإمام الرائد لدراسات التصوف وعلوم التراث بالعشيرة المحمدية"[٣].
- مصر (٢٠٠٣م) - المؤتمر العالمي للطريقة الشاذلية بمدينة الإسكندرية، وقد انعقدت جلساته في مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع (وزارة السياحة المصرية)، و(منظمة اليونسكو)، و(من دولة فرنسا كل من: وزارة الخارجية، ووزارة البحث العلمي، والمركز الوطني الفرنسي للبحوث والدراسات العلمية، والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ودار العلوم الإنسانية)[٤].
- بلغاريا (٢٠٠٣م) - ندوة حول (أدب التصوف في

(١) أقيم المؤتمر في مدينة هامبرج، انظر جريدة الشرق الأوسط الأربعاء ٤ محرم ١٤٢٢ هـ، ٢٨ مارس ٢٠٠١، العدد ٨١٥٦.

(٢) أقيم هذا المؤتمر بجامعة يوهانسن جوتنبرج (مدينة ماينز)، كما أن المبادرة إلى عقده جاءت من رابطة دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية، وقد حضره ألفا باحث وعالم ومفكر، كما شارك في المؤتمر قرابة الألف من السياسيين الرسميين وغير الرسميين.. الأهرام (٢٥ محرم ١٤٢٣ هـ) الموافق (٨ أبريل ٢٠٠٢م) العدد (٤٢١٢٦).

(٣) أقيم برئاسة الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، في قاعة المؤتمرات الكبرى بالأزهر - القاهرة.

(٤) انظر مجلة البحوث والدراسات الصوفية العدد الأول صفحة (٥٩٥).

الإسلام)[١].

• الدانمارك (٢٠٠٤م) – سلسلة محاضرات عن (الحلاج وابن عربي وابن الفارض).

• المغرب (٢٠٠٤م) – المؤتمر العالمي للطرق الصوفية: (لقاءات سيدي شيكر العالمية للمنتسبين إلى التصوف) تحت رعاية جلالة الملك محمد السادس[٢].

• مالي (٢٠٠٤م) – المؤتمر العالمي الأول للطرق الصوفية بغرب إفريقيا تحت شعار: (التصوف أصالة وتجدد)[٣].

• ليبيا (٢٠٠٥م) – مؤتمر دولي بعنوان: (الطرق الصوفية في إفريقيا.. حاضرها ومستقبلها) تحت شعار (معاً من أجل تفعيل دور الطرق والزوايا الصوفية في إفريقيا)[٤].

• الأردن (٢٠٠٥) – مؤتمر: (حقيقة الإسلام ودوره في المجتمع المعاصر) برعاية الملك عبد الله الثاني.

• الأردن (٢٠٠٧م) – مؤتمر: (النزعة الصوفية في الأدب العربي) – عُقد ضمن فعاليات "إربد مدينة للثقافة الأردنية لعام ٢٠٠٧"[٥].

٢. جهود منظمة اليونسكو والولايات المتحدة لإعلاء الشِّعر الصوفي:

خصصت منظمة اليونسكو العام ٢٠٠٧ عاماً دولياً للاحتفال بالمئوية الثامنة للشاعر الصوفي "جلال الدين الرومي" (١٢٠٧ – ١٢٧٣م.. بآسيا الوسطى)، حيث دشَّنت اليونسكو هذه المناسبة بإقامة ندوة دامت يوماً كاملاً في مقرها بباريس، إلى جانب إقامة معرض للكتب والمخطوطات واللوحات التي تتناول حياة جلال الدين الرومي وأعماله[٦].

وفي المقابل، تشهد الولايات المتحدة ترجمات غير مسبوقة للشعر الصوفي لجلال الدين الرومي، حيث تتربع مبيعات كتبه الشعرية المترجمة على رأس مبيعات الكتب في الولايات المتحدة. كما نظم مركز الدراسات الفارسية في جامعة ميريلاند الأمريكية مؤتمراً لاستكشاف شعر الرومي إضافة إلى صلته المستمرة بالعالم قديمه وحديثه.

وهناك سيل متواصل للترجمات الجديدة لمؤلفات جلال الدين الرومي الضخمة، بينما تجرى الدراسات العلمية عن حياته وأعماله بصورة مستمرة، كما تم تحويل قصائده إلى موسيقى تم عزفها على المسارح ووضعها على أقراص مدمجة ونشرها على شبكة الإنترنت في الولايات المتحدة وحول العالم.

٣. ترميم الأضرحة الصوفية بواسطة "صندوق السفراء الأمريكيين":

في بيان صحفي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية (في ٨ يونيو ٢٠٠٩)[٧] جاء فيه أن: ("صندوق السفراء الأمريكيين" لصيانة الثقافة سيقدم منحاً لمشاريع مهمة هذه السنة لترميم عدد من المعالم التاريخية والثقافية، بينها مساجد قديمة وأضرحة ومقامات لشخصيات من الفترة الصوفية المبكرة).

وقد أشار التقرير إلى ترميم "ضريح حافظ محمد حياة" الذي يعود للقرن الثاني عشر في غوجارات، و"مقام حضرة شاه شمس تبريز" الذي يعود إلى القرن الثالث عشر في مولتان، وهما معلمان متميّزان مهمان من معالم أضرحة أئمة الصوفية المبكرة في باكستان. وقد سبق لصندوق السفراء لصون الثقافة أن دعم مشاريع أخرى في باكستان لترميم أضرحة ومقامات.

يُذكر أن هناك آليات لتمويل أنشطة الشبكات المذكورة – منها مبادرات وصناديق وأوقاف مشهورة.. فهناك ثلاثة صناديق رئيسة تعمل على توفير التمويل الذي يستهدف اختراق المجتمعات الدينية والمدنية في بلاد الشرق الأوسط المسلمة تحت عنوان (نشر الديمقراطية)، وهي صناديق تعمل على تحفيز مجموعات معينة للانخراط في تنفيذ المشروع الأمريكي في المنطقة.

---

(١) انظر جريدة الشرق الأوسط (١٢ يوليو ٢٠٠٣) العدد (٨٩٩٢). قدم الأوراق بالمركز الثقافي الأوروبي (بلغاريا) ألكسندر فسلينوف، والبروفيسور تسفيتان تيوفانوف، (أشهرا إسلامهما في أوقات سابقة)، وهما من قسم الاستشراق بجامعة صوفيا.

(٢) وكالة الأنباء المغربية في (١٠/٩/٢٠٠٤م). وقد عقد المؤتمر بمشاركة أمريكية وبزعامة هشام قباني الذي يعتبر المنسق بين الإدارة الأمريكية وبين الطريقة النقشبندية.

(٣) مدينة باماكو، انظر موقع:
.http://www. alelam. net/policy/details. php?id=1760&country=1&type=N

(٤) انظر موقع: http: //www. libsc. org/LSC/elan1

(٥) انظر تفاصيل المؤتمر المذكور في موقع «دروب»:
(http://www.doroob.com/?p=23756).

(٦) انظر موقع الخبر موقع السفراء في وزارة الخارجية الأمريكية (٢٣ أكتوبر ٢٠٠٧):
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans)
/2009/06/20090610161555bsibhew0.4015619.
(html#axzz19bVFfvL2WO

(٧) انظر موقع الخبر موقع السفراء في وزارة الخارجية الأمريكية (٢٣ أكتوبر ٢٠٠٧):
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans)
/2009/06/20090610161555bsibhew0.4015619.
(html#axzz19bVFfvL2WO

التمويل جاهز لمن ينخرط؟

١. مبادرة الشراكة الشرق أوسطية (MEPI)، وهي عبارة عن برنامج لوزارة الخارجية الأمريكية يهدف إلى (تشجيع الإصلاح في البلدان العربية من خلال تعزيز المجتمع المدني العربي، وتشجيع المشاريع الصغيرة، وتوسيع المشاركة السياسية، وتعزيز حقوق المرأة).

٢. صندوق وزارة الخارجية لحقوق الإنسان الديمقراطية (صندوق تنمية الموارد البشرية)، وهو عبارة عن (حساب لأموال تعزيز حقوق الإنسان في الدول ذات الأغلبية المسلمة).

٣. الوقف الوطني للديمقراطية في (NED) - برنامج "ديمقراطية المسلمين".

٤. صندوق السفراء الأمريكيين (وزارة الخارجية الأمريكية).

ومعلوم أن هذه المشاريع تحت تصرف صانع القرار الأمريكي وسياسته المتّبعة في دعم المجموعات المختارة داخل كل دولة، وهي المجموعات المستعدة للانخراط في المشروع الأمريكي تحت لافتته العريضة (نشر الديمقراطية)؛ حيث يبيّن تقرير الكونغرس الأمريكي المعنون بـ (سياسة الولايات المتحدة لتعزيز الديمقراطية في الشرق الأوسط: معضلة الإسلاميين)؛ أن الكونغرس يخصص أيضاً أموالاً لبرامج الديمقراطية الإقليمية ولمشاريع المساعدات الخارجية، و"قد يحدد استخدام هذه الأموال لمشاريع معينة، أو توجيهها لمجموعات معينة"[*].

٤. جهود بعث التصوف في باكستان:

لتحسين صورتها بين المسلمين في باكستان، تهتم الولايات المتحدة بالصوفية لقطع الطريق على "الإرهابيين والمتشددين من جهة أخرى" - حسب زعمها؛ ولذا خططت لإقامة مؤتمر دولي للصوفية في مواجهة "أفكار التشدد" في العالم الإسلامي (فبراير ٢٠١٠م)، بجانب قيام السفيرة الأمريكية بباكستان في ٢١ أبريل ٢٠١٠م بالتوقيع على معاهدة بينها وبين اتحاد الصوفية في باكستان، قدمت لرئيسه مليوناً ونصف المليون دولار، لتزيين "الأماكن المقدسة" للصوفية في باكستان، وترميم المزارات التاريخية وصيانتها، إلى جانب بناء قُبب جديدة على المزارات المختلفة[١].

وقد بدأت الحكومة الباكستانية منذ عهد الرئيس "برويز مشرّف" بالاهتمام بالصوفية كقوة كامنة في مواجهة الخصوم - خاصة الإسلاميين، فقد كان "مشرّف" أول من اهتم بهم، ونظّم مؤتمراً للصوفية في باكستان شارك فيه ما لا يقل عن ألفي شخص يمثلون ٢٠٠ فرقة وجماعة من مختلف المشارب والأطياف الروحية الموجودة في باكستان. وانطلقت الحكومة الباكستانية في تنظيم الصوفية بهيئة عليا للصوفية من جهة ومجلس أعلى لمشايخ الصوفية أيضاً، ومهمتهما تنظيم الصوفية الباكستانيين، وتقديم الدعم المادي لهم، وتسهيل أعمالهم، وفتح مزيد من المراكز الدينية لجعلهم يمارسون نشاطهم دون عقبات.

وكان أول أعمال المجلس العالمي للصوفية إصداره فتوى تحرّم "العمليات الانتحارية" في باكستان، واعتبارها غير جائزة، كما أصدر فتاوى أخرى اعتبر فيها طالبان خارجة عن الدين وجماعة باغية يجب التعامل معها بما ينص عليه الدين الإسلامي!

كما يجري في باكستان ترويج الموسيقا الصوفية، خاصة فرقة القوالي الباكستانية (فريد أياز قوال وإخوانه) التي تغني القصائد الصوفية باللغة العربية والفارسية والهندية والأوردية والبنغالية، بمصاحبة موسيقى "القوالي" الصوفية الباكستانية والإيرانية[٢].

٥. حركة التأصيل الشرعي للتصوف التي تنتظم العالم اليوم:

أما حركة التأصيل الشرعي للفكر الصوفي من حيث المعتقدات والممارسة والتطبيق، فيمكن تلخيصها في عدة نقاط، أبرزها ما يلي:

(*) انظر التقرير المشار إليه "U.S. Democracy Promotion Policy in the Middle East: The Islamist Dilemma" في الموقع الإلكتروني لمكتبة إدارة البحرية الأمريكية (مؤرخ في ٦ يونيو ٢٠٠٦):
http://www.history.navy.mil/library/online/democ%20in%20)) middle%20east.htm#combating

(١) هناك تقرير موسع حول الموضوع في مجلة «المجتمع» الكويتية: (الصوفية.. أداة السلطة في مواجهة خصومها)، عدد ١٣ أكتوبر ٢٠١٢م.

(٢) للمزيد يراجع موقع مجلة «شتاء وصيف» الإلكترونية المغربية المتخصصة في الموسيقى والغناء:
http://djodaba.) ٩٦٩٢١/ (موسيقى-القوالي-الصوفية-الكلاسيكية-ال /maktoobblog.com

• الإفتاء بجواز تعدّد الطرق والاختلاف والتفرق.

• محاربة التوحيد الحق واعتبار الدعوة له بدعة وخروجاً عن الملة.

• نشر العقيدة الأشعرية واعتبار عقيدة السلف تجسيماً.

• إجازة جميع أبواب الشرك التي حرّمتها الشريعة.

• الافتاء بجواز التعبّد بالأذكار والأوراد التي يؤلفها المشايخ.

• إباحة البدع وإيجاد المسوغ الشرعي لها.

• إباحة الاحتفال بالموالد والحضرات (الذكر على أنغام الموسيقى وآلات الطرب).

ثالثاً: إطلاق موجات حرق وهدم للأضرحة الصوفية للإيقاع بالسلفيين:

لقد هدف هذا المخطط البغيض إلى إحداث فتن ومواجهات دموية بين الصوفية والسلفيين عبر استهداف هدم أضرحة بعض مشايخ الطرق الصوفية في عديد من الدول الإسلامية.

• ففي السودان جرت عدة محاولات لتخريب وحرق بعض الأضرحة، منها: تخريب ضريحي الشيخ إدريس ود الأرباب والشيخ المقابلي (بالعيلفون)، والاعتداء على ضريح الشيخ حسوبة (بسوبا شرق – الخرطوم)، وتخريب ضريح الشيخ حمد ود أم مريوم (ببحري)، وتخريب مقابر العيدج والبنداري (ببحري)، والاعتداء على ضريح الأمين البطحاني (بشرق النيل)، والاعتداء على ضريح الفكي هاشم (بشمال بحري)، وضريح الشيخ بابكر محمد سعيد (بالكريعات شرق تمبول)، وضريح الشيخ السنوسي (بنيالا – دارفور). وقد تمت معظم هذه المحاولات بين ٢٠١١ و٢٠١٢.

• وفي مصر – بعد الثورة – تم الاعتداء على ضريح الشيخ عز الدين (بالمنوفية)، وأضرحة للشاذلية وبعض الطرق الصوفية الأخرى.

• وفي تونس – بعد الثورة – دُمّر ضريح الشيخ بوسعيد الباجي، وتعرض مقام الشيخ أحمد الورفلي للتخريب (باكودة)، إضافة إلى أضرحة أخرى.

• وفي ليبيا – بعد الثورة – تم الاعتداء على عدد من الأضرحة، منها: ضريح الشيخ أحمد الزروق (بمصراتة)، والشيخ الشعاب الدهماني (بالقرب من طرابلس)، والشيخ عبد السلام الأسمر (بزليتين – أغسطس ٢٠١٢).

• وفي الصومال جرت محاولة هدم ضريح الشيخ محيي الدين العلي، والشيخ أحمد الحاج (مارس ٢٠١٠).

• وفي مالي دُمّرت بعض مقامات وأضرحة مدينة تمبكتو (يوليو ٢٠١٢).

ويبدو أن هناك جهة واحدة أو عدة جهات مشتركة لها هدف مركزي واحد، هو الإيقاع والمصادمة بين السلفيين والطرق الصوفية على امتداد العالم الإسلامي، ومن ثم تأزيم العلاقة بين الطرفين، وربما الانتقال بعد ذلك إلى مرحلة المواجهات وتصفية الحسابات.

والغريب حقاً أن الأحداث التي تكررت في السودان – على وجه الخصوص – لم تستطع الجهات الأمنية القبض على أي جناة أو توجيه أي اتهام رسمي لأي جهة إسلامية بعينها، وظلت القضايا مسجلة ضد مجهول!

رابعاً: مجهودات الدول العربية في بعث التصوف:

١) صور من إحياء الصوفية في دولة المغرب:

تعمل السياسة الدينية التي انتهجتها الدولة المغربية على إحياء وتنشيط التراث والثقافة الصوفية ممثلة في المواسم الدينية، والمهرجانات واللقاءات العالمية للمنتسبين للتصوف، وإحياء وتشجيع الزوايا والطرق الصوفية، وتقديم كافة أشكال الدعم لها، خاصة الطرق: «التيجانية» و«البودشيشية» و«الكتانية». ولقد استطاعت «الطريقة القادرية البودشيشية» أن تنال سلطة معنوية يحسب لها ألف حساب، وأن تكون لها علاقات وطيدة مع هيئات دبلوماسية لبلدان عظمى، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وأن تستقطب أتباعاً بالملايين داخل المغرب وخارجه[1].

كما تعكس المهرجانات الصوفية في المغرب محاولات الحكومة المغربية توظيف التصوف في لعبة التوازنات السياسية، بتعزيز الصوفية في البلد كحل لمواجهة صعود "الحركات الأصولية غير المعتدلة والمتطرفة"، سيراً على درب

(١) انظر مجلة «المجتمع» الكويتية: (الصوفية.. أداة السلطة في مواجهة خصومها)، عدد ١٣ أكتوبر ٢٠١٢م.

الموجّهات الأمريكية[١].. ومن هذه المهرجانات:

- مهرجان بمدينة مراكش باسم الدورة الدولية الأولى للقاءات والموسيقى الصوفية، تحت شعار: "سماع مراكش"، أقامته جمعية (منية مراكش لصيانة وإحياء تراث المملكة المغربية).

- ومهرجان بمدينة فاس حول الثقافة الصوفية، تحت شعار: "مهرجان فاس للثقافة الصوفية: التصوف والتنمية الإنسانية"، أقامه (مجمع المسالك والتصورات).

وقد أفادت الشاعرة والكاتبة "ثريا إقبال"، مؤسِّسة جمعية (منية مراكش)، بأن اختيار أماكن أنشطة المهرجان مدروس جداً، حيث اختيرت الزوايا والقصور والأضرحة والحدائق بعناية فائقة.

وأضافت مؤسِّسة الجمعية أن الهدف من المهرجان هو تسليط الضوء وإعادة الاعتبار إلى الغنى الروحي والثقافي للمغرب، معتبرة أن: (الصوفية حقيقة أساسية في الدين والتي يصعب تناسيها والتي يجب إعادة اكتشافها وتذوّقها والسهر على المحافظة عليها لإيصال رسالة العرفان والحب التي تحتويها إلى العالم الذي بات يفتقد أكثر ما يفتقد إلى القيم الروحية والدينية).

وتشمل مواضيع "مجالس التصوف" التي نوقشت في فعاليات المهرجان:

- "المحبة الخالصة: نموذج السيدة رابعة العدوية".
- "خزائن الجود: نموذج أبو العباس السبتي".
- "خمرة المحبة في ترجمان الأشواق للشيخ محيي الدين بن عربي".
- وتركز الندوات على موضوع "التصوف شجرة المعرفة والمحبة".

٢) صور من بعث الصوفية في دولة الأردن:

كما في غيرها من الدول العربية، يجري الترويج للتراث الصوفي في الأردن عبر آليات عديدة تحاول التأطير الفكري للتصوف كبديل يمكن تسويقه لممارسة الإسلام في الأردن، كما حاول تصويره الدكتور عبدالله الناصر حلمي في مقالة بعنوان: "إسلام الصوفية هو الحل لا إسلام الخوارج (التصوف جهاد ضد هوى النفس وضد الطغيان والجبروت)"، حيث سوّق للأردنيين ضرورة العمل بالتصوف قائلاً: "فلنتجه إلى رسالة التصوف نستمد منها القوة الخلقية، والعزة الإيمانية، والفضائل الروحية، فنتخذها درعاً وحصناً يقي أمتنا ويحميها، ومعراجاً تصعد عليه إلى أهدافها وأمانيها. يجب أن يشع الروح الصوفي، الطاهر المؤمن القوي، في حياتنا ووجودنا، وأن نجعله مادة في معاهدنا ومدارسنا، ونوراً في صحفنا وكتبنا وإذاعاتنا، وحياة ملهمة في كل مرفق من مرافق نهضتنا. حينئذ نظفر برضوان الله، وبسيادة الحياة، وتمتلئ أيدينا بعزة الصوفيين، وبأس المؤمنين..)[٢].

وفي ذات الخط كان مؤتمر (النزعة الصوفية في الأدب العربي) بمدينة إربد قد سار مروّجاً للتصوف وأدبياته الشعرية، حيث تناولت أوراقه عناوين عديدة، من بينها: (التصوف بين الدين والفلسفة: محاولة في تحديد المفهوم)، (التأمل الصوفي في الخلق والفيزياء الحديثة)، (بين التجربتين: الجمالية والصوفية)، (قراءة في ديوان ابن عربي – ترجمان الأشواق)، (فلسفة العلامة وتأويلها بين بيرس وابن عربي)، (الجسم في تأويلات ابن عربي – سر مبهم وكشف أعجمي لنشأة ليليه)، (الصوفية في شعر صلاح عبد الصبور)، (النزعة الصوفية عند محمد أبو دومة)، (النزعة الصوفية في الشعر العربي القديم نقداً)، (الوجه الأدبي عند النفري قدمها الدكتور نصر الدين بيبرس)، (النزعة الصوفية في شعر محمد الفيتوري)، (النزعة الصوفية في الأدب العربي الحديث – عمر اليافي نموذجاً)، و(تمثلات صوفية في شعر أدونيس)[٣].

خامساً: الدبلوماسية الأمريكية ومشروع التحالف "الصوفي - الأمريكي":

عربياً، تهدف أمريكا إلى دعم الطرق الصوفية عبر إعادة إعمار المزارات والأضرحة، ونشر المؤلفات الصوفية، والمشاركة الدبلوماسية في بعض أنشطة الصوفية، إضافة

---

(١) للمزيد يراجع موقع مجلة «شتاء وصيف» الإلكترونية المغربية المتخصصة في الموسيقى والغناء:
(http://djodaba.maktoobblog.com/مراكش-تتصوف-بعد-فاس/٣١٩٧٩٥/).

(٢) انظر موقع «صوت الأردن»:
(http://www.sawtordon.com/index.php).

(٣) عقد هذا المؤتمر ضمن فعاليات «إربد مدينة للثقافة الأردنية لعام ٢٠٠٧»، في يومي ٥-٦ ديسمبر ٢٠٠٧، بمشاركة عدد كبير من الأدباء والمثقفين والأكاديميين من الجامعات الأردنية الرسمية والخاصة والجامعات السورية والفلسطينية والعراق، ومن جامعة السوربون الفرنسية (انظر موقع «دروب»:
(http://www.doroob.com/?p=23756).

إلى تمتين العلاقات الحميمية مع طرقها وشيوخها ورموزها، وبالطبع يطول ذلك تبادل الزيارات وحضور الموالد الصوفية وعقد الاتفاقيات والمؤتمرات المشتركة مع الصوفية.

وفي هذا الإطار يمكن استعراض نموذجين للدبلوماسية الأمريكية في تنفيذ برنامجها الميداني للتقارب مع صوفية مصر والسودان:

١) السفارة الأمريكية في دولة مصر .. والتقارب مع الصوفية:

يمكن ذكر النماذج الموجزة التالية حول التقارب الصوفي الأمريكي:

- لقاء السفير الأمريكي بمصر (فرنسيس ريتشارد دوني) الشيخ حسن الشناوي، شيخ مشايخ الطرق الصوفية.
- زيارة السفير الأمريكي الطريقة الجازولية ومشاركته أبناء الطريقة وهم ينشدون المدائح النبوية والأناشيد الدينية[١].
- زيارة السفير الأمريكي مولد "السيد البدوي" بمدينة طنطا للعام الثالث على التوالي، ولقاؤه مشايخ الطرق الصوفية[٢].
- زيارة جواند كاردنو القنصل الأمريكي في الإسكندرية ضريح الشيخ مرسي أبي العباس.
- اختيار المجلس الأعلى للطرق الصوفية وفداً صوفياً من ١٥ شيخاً من الطرق الصوفية للمشاركة في مؤتمر "رجل السلام العالمي" بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو مؤتمر يعقد بهدف توضيح الصورة السمحة للإسلام[٣].
- قيام ١٦ شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية، على رأسهم الشيخ علاء أبو العزايم (شيخ الطريقة العزمية)؛ بعقد اجتماع مع سكرتير السفارة الأمريكية ممثلاً للإدارة الأمريكية في مقر الطريقة العزمية بمنطقة "السيدة زينب"، بحضور ممثل لجهاز مباحث أمن الدولة[٤].. وخلص اللقاء إلى أن تستضيف الإدارة الأمريكية مشايخ الصوفية على نفقتها الخاصة لتنظيم عديد من الفعاليات والأنشطة، والقيام بزيارات إلى الولايات المتحدة لنشر الصوفية بين المسلمين الأمريكيين.

(١) انظر: مجلة التصوف الإسلامي، العدد ٣٢٣، ذو القعدة ١٤٢٦.
(٢) انظر: صحيفة اللواء الأردنية – نوفمبر عام ٢٠٠٧.
(٣) المصدر: صحيفة «الدستور» بتاريخ ٣ أغسطس ٢٠١٠.
(٤) المصدر:
(http://asha3ira.blogspot.com/p/blog-page_3764.html).

ومن جهة ربط التصوف المصري بالتصوف العالمي، تمَّ تأسيس فرع للمجلس الصوفي العالمي المسجل في بريطانيا، ليكون أول منظمة مصرية عالمية (تحت اسم "المجلس الصوفي العالمي") لنشر الفكر الصوفي، وهو برئاسة شيخ الطريقة الشهاوية البرهامية (محمد الشهاوي)[٥]. وقد أنشئ هذا المجلس الصوفي بدعم من الحكومة البريطانية وحزب العمال في مواجهة المجلس الإسلامي البريطاني[٦].

٢) السفارة الأمريكية في دولة السودان.. والتقارب مع الصوفية:

من خلال القائم بالأعمال الأمريكي في السودان (جوزيف ستافورد)، تنهمك الدبلوماسية الأمريكية في مهمة استقطاب الطرق الصوفية السودانية بمشاربها المختلفة للانخرط في المشروع الأمريكي. وكان من الطبيعي استخدام الدبلوماسية الشعبية والزيارات الودية وتبادل الهدايا ومشاركة الصوفية في حلقات ذكرهم ضمن الوسائل الأساسية في بناء شبكة العلاقات الأمريكية مع صوفية السودان.

وقد اختار القائم بالأعمال الأمريكية – ابتداء – المجموعات الصوفية المنتمية إلى "الطريقة القادرية الجيلانية" (نسبة لمؤسسها الأول عبد القادر الجيلاني)، ذات الانتشار الأوسع في السودان مقارنة بالطرق الصوفية السودانية الأخرى. فقد كان من بين رئاسات الطرق القادرية التي زارها الدبلوماسي الأمريكي ما يلي:

- الطريقة البدرية بمنطقة "أم ضوا بان" (ولاية الخرطوم).
- الطريقة العركية بمنطقة "أبو حراز" (ولاية الجزيرة).
- الطريقة الكباشية بمنطقة الكباشي (ولاية الخرطوم).
- مشيخة الصايم ديمة بمنطقة أم درمان (ولاية الخرطوم).
- مقام/ ضريح حمد النيل، التابع للطريقة العركية بمنطقة أم درمان (ولاية الخرطوم).

ومن قبل كان الدبلوماسي الأمريكي قد زار الطريقة البرهانية بالخرطوم أيضاً.

وفي كل المناطق التي زارها "القطب" الدبلوماسي

(٥) انظر: القبس الكويتية، عدد ٢٧ فبراير ٢٠١٢.
(٦) راجع موسوعة ويكيبيديا:
(http://en.wikipedia.org/wiki/Sufi_Muslim_Council).

الأمريكي بالسودان، كانت البداية مبشِّرة لمشروعه؛ فقد وجد الترحيب الحار من زعماء الطرق الصوفية التي زارها، ونحرت الذباح على شرفه، وأُلبس الحلل الصوفية الخضراء، وزُيّن بالمسبحة الصوفية، ولم ينسَ مضيفه إشراكه في حلقات ذكرهم في بعض المناطق التي زارها.

ويشهد التصوف في السودان حركة بعث وتجديد وعرض في ثوب جديد؛ فقد أنشئ مجلس أعلى للتصوف، وكُوّنت عديد من روابط الطلاب المتصوفة في الجامعات، وأنشئ مجلس أعلى للذكر والذاكرين بقانون صادر من المجلس التشريعي السوداني، وأطلقت قناة تلفزيونية وإذاعة لنشر المنهج الصوفي، وأنشئ تجمع لعلماء التصوف، وانتشرت عدة فرق موسيقية للإنشاد الصوفي تتغنى بأشعار مشايخ الصوفية.

سادساً: تحديات تطبيق المشروع الأمريكي لاستغلال التصوف:

في بحث تحت عنوان: (الصوفية.. بين الهوية والاعتدال والإنسانية)، طرح الباحث الأمريكي "أبو بكر كروليا"[١] سؤالاً منطقياً حول استعداد الصوفية وقابليتها للانخراط في المشروع الأمريكي، عندما تساءل: "هل تقوم المجتمعات الصوفية في الغرب والأماكن الأخرى بإعداد نفسها أيديولوجياً لبناء وجهة نظر عالمية والانخراط بصدق مع الغرب لوضع إطار أخلاقي ومعنوي لإقامة العدل والمساواة..؟".. إلا أن الباحث اكتفى بعرض السؤال وأعرض عن الغوص في أعماق الإجابة، تاركاً ذلك للصوفية أنفسهم؟

وانتقل الباحث إلى القضية الأهم في الجانب الآخر، ليتناول طبيعة الشريك الأمريكي وفرص نجاح مثل هذه الشراكات مع المتصوفة، فيقول مبيّناً عن حكومة الولايات المتحدة: "يجب أن تكون واعية لحقيقة أنها شريك في العالم، وأنه لا يمكن حتى للصوفية التفاوض أو الحوار مع شريك تقتصر مصلحته على "بناء عالم من المصلحة الذاتية" على أساس الهيمنة والسلطة"!

ثم بيَّن الباحث أن الاستراتيجية الأمريكية - الصوفية صائرة إلى فشل حتمي على المدى الطويل بسبب طبيعة الشريك الأمريكي، حيث يقول: "سياسة الحكومة الأمريكية لإدماج "الصوفية المعتدلة" و"المسلمين التقليديين" أو "الحكومات الصديقة"؛ ستحقق بعض النجاح، لكن نهجها الأصيل في سياستها "السياسية" و"الاجتماعية" ليس له استدامة على المدى الطويل لإقناع المسلمين، وذلك بسبب فرط استخدام القوة الأمريكية التي تضر أكثر مما تسعى إلى تحقيقه من أهداف ثقافية متعددة وأهداف تعددية للسلام والعدالة".

إذن؛ فالمصالح الذاتية هي المحرك للمشروع الأمريكي طبقاً لما يراه الباحث، وليس الحرص على إشاعة العدل والسلام كما هو الادِّعاء؟.. فما سيحدّد فرص نجاح "المشروع الأمريكي - الصوفي" هو مدى استعداد الشريك الأمريكي للتنازل عن مبدأ استغلال الآخر وترك الهيمنة والتسلط في مقابل التعامل مع شريكه بمبدأ الندية وعدم الازدواجية والالتفاف.

وانطلاقاً من ذات السياق، تبرز جملة من التحديات لسياسة تمكين الصوفية من قيادة العالم الإسلامي، يتلخص أبرزها في التالي:

التحدي الأول: يتمثل في التشكيك بإمكانية نجاح عملية بناء الشبكات (الصوفية - الليبرالية) بالطريقة التي ترغب فيها الولايات المتحدة، وبالأهداف المرجوة من صياغة شعوب مسلمة لا تبالي بدينها، وتترك الساحة لأعدائها، وتقصر تديّنها على الروحانيات والتبرك بالمقامات وتركن إلى العقائد والأذكار الباطلة.

التحدي الثاني: وينطوي على التشكيك بامتلاك الصوفية مقومات قيادة الشعوب المسلمة، أو امتلاك القدرات الخارقة لمغالبة القيادة الإسلامية الحالية التي تقود صحوة دينية قوامها التأصيل الشرعي وتظهر مجهوداتها الفذة في طرح الإسلام كمنهج حياة، ولا تكلّ عن العمل على إعادة تجميع الأمة تحت الكتاب والسنة المطهرة في حدود الممكن.

ويأتي في صلب هذا التحدي التساؤل عن مدى إمكانية دمج جميع الطرق الصوفية في المشروع الأمريكي - تحديداً الطرق الموجودة في البلدان العربية، خاصة في ظل التقاطعات والعلاقات التي تحكم وجود الصوفية في بلدانها.

التحدي الثالث: وينطوي على التشكيك بمدى مصداقية الولايات المتحدة في اتخاذ الصوفية كشريك إسلامي استراتيجي لتمثيل الأمة الإسلامية، وبمدى صبرها على السير في طريق طويل (يستهدف إعادة صياغة كامل الأمة

---

(١) انظر أبو بكر كروليا
"Sufism – Between Hegemony, Moderation and Humanness":
(http://www.academia.edu/1354990/_Sufism_-_Between_Hegemony_Moderation_and_Humanness)



الإســـلامية على الطريقة الأمريكية) في مقابل تحقيق نجاح مشكوك فيه أصلاً.

يضـــاف إلى ذلك التشـــكيك في مدى تحمّـــل الميزانية الأمريكيـــة "المرهقة" عمليات الصـــرف إلى ما لا نهاية على استراتيجية يرتهن تطبيقها "بالوكالة" على أطراف لم تخبرها الإدارة الأمريكيـــة جيداً – ســـوى التعويـــل عليها من خلال فرضيات وتوقعات المراكز البحثية الأمريكية.

الدور المنتظر من الجماعات السلفية:

لقد انتهت مرحلة رسم الاستراتيجيات من قِبل الأمريكان والغرب عموماً، وانطلق العمل في بناء شـــبكة علاقات عمل ومصالـــح متبادلـــة بين الطـــرف الأمريكي وبعـــض الطرق والكيانات الصوفية داخل حدود كل بلد، وشـــبكات شـــبهية عابرة للحـــدود، وأخرى على مســـتوى العالم، (مثل المجلس الصوفـــي العالمي ببريطانيا تحت زعامة الطريقة الشـــهاوية البرهامية، والمجلس الإسلامي الأعلى في أمريكا تحت زعامة الطريقة النقشبندية).

وإزاء ذلك، هناك دور متعاظم ينتظر "السلفيين"، ويتمثل في كشف استراتيجيات وخطط خصومهم من جانب، والعمل على تضافر الجهود والإمكانات لمواجهة الخطط والسياسات العمليـــة التي أفرزتها هذه الاســـتراتيجيات من جانب آخر. وهـــذا الدور له صلة وثيقة بتفعيل الحـــوار والتواصل داخل البيت السلفي – ما بين العلماء، والخبراء، والقادة، والدعاة، والباحثين، وأصحاب الثروة، والهيئات الرسمية والمدنية، وكلّ قادر على العطاء من أهل الإسلام.

وإذا لم يتيسَّر للسلفيين إطلاق برامج التبصير والمواجهة من خلال الأوعية الرســـمية، فيتعيَّن على مؤسسات المجتمع المدني الإســـلامية أن تقوم بالمهمة. ويمكن التوجيه في هذا الخصوص بالتدابير الابتدائية التالية:

• بناء شـــبكة ســـلفية دولية لمواجهة هذه الاستراتيجية تعمل على الاتصال والحوار مع الأطراف التي تسعى أمريكا لاستخدامها في إنزال الخطط الاستراتيجية، وذلك من أجل تحييدها وتبصيرها بســـوء العاقبة مـــن الانخراط في ذلك العمل المعادي للإسلام والمسلمين.

• عقد منتديات عالمية (ورش دولية) يحضرها السلفيون الذين تســـتهدفهم الاســـتراتيجية الأمريكية؛ لمناقشـــة آخر التطورات على المستوى التطبيقي للاستراتيجية في المنطقة الإسلامية، وتقديم أوراق علمية تعالج قضية إفشال المشروع الأمريكـــي. ولا غنى عن تكليف مجموعة مختارة عبر المؤتمر بمهمة قيادة هذا العمل المشترك وتطوير آليات عمل مناسبة لذلـــك؛ (جمع قاعدة معلومات واســـعة من خـــلال البحث والاستقصاء والرصد والمتابعة والتحليل).

ولعـــل أكبر تحديات الاســـتراتيجية المضادة للمشـــروع الأمريكي، يكمن في مدى نجاح المجموعات الســـلفية بإبعاد الصوفية وتحييدها عن المشاركة في الاستراتيجية الأمريكية، وذلـــك من خلال التواصل واللقاءات والحوار بين الســـلفيين والصوفية.

وهنا لا بد من التأكيد على أن الصوفية ككيان إســـلامي معنيّون – قبل غيرهم – بمواجهة هذا المشرع الأمريكي الذي يســـعى لاختراقهم والعمل من خلال مؤسساتهم على ضرب الإســـلام من الداخل، وأخذهم فـــي مجاهيل صراعات مع السلفيين "مجهولة الهوية" و"غير محسوبة" النتائج.

وقبل كل شـــيء لا بد من التوكل والاســـتعانة بالله تعالى كما هو شـــأن المســـلم دوماً، فالله تعالى يعلم بخطط القوم واســـتراتيجياتهم، وقد فضح أعمالهم في كتابه العزيز؛ قال تعالـــى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُـــونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَـــبِيلِ اللَّهِ فَسَـــيُنفِقُونَهَا ثُـــمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُـــونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْـــشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٦ – ٣٧].



مقامات في المقامات



قراءة توصيفية حُكْمِيَّة في المقامات القرآنية

■ عبد اللطيف بن عبد الله التويجري
A44t@Hotmail.com
@abuomar_twijri

ظهر في الآونة الأخيرة في الواقع العربي ما يُسمى «المقامات القرآنية»، وقد تنافست بعض القنوات الفضائية والمعاهد والدور في سبل نشرها وتعليمها وإيجاد المسابقات والجوائز عليها، وأصبح بعض القُرَّاء يتفرغ لتعلّمها أو تعليمها، ويتفنّن في تطبيقها ونشر ثقافتها. وفي هذا المقال قراءة مختصرة لهذه المقامات وحكمها؛ في محاولة لإثراء الدراسات المعرفية التي كتبت حولها وتكلّمت عنها.

ويحسن في مقدم هذا المقال توصيف هذه المقامات والتعرّف على ماهيتها؛ حيث إنها في أصلها أنواع من الألحان التي يغني بها أهل الغناء والموسيقى، وقد تطورت شيئاً فشيئاً حتى اعتني بها ورُتِّبت وحُصرت بأوزان معينة سميت فيما بعد «مقامات»، وقد بلغت عند أهل هذا الفن ستة مقامات رئيسة[1]، لكل واحد منها اسم ومعنى للقراءة فيه، وبيانها عندهم كالتالي:

(١) ينظر كتاب: مقامات الموسيقى العربية، صالح المهدي، وكتاب: البيان لحكم قراءة القرآن بالألحان، جمع أيمن رشدي سويد: ص (٩).



١ **مقام البيات:** ويعنون به اللحن الذي يمتاز بالخشوع والرهبانية التي تجلب القلب وتجعله يتفكر في آيات الله ومعانيها.

٢ **مقام الرست:** و«الرست» كلمة فارسية تعني الاستقامة، ويفضّل أهل المقامات هذا المقام عند تلاوة الآيات ذات الطابع القصصي أو التشريعي.

٣ **مقام النهاوند:** ويمتاز عندهم بالعاطفة والحنان والرقة التي تبعث على الخشوع والتفكر، و«نهاوند» مدينة إيرانية نسب إليها هذا المقام.

٤ **مقام السيكا:** اسم فارسي (سه كاه) بمعنى ثلاث مراحل، وهو من أقدم المقامات، وقد وسموه للذي يقرأ بالبطء والترسل.

٥ **مقام الصبا:** الصبا كلمة فارسية واسم ريح لين وملائم.. وقد تكون الكلمة المرادفة للصبا في العربية (النسيم)، وهو مقام جعلوه يمتاز بالروحانية الجياشة والعاطفة.

٦ **مقام الحجاز:** وهو مقام من أصل عربي نُسب إلى بلاد الحجاز العربية، وعندهم أنه أكثر المقامات روحانية وخشوعاً في القرآن.

وبعضهم يضيف مقاماً سابعاً وهو مقام العجم، وهو يؤدي عندهم إلى إيجاد الاشتياق ورفع الشأن والنشاط عند المستمع، ويُستخدم في آيات تدل على عظمة الله وصفاته وأسمائه الحسنى والجنة، ومعجزات الأنبياء، والأدعية والحركة والجهاد. وبعض أهل المقامات لا يعترف بهذا المقام كمقام مستقل، ويدمجه في أحد المقامات الستة السابقة. وقد اشتهرت أنظمة ومقامات أخرى موسيقية غير هذه درج بعضهم على تعلّمها والقراءة بها، وفي الوقت الحاضر انتشرت وتوسعت حتى أصبحت تُدرس وتُدَرّس في معاهد موسيقية متخصصة، وتعطى عليها الشهادات والدورات[1].

هذه إشارة مدخلية حول هذا الفن بكلام أهل الفن أنفسهم، وحين نتأمل ماهية ما جاء فيه تتجلى لنا الحقائق التالية:

- الملاحظ أن أصل هذه المقامات ونشأتها واردٌ من أهل الغناء والفن؛ لأنه عندهم أداء يُضبط بطابع موسيقي يمتاز به صوت معين مرتبطاً بآلات اللهو والطرب؛ فهو إذن خارج من رحم الغناء وأهل الغناء ولا علاقة له أصلاً بالقرآن وأهل القرآن.
- أنه فن نشأ متأخراً، ويقال: إن القراءة بالألحان حدثت وانتشرت في أواخر العصر الأموي، حيث دخل الغناء الفارسي وتشايع بألحانه عند بعض المسلمين، ثم تسامى بألحانه إلى القرآن الكريم، فكان ذلك أول ظهوره[2]، قال الطرطوشي: (فأما أصحاب الألحان فإنما حدثوا في القرن الرابع منهم محمد بن سعيد صاحب الألحان)[3].
- أن هذا الفن في أصله قراءة بالألحان، والألحان مفردها (لحْن)، يقال: لحَّن في قراءته: إذا طرَّب بها وغرَّد[4]، جاء في لسان العرب: (اللَّحن: التطريب وترجيع الصوت، وتحسين القراءة والشعر والغناء)[5].
- أن هذه المقامات في أصلها دخيلة على العرب وعلى اللغة العربية؛ فالملاحظ عليها أنها مقامات أعجمية إلا الأخير منها الذي هو المقام «الحجازي».
- أن هذه المقامات هي جمعٌ لألحان الناس في غنائهم، فهي علم لاحق بعد القرآن والقراءة به. ويمكن للقراء أن يقرؤوا بأحد المقامات وهم لم يعرفوا عنها شيئاً. كما يمكن

---

(١) المعاهد والمراكز المتخصصة كثيرة، منها: المركز الوطني العالي للموسيقى في لبنان، والمعهد الرشيدي للموسيقى في تونس، والمعهد الوطني للموسيقى في عَمّان، والمعهد الوطني للموسيقى في نابلس.. وغيرها الكثير.

(٢) ينظر: المعجزة الكبرى القرآن، نزوله، كتابته، جمعه، إعجازه، وصوله، علومه، تفسيره، حكم الغناء به، لمحمد أبو زهرة، (٤٤١-٤٤٢)، ط: دار الفكر العربي، ١٤١٨هـ.

(٣) الحوادث والبدع: ص (٨٥).

(٤) ينظر: لسان العرب: (١٣/ ٣٨٢)، ومختار الصحاح: (١/ ٢٤٨).

(٥) لسان العرب: (١٣/١٨٣).

أن ينــوِّع القارئ بين عدة مقامات بحســب الآيات ومعانيها وهو لم يعرف عن المقامات شيئاً!

إذا تبـيَّن كـون هـذه المقامـات فـي أصلهـا قـراءة بالألحـان اخترعها أهل الغناء والموسيقى والفن، وأنها في الأصل دخيلة على اللغة العربية فهي فارسية المصدر، وأن القراءة بها للقرآن نشـأت متأخـراً فلـم تكـن معروفـة عنـد الصحابة رضـوان الله عليهم؛ فعلى هذا التصور يأتي الحكم الشرعي في الإقراء بها وتعليمها من خلال الأدلة التالية:

أولاً: أن الشــريعة جاءت بتحريم القراءة بالألحان كما فــي حديث حذيفة بن اليمان رضــي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وسيجيء من بعدي قوم يرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانيــة والنَّــوح لا يجاوز حناجرهــم، مفتونة قلوبهم، وقلوب من يعجبهم شــأنهم»[١]، وذكــر ابن كثير أن في هذا الحديث الزجر عن هذه الألحان[٢].

وفــي حديث آخر أن الرســول ﷺ تخــوّف على أمته خصالاً، وذكر منها: (نشء يتخذون القرآن مزامير يقدمونه يغنيهم وإن كان أقلَّ منهم فقهاً)[٣].

وقد سئل الإمام أحمد - رحمه الله - عن الألحان فقال: (كل شــيء محدث فإنه لا يعجبني إلا أن يكون صوت الرجل لا يتكلفه)[٤]. وسئل أيضاً عن القرآن بالألحان فقال: (بدعة لا تُسمع)[٥].

وقد نصَّ على ذلك غيره من الأئمة، كمالك والشــافعي، فذكــرا أن قراءة القرآن بقصد التلحين الذي يشــبه تلحين الغناء مكروهة مبتدعة لا تجوز[٦].

وقــال ابن رجــب في قــراءة القــرآن بالألحان، بأصوات الغناء وأوزانه وإيقاعاته، على طريقة أصحاب الموســيقى: (أنكر ذلك أكثر العلمــاء، ومنهم من حكاه إجماعاً ولم يثبت فيه نزاعاً، منهم أبو عبيد وغيره من الأئمة)[٧].

وقــال ابن الجــوزي: (وأما ما أحــدث بعدهم - يعني الســلف - من تكلف القراءة على ألحان الغناء، فهذا يُنهى عنه عند جمهور العلماء؛ لأنه بدعة)[٨].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والسلف كانوا يحسنون القرآن بأصواتهم من غير أن يتكلّفوا أوزان الغناء مثل ما كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يفعل)[٩].

ثانياً: أن القراءة بهذه المقامات نشأت متأخراً ولم يعرفها ســلفنا الصالح الذين هم أهل القرآن والإقراء والذين نزل عليهم القرآن، وهي قراءة متواترة عن كافة المشــايخ جيلاً فجيلاً إلى رسول الله ﷺ وليس فيها تلحين ولا تطريب[١٠]، ولو كانت خيراً لســبقونا إليها، فأين هم مع عنايتهم بكتاب الله من هذا التلحين المقتن إن كان مشروعاً؟!

ثالثـاً: أن كلام اللــه ينزَّه عن هــذه الأوزان المخترعة والألحان الموزونة والمســتمدة من علم الموسيقى؛ لما لكلمات الله مــن الجلالة والعظمة، والتقديــس والتعظيم، فتصان وجوبــاً من أن تكــون محلاً للتمرُّس على هــذه الإيقاعات ومحلاً لتطبيق أوزان الموسيقى بتكرار الآيات مراتٍ ومراتٍ حتــى تضبط على وزن أحد المقامات ثم يطبِّق عليها المتعلِّم أو التالي المقام الآخر.. وهكذا[١١].

رابعـاً: أن تتبُّــع هذه المقامات وتعلّمها والانشــغال بها صــارف موغل من صــوارف التدبر الذي هــو ثمرة إنزال القرآن، قال شــيخ الإســلام ابن تيميــة: (ولأن ذلك فيه تشــبيه القرآن بالغناء، ولأن ذلك يورث أن يبقى قلب القارئ مصروفــاً إلى وزن اللفظ بميزان الغناء لا يتدبره ولا يعقله، وأن يبقى المســتمعون يصغون إليه لأجل الصوت الملحَّن كما يصغى إلى الغناء لا لأجل اســتماع القــرآن وفهمه وتدبره والانتفــاع به)[١٢]. وقــال ابن رجب: (وفــي الحقيقة هذه الألحــان المبتدعة المطربة تُهيِّج الطبــاع وتلهي عن تدبر ما يحصل له الاســتماع حتــى يصير الالتذاذ بمجرد ســماع

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: (٧٢٢٣).
(٢) ينظر: فضائل القرآن، ص (١٩٥-١٩٦).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم: (١٥٤٦٢)، قال الشيخ حمود التويجري: (وقد وقع مصداق هذه الأحاديث) كما في كتابه إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، (٢/١٢١).
(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٢/ ٤٢٧).
(٥) طبقات الحنابلة: (١/٥٧).
(٦) جامع المسائل: (٤/٣٥٥).
(٧) نزهة الأسماع في مسألة السماع: ص (٥٨).
(٨) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: (٣/٣٠٤-٣٠٥).
(٩) جامع المسائل: (٣/ ٣٠٤).
(١٠) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (٧/٥٤) .
(١١) العجب ممن اشتهر في العالم الإسلامي بحسن قراءته أن يكون طريقه في التعلم وإتقان القراءة: الأغاني الماجنة! وقد اعترف بعضهم أنه كان يستمع للأغنية ذات المعازف حتى يتعلم طريقة القراءة! وقد انتشرت صورة لبعض كبار القراء وهو بجانب آلة الموسيقى المشهورة عندهم «البيانو»! بل وتشترط إذاعة عربية على كل مقرئ فيها أن يحمل شهادة من معهد موسيقي! وإلا حُرِم القراءة فيها!
(١٢) جامع المسائل: (٣/ ٣٠٥).

النغمات الموزونة والأصوات المطربة، وذلك يمنع المقصود من تدبّر معاني القرآن)[1]. وقال الطرطوشي: (وهذا يمنع أن يُقرأ بالألحان المطربة والمشبهة للأغاني؛ لأن ذلك يُثمر ضدَّ الخشوع ونقيض الخوف والوجل)[2].

خامساً: أن الواقع دلَّ على أن التأثير يقع ممن لا علم له بهذه الألحان، فكم من قارئ يتأثر ويؤثر في الناس وهو لا يعلم شيئاً من مقامات الألحان - كما أن التأثير لا يجوز إلا بسبب شرعي، واتخاذ أسباب محدثة لقصد التأثير هو من الممنوع في الشرع -. وقد وفَّق الله تعالى كثيراً من القراء في العالم الإسلامي، وأبكوا الناس بقراءاتهم ولم يتعلموا مقاماً ولم يسمعوا أغنية، وبعض الذين فُتنوا بهذه المقامات يسمع القارئ المتقن ذا الصوت الشجي، والترتيل الجميل؛ فينسب قراءته لأحد المقامات ويوهم نفسه وغيره أن هذا القارئ ممّن يمشي على طريقته بالقراءة على حسب أغنية أو لحن معيَّن، وليس الأمر كذلك[3].

وعليه؛ يتبيَّن أن تعلّم المقامات وتعليمها والتكلّف في مراعاة أوزانها؛ أمر يخالف ما جاء به الشرع من تحريم القراءة بالألحان، خاصة لحون أهل الفسق والغناء، ومن أمره بقراءة القرآن من غير تكلف قراءة هيّنة لينة غير متكلّفة، ومن أمره بالأخذ عن الصحابة الذين لم يعرفوا هذه المقامات وتلاميذهم الذين أقرؤا الناس وعلّموهم أزمنة عديدة قبل انتشار هذه المقامات ومعرفتها، ومن تحذيره لترك التدبر والانشغال عنه بأمور أخرى كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]؛ كل هذه الأمور وغيرها مما سبق ذكره تؤيّد ترك ذلك وعدم الانشغال به.

لكن هناك مسألة مهمة هنا وقد نبَّه إليها الإمام ابن القيم[4]، وبها تجتمع المسألة ويتحقق القول، وهي: أن التلحين والتغني على قسمين:

الأول: التلحين الفطري الطبيعي الذي اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلّف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خُلّي وطبعه، واسترسلت طبيعته، جاءت بذلك التطريب والتلحين؛ فذلك جائز، وإن أعان طبيعتَه بفضلِ تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: (لَو علمتُ أنّكَ تَسمَع لَحَبَّرْتُه لَكَ تحبيراً)[5]. والحزين ومَن هاجه الطرب والحبُ والشوق لا يملك من نفسه دفعَ التحزين والتطريب في القراءة، لكن النفوسَ تقبلُه وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلف والتصنع فيه، فهو مطبوع لا متطبَّع، وكَلَفٌ لا متكلَّف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامعُ، وهو المراد بقولهم اقرؤا القرآن بلحون العرب[6].

الآخر: التلحين المتكلَّف الذي ليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصُل إلا بتكلُّف وتصنُّع وتمرُّن، كما يتعلم أصوات الغِناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة على إيقاعات مخصوصة وأوزانٍ مخترعة لا تحصل إلا بالتعلّم والتكلّف، فهذه هي التي كرهها السلفُ، وعابوها، وذمّوها، ومنعوا القراءةَ بها، وأنكروا على من قرأ بها.

وبهذا التفصيل - بإذن الله - يزول الاشتباهُ، ويتبيّن الصوابُ من غيره، وكلُّ من له علم بأحوال السلف يعلم قطعاً أنهم بُرآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلّفة، والتي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها، ويُسوّغوها، ويعلم أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسِّنون أصواتَهم بالقرآن، ويقرؤونه بِشجىً تارة، وبِطَرب تارة، وبِشوّق تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد وندب إليه، وأخبر عن استماع اللّه لمن قرأ به، فقال: «ليس مِنَّا مَن لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقرآنِ»[7]، وفيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار بالواقع الذي كلُّنا نفعله، والثاني: أنه نفي لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته ﷺ[8]. والله أعلم.

---

(١) نزهة الأسماع في مسألة السماع: ص (٨٥).
(٢) الحوادث والبدع: ص (٨٧).
(٣) ينظر فتوى رقم: (١٦٩٧٩٩) في موقع الإسلام سؤال وجواب، ورسالة البدع العملية المتعلقة بالقرآن الكريم جمعاً ودراسة للعبد الكريم، ص (٣٤٦).
(٤) في زاد المعاد: (١/٤٨٢-٤٩٣).
(٥) أخرجه ابن حبان، كتاب إخباره عن مناقب الصحابة، حديث رقم: (٧١٩٧)، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار: (٣/٢١٢).
(٦) قال زكريا الأنصاري في الدقائق المحكمة شرح المقدمة الجزرية، ص (٣٦): (والمراد بلحون العرب: القراءة بالطبع والسليقة كما جبلوا عليه من غير زيادة ولا نقص).
وقال ملّا علي قارئ في المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية، ص (٩٩): (والمراد بألحان العرب: القراءة بالطبائع والأصوات السليقية).
(٧) أخرجه البخاري برقم (٧٥٢٧).
(٨) زاد المعاد: (١/٤٩٣).



«والكَلِمةُ صارَ جَسَداً»(*)

قراءة في مذهب الجذبيَّة

■ فيصل بن علي الكاملي(**)

popedia@windowslive.com

إن الناظر بعين البصيرة في دعوى النصارى في المسيح عليه السلام أنه «الكلمةُ» الأزلية التي صارت جسداً، وبين دعوى «الجذبيين»[١] أنّ «الفكرة» تصير واقعاً؛ يدرك أن بينهما نَسَباً، وهو نسب يلتقي عند أسلافهم من فلاسفة اليونان من أمثال أنَكْساغورَس Anaxagoras وأفلاطون وغيرهما[٢] ممن زعموا أن العقل - الذي أسموه صانعاً (demiourgos) - هو الخالقُ لِعالم الحِس أو العالم المادي، وأنه هو الذي نَقَله من حالة (الهَيُولي) أو المادة الخام إلى حالة (الصورة) أو التشكُّل، أو من الفوضى إلى النظام.

يقول الفيلسوف المؤرخ «فريدريك كوبلستن» في كتابه الشهير «تاريخ الفلسفة» حاكياً مذهب أفلاطون: «... يمكننا أن نتحدث عن العقل الإلهي Divine Reason [في فلسفة أفلاطون] باعتباره «ذهن الإله» "Mind of God" (إذا ما ساوينا الإله بالواحد)، وعن المُثُل Forms باعتبارها أفكاراً للإله Ideas of God»[٣].

معنى ذلك أن الله - تبارك وتعالى عن كفرهم - لم يخلق الخلق بأمره، وإنما أفاض عقلُه (أو ذهنُه) على العالم المادي أنماطاً يَتصوَّر العالم تبعاً لها؛ وهذه الأنماط هي ما يُعرف عند أفلاطون بالمُثُل أو الصُّور أو الأفكار. وتخبُّط أفلاطون في هذه المسألة معلوم، بل جُلُّ كلامه في «الإلهيات» عديم المنفعة؛ وإنما أوردت مذهبه هذا لأنه من أقدم القائلين بأن العالم إنما خُلق بواسطة العقل، وليُعلَم أن بين قديم الكفر وحديثه نسباً.

لكن ما علاقة هذا المذهب الفلسفي العتيق بدعاوى النصارى وأهل الجذب؟

أما علاقة هذا المذهب بدعوى النصارى فبيِّنة لمن تأمل كلام يوحنا في أول إنجيله واصفاً المسيح عليه السلام: «في البدءِ كان الكلمة، والكلمةُ كان عند الله، وكان الكلمةُ الله» [يوحنا ١: ١].

فإن المرادف لـ «الكلمة» في النص اليوناني لهذه الفقرة هو «لوجوس» (logos)؛ وهو مصطلح مُترَعٌ بالمعاني الفلسفية؛ فهو مشتق من الفعل (lego) الذي يحمل معنى «النطق» أو «الكلام» ومنه جاءت الكلمة الإنجليزية (lexicon) بمعنى «معجم» أو «قاموس»؛ كما يحمل معنى «العقل» و«الإدراك» ومنه الكلمة الإنجليزية (logic) أي «المنطق». وقد أثّر هذا

(*) سفر يوحنا ١: ١٤. هنا وفي مواضع أخرى من سفر يوحنا تُعامل «الكلمة» معاملة المذكَّر.

(**) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان - يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(١) أعني بالجذبيين أنصار قانون الجذب.

(2) Plato. The Timaeus of Plato, R. D. Archerhind, ed. (London: McMillan and Co., 1888), pp. 1040-.

(3) Frederick Copleston. A History of Philosophy (Image Books, 1993), vol. I, p. 193.

المعنى فيمن نقلوا الفلسفة اليونانية إلى العربية، إذ عبَّروا عن العاقل بـ «الناطق»، ومرَدُّ ذلك إلى أن الكلمة اليونانية «لوجوس» (logos) تحمل معنى «الكلام» كما تحمل معنى «العقل» في آنٍ معاً.

ولا يعنينا هنا إن كان نص يوحنا قد كُتب في أصله باليونانية أو أنه نُقل عن السُّريانية؛ فإننا إن رجعنا إلى معاجم السريانية المعتبرة سنجد أن الكلمة «ملْثا» المستعملة في النص السرياني للتعبير عن «الكلمة» تعني كذلك «العقل» و«الإدراك»[(١)]، ولعل ذلك من تأثير الفلسفة اليونانية على السُّريان.

لقد عُرف القديس يوحنا كاتبُ السفر الذي يحمل اسمه، بتأثره بالفكر الغنوصي الباطني الذي كان رائجاً في زمنه، وهو مذهب ثنوي منحدر من الفلسفة اليونانية؛ ولذا فإن فهم كلام يوحنا لا يَحصُل إلا بفهم الخلفية الفلسفية لكلمة «لوجوس». وبالرجوع إلى كتابات فلاسفة اليونان نجد أن الكلمة «لوجوس» جاءت في كتابات أرسطو بمعنى «الكلام» و«البيان» ونحوهما، بينما استُعملت في كتابات هرَقليطُس Heraclitus لمعانٍ يمكن وصفها بالفلسفية، لكنها لم تأخذ صورتها التي أثَّرت بها على مفهوم «الكلمة» عند النصارى إلا بظهور الفلاسفة الرواقيين Stoics أو «أصحاب المَظالّ»، أتباع «زينون الكِتّيومي» Zeno of Citium، وكان ظهورهم في القرن الثالث قبل الميلاد.

لقد جعل الرواقيون العالم - كما حكى مذهبهم «ديوجينيس» - قائماً على مبدأين اثنين:

١ أحدهما سالب: وهو **الهيولى أو المادة** الخاملة القابلة للانفعال والتأثر.

٢ والآخر موجب: وهو **اللوجوس أو العقل الفعال** المؤثر في تلك المادة فيَهَبُها (الصورة)[(٢)].

أو بعبارة أيسر، العالم مادةٌ خامٌ يُشكِّلها الـ «لوجوس» أو العقل فيجعل منها ما نراه مما هو كائن. ولذا وُصف الـ «لوجوس» عند هؤلاء الرواقيين بأنه «الإله الأزلي، صانع كل متعدِّدٍ في المادة»[(٣)].

فجعلوا بذلك للكون خالقَين، أحدهما: (العلة الأولى) التي يعبّرون بها عن الإله الواحد الذي فاض عنه العقل. والآخر: هو هذا (العقل) أو الـ (لوجوس) الذي فاضَ فأبدع الكون ووهَبَه صورته، فأخذ كلُّ عاقلٍ منه بنصيب. ولذا قد يعبّر عن هذا العقل بـ «العقل الكلي»؛ لأنه بزعمهم ينساب في الكون كله؛ وهذا أصل القول بأن الكون عبارة عن ذرات واعية أو عاقلة كما سيأتي. ومذهب الرواقيين كما ترى صورةٌ مهذبة للفلسفة الأفلاطونية.

ولعلي أضرب لهذا المذهب مَثَلاً أُقرِّب به صورته: هل سبق أن أمعنت النظر يوماً في شاشة تلفازك؟ إنك ستكتشف أن كل ما تراه على سطحها من صوَر هو مجرد نقاط صغيرة جداً تُعرف بالعُنصُورات أو الـ «بكسل» pixels، فإذا ما وجَّهتَ جهاز التحكم عن بُعد (الريموت) إلى الشاشة وقلَّبت القنوات، تغيَّر نشاطُ تلك النقاط مستجيباً، فأبصرتَ زيداً وعَمراً، وشجرة ونهراً، وسماء وأرضاً.

وهكذا هو العالم عند الفلاسفة، فهو أشبه ما يكون بشاشة عظيمة ثلاثية الأبعاد، مؤلفة من عدد هائل من العنصورات (pixels) التي تمثلها هنا ذرات الكون. أما العقل الفعال فهو بمثابة (جهاز التحكم) أو (الريموت) الذي يمنح الشاشة صوَرها، إذ يؤلف بين «عنصوراتها» (ذرات الكون)، لكنه لا يوجدها من العدم؛ فهي أزلية بزعمهم. وكما أن عنصورات الشاشة تستجيب لأماني جهاز التحكم لما بينهما من اشتراك في التركيب، فكذلك تستجيب ذرات الكون للعقل الفعال بسبب ما فاض عليها منه، فأصبح الكُل عاقلاً واعياً بما استفاد من العقل الفعال الذي هو المنتهى في الإدراك والتفكير والعقلانية.

تأثر بهذا الفكرِ الرِّواقيِّ الفيلسوفُ اليهودي فيلون الإسكندري Philo، فجعل الـ «لوجوس» صانعاً (demiourgos) أو خالقاً وسيطاً بين الإله الواحد - الذي يسمونه «العلة الأولى» - وبين العالم المادي، تماماً كما صنع أسلافه من الفلاسفة[(٤)]. وأصل زندقة هؤلاء ومن سار في ركابهم من المتفلسفة الباطنية، كابن سينا وإخوان الصفا، أنهم قالوا بأن الله واحدٌ مُطلق لا يتكثَّر، فلا يستقيم أن يخلق خلقاً متعدداً متكثراً دون وسيط؛ لأنه يتأثر بخلقه المتكثر المتعدد، وهذا خلاف التوحيد عندهم.. لذا استدعى الأمر وجود وسيط هو «العقل» الصانع الذي فاض عن العلة الأولى فأبدع الخلق مع بقاء العلة الأولى منزهة عن التكثُّر كما يزعمون.

(١) انظر على سبيل المثال: معجم لويس كوستاز، ص ١٣٨؛ وقاموس - Compendous Syriac Dictionary ص ٢٧٥.

(2) Diogenes Laertius, VII, 134 (pp. 238239-).

(3) Diogenes Laertius, VII, 134 (pp. 238239-).

(4) William Reese. Dictionary of philosophy and Religion (New Jersey: Humanities Press, 1996), p. 571.

ولسـنا في معرض بيان فسـاد هذا القول، فقد بيَّن بطلانه شـيخ الإسـلام ابن تيمية في مواطن كثيرة من كتبه، وإنما القصد تَصوُّر مقالتهم.

تسـلّل فكرُ فيلون الإسـكندري والمدرسـةِ الرواقية إلى يوحنا الإنجيلي الذي جعل وصف المسيح عليه السلام بالكلمة مطابقاً لما زعمه الفلاسـفة في عقـل الفعال، وفي ظل هذا التأثر نسـتطيع أن نفهم قول يوحنا: «فـي البدء كان الكلمةُ [«لوجـوس» في اليونانية]، والكلمةُ كان عند الله، وكان الكلمةُ الله». فالله – بزعمهم – أوجد «عقلاً» (لوجوس)؛ وهذا العقل أزلي لأنه فاض عن أزلي؛ وهو المراد بقول يوحنا «في البدء... كان عند الله»، أي منذ الأزل. ففي البدء فاض هذا العقل عن الله، فكان إلهاً. وهذا عين ما قال الرواقيون كما سبق بيانه.

وإذا كان المسـيح عليه السلام باعتباره الـ (لوجوس) عند النصـارى يقابل (العقل الفعال) عند الدهريين، فيلزم منه أن يكون المسيح عند النصارى هو الصانع الوسيط الذي خُلق به كلُّ شـيء. وهذا ما عبَّر عنه يوحنا (١: ٣) حقيقةً بقوله: «كلُّ شـيء **به** كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان»، وقوله (١: ١٠) «وكُـوِّن العالمُ **به**»، والمراد «بواسـطته» في الموضعين كما هو مصرح به في «الأصل» اليوناني هكذا (di' autou).

بقي مما يعنينا مـن كلام يوحنا قوله (١: ١٤): «والكلمةُ صارَ جسداً وحَلَّ بيننا»؛ إذ به تكتمل الصورة. فالـ (لوجوس) عبارة عن «فكرة» أو «كلام نفسـي»[١] فاض عن الله – تعالى عما يقولون – ثم تحول في هذا العالم المادي إلى جسـد أو حقيقة ملموسة أو واقع مشـاهد. وبما أن الله أزلي فكذلك الفكرة التي فاضت عنه. وهذه الفكرة الأزلية هي المثال الأعلى لكل فكرة، بل هي (العقل الكلي) Universal Logos الذي يستمد منه جميع الخلائق عقولهم وأفكارهم. فتأمل التطابق بـين عقيدة الدهريـة في العقل الفعـال (demiourgos) وعقيدة النصارى في الكلمة (logos).

هذا التواطؤ بين المعتقَدَيـن الدهري والنصراني يدعونا إلى الحديث عن عقيدة باطنية قديمة حديثة يدعونها «قانون الجـذب» Law of Attraction. وهـذه العقيـدة قائمة على تصوّر الدهرية لفكـرة الـ (لوجوس) أو (العقل الفعال)؛ فالإنسـان كائنٌ عاقلٌ مفكرٌ وواعٍ، يستطيع أن يُحدث تغييراً في أجزاء من العالم المادي من حوله عن طريق عقله وتفكيره،

فهو إذن صورة مصغَّرة للإله الواحد الذي أحدث صورة العالم المادي عن طريق العقل الفعال؛ فالإنسـان يتأمل، فينقدح في ذهنـه «كلام عقلي» أو «فكرة»، فترتبط عـن طريق ذبذباتٍ بالعقـل الكلي (أو الـ «لوجوس») المنسـاب في ذرات الكون، فتتشـكل الذرات تبعاً لذلك، فتصير الفكرة جسداً أو حقيقة مشاهدة.

ومـن أنكر أن يكون مقصود قانـون الجذب على نحو ما ذكرنا من مضاهـاة خلق الله وادّعاء أننـا مخلوقون بالعقل خالقون به؛ فليقرأ كلام الكاتبة الباطنية «آليس بيلي» Alice Bailey الذي صرحت به عام ١٩٢٢م في كتابها «وعيُ الذَرَّة» إذ قالت:

«إن الإنسان يُظهر نشاطاً عاقلاً، فهو قادر على العاطفة والحـب، كما يضيف إلى ذلك عاملاً آخر هو الإرادة العاقلة. **إنـه إلـهُ نظامـه الصغير**؛ فهو ليس واعياً فحسـب، بل واعٍ بنفسـه. **إنـه يبني جسـد التجلي الخـاص به، تمامـاً كما يصنـع اللوجـوس، ولكن على نطاق أصغـر**؛ إنه يتحكم في نظامه الصغير **عن طريق القانـون العظيم، قانون الجذب والطرد** law of attraction and repulsion، كما يصنع اللوجوس...»[٢].

وإذا كان الإنسـان إلهاً لكونه الصغير، واعياً بنفسـه، ذا إرادة؛ فهـو قادر على أن «يبني جسـد التجلي»، أي أن يُوجِد «فكـرة» تَخلق واقعاً، كما أن الله – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – أوجد في ذاتـه بطَريق الفيض «عقلاً» أو «فكرة» (لوجوس) خَلق بها العالم المادي.

وهذا ما عبَّـرت عنه «روندا بيرن» – حقيقةً لا مجازاً – في كتابها «السـر» بقولها: «إن السر [أي قانون الجذب] يعني أننا الخالقـون لكوننا، وأن كل أمنية نبتغي خلقها سـتتجلى فـي حياتنا»[٣]. فنحن – عياذاً بالله – آلهة صغرى تشـارك الخالقَ خلقَه. فكلُّ عاقلٍ قد استفاد عقلَه من (العقل الفعال)، وبالقدْر الذي فاض عليه من العقل الفعال يسـتطيع أن يخلق كونَه الصغير الذي هو جـزء من الكون الأكبر. بمعنى أن كل إنسـان يمتلك جهاز تحكم (ريموت) هو (العقل) يستطيع به أن يغيِّر جزءاً من الشاشة الكبرى التي هي الكون! وهؤلاء قد يعبِّرون عن فيض العقل بـ «النية» تارة وبـ «الوعي» تارة أخرى؛

(١) قول الأشاعرة في كلام الله عز وجل بأنه معنى واحد قائم بذاته لا يتجزأ، ووصفهم له بـ «الكلام النفسي»، مُستمد من تصوُّر الفلاسفة للوجوس أو العقل الفعال.

(2) Alice Bailey. The Consciousness of the Atom (Lucis Trust, 1989), p. 69.

(٣) روندا بيرن، كتاب السر، ص ٢٧–٢٨.

فإذا أرادوا أن يُضفوا على هذا المعبود شيئاً من العقلانية أو «الأكاديمية» أسموه «طاقة»، لكن الحقيقة أن هذه الأسماء تُعبّر عندهم عن المسمى نفسه.

هذه العقيدة الوثنية قادت جُلَّ هؤلاء القوم إلى القول بوحدة الوجود وأنه لا فارق بين المخلوق والخالق، فالكل واحد، لكنهم يخفون عقيدتهم هذه خلف مصطلحات ظاهرها العلمية كـ«التكاثف الكَمِّي» و«سُحُب الاحتمالات» وغيرهما، يُلبّسون بها على غير المختص.. لكن إيمانهم بوحدة الوجود ليس بمستغرب، فأسلافهم آمنوا بأن (العقل الفعال) الذي خلق الكون قد انساب في ذراته فصيَّره عاقلاً؛ فمن الطبيعي على مذهبهم ألا يكون ثمة فرق بين العاقل والمعقول، فكلاهما عقل. وهذا يفسر لنا ما تقصده الباطنية «آليس بيلي» من عنوان كتابها سالف الذكر «وعي الذرة»؛ فكلُّ ذرةٍ في الوجود عاقلةٌ أو واعيةٌ، ويمكن التحكم بها عن طريق جهاز التحكم عن بُعد (العقل) لما بينهما من اشتراك في الجوهر.

يقول أحد أئمة الجذبيّة المعاصرين «ديباك شوبرا» Deepak Chopra[(١)]:

«إننا من خلال الوعي نُظهر الكون كله. حالتنا الأصلية أو الأساسية هي أننا وعي صِرْف.. أنت تَنظُر إلى مدينة نيويورك خلفي، لكن مدينة نيويورك ليست خلفي، إنها في وعيك.. ليس ثمة شيء خارج الوعي».

ثم يُضفي على هذا الوعي (أو العقل) صفات الألوهية فيقول: «وهذا الوعي خارجُ المكانِ والزمان، إنه فوق الزمان والمكان، إنه مُتعالٍ؛ إنه ليس محدوداً».

أي أننا والكون مجرد (وعي)، نحن الكون والكون نحن. وهو يستشهد لوحدة الوجود هذه بقول جلال الدين الرومي: «أنتَ لست قطرة في المحيط، بل أنت المحيطُ بأكمله في قطرة».

ثم يحدثنا «شوبرا» عن ذرات الكون «الواعية» التي شبَّهتُها أعلاه بالعنصورات أو «البكسل» على شاشة التلفاز، فيقول: «لكنه [أي الوعي] يحوي **سُحُباً من الاحتمالات هي قالبٌ من الصور الفكرية ذات القدرة الكامنة** التي تقع في وعيك الخاص...»، وبواسطة «النية» التي هي بمنزلة توجيه (الريموت) إلى الشاشة «تبدأ أنت بإظهار الأشياء؛ لن تُظهِرها بمفردك، بل **في عملية خلق مشتركة مع اللُّغز الذي نسميه «الله»** (in co-creation with the mystery that we call "God")».

ثم يفسِّر هذا الشِّرك الصُّراح بقوله: «عندما **تكثِّفُ أنت سحابة احتمال** [أي تجمع ذرات الكون العاقلة] **من خلال النية**... هذا ما يحدث: تحصل لديك أولاً تجربة داخلية في ذهنك، كما تحصل لديك أيضاً تجربة خارجية هي العالم، لكن في الحقيقة كلتاهما تحدثان داخلك... العالم الخارجي هو صورة رمزية للمُثُل الذهنية التي تنتج عن التكاثف الكمي في حقل مُتعالٍ» – أي تنتج عن تجاذب الذرات الذي يخرج لنا صورةً أو مخلوقاً ما.

وبعد أن يعبِّر «شوبرا» عن الشرك القديم بأسلوبه «الأكاديمي العلمي الحديث»، يضيف قائلاً: «قد يكون هذا الكلام ثقيلاً بعض الشيء، لكنَّ العلم يتجه هذه الوجهة. بدونكَ لن يكون ثمة كون، أو بدون كائن واعٍ لن يكون ثمة كون... **أنت جزء من حقل أكبر من الوعي، إنه لغزٌ نسميه (الله)**».

فـ(الله) و(الوعي) – أو العقل – عند هؤلاء، اسمان لنفس المسمى، وبما أن الإنسان جزءٌ من هذا الوعي، فهو أيضاً «خالقٌ» – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا ما نصَّت عليه الصحفية الأمريكية الشهيرة «لين مَكتاجَرت» Lynne McTaggart في كتابها «الحقل: البحث عن قوة الكون الخفية»، إذ قالت: «إن البشر وكل الكائنات الحية مركبٌ من الطاقة، في حقل من الطاقة، مرتبطون بكل شيء في العالم... ليس في أبداننا ثنائيةُ «أنا» و«غيري» بالنسبة للكون، إنما هو حقل طاقة أساسي واحد»[(٢)].

كما صرحت في حوار أجراه معها «آلان ستاينفلد»، بأن الوعي هو الخالق. بل نقلت عن بعض من أسمتهم «علماء» قولهم إنه لو لم ينظر الناس إلى القائد النازي «هتلر» في زمنه لما وُجد! بل إن الكون ربما يختفي أثناء النوم[(٣)]! فملاحظة الإنسان وقصده النظر هو الذي يجمع ذرات الكون لتصوِّر مخلوقاً، فإذا غاب هذا المصوِّر غابت الصورة!

وفي عام ٢٠٠٧ كتبت هذه الوثنية الضالةُ كتاباً أسمته «تجربة النية»، وهي تعني بالنية توجيه العقل لتغيير الكون أو «تكثيفَ سحابة الاحتمال»، كما عبر عن ذلك «شوبرا» في كلامه السابق. ولن أقتبس من متن الكتاب خشية الإطالة، لكن يكفي لمعرفة محتواه تلك الدعاية الجانبية على غلافه:

(١) انظر على يوتيوب: (ديباك شوبرا/ كيف تُظهر الأشياء في حياتك؟)، علماً أن الترجمة المصاحبة غير دقيقة، لذا لم أعتمدها، لكنها كافية لبيان المقصود.

(2) Lynne McTaggart. The Field: the Quest for the Secret Force of the Universe (Harper Collins Publishers, 2001), "prologue".

(٣) انظر على يوتيوب: – Lynne McTaggart interviewed by Alan Steinfeld /New Realities

«احتل مكانَك ضمن أكبر تجربة تبحث في تحكم الذهن (mind) في المادة (matter)». فحقيقة الكتاب أنه إحياء لثنوية «العقل» و«المادة» عند الرواقيين، وأن الأول هو الخالق للآخر على نحو ما سبق بيانه.

لكن الأغرب من هذا كله أن نُقل الكتاب إلى العربية بإشراف الدكتور صلاح الراشد الذي امتدحه قائلاً: «لم أفهم النية عملياً إلا عندما قرأت لها. هذا الكتابُ نقلةٌ حقيقية لمعنى أن الحياة نية وتركيز نية. إذا أردت أن تفهم كيف تحقق ما تريد من الحياة عن طريق النية فهذا الكتاب هو مدخلك لذلك»(1).

ولمَّا سئل الدكتور صلاح الراشد في أحد البرامج الحوارية: «هل النية أقوى من الدعاء في جذب ما تريد؟»، أجاب: «أكيد! النية هي الأصل، هي أصل كل شيء بما فيها الدعاء والأعمال»(2)، بل ذهب أبعد من ذلك فطفق يروج لدراسة غربية وصفها بالـ«محيرة»، مفادها أن الدعاء قد يحدث أثراً سلبياً؛ وكأنه لم يقرأ قول الله جل شأنه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، بل فسر حديث النبي ﷺ (إنما الأعمال بالنيات) بقوله: «لهذا الحديث تفسيرات كثيرة، واحد مما أراه في عمق الحديث هو: أن الأحداث (الأعمال) تتحقق بالنيات!»(3)، وهو بهذا يبرر لـ«شوبرا» و«مكتاجرت» - التي وصفَتْه بـ«ديباك شوبرا» الشرق الأوسط»(4) - ضلالهم في زعمهم أن فيض العقل أو الوعي أو النية هي التي توجِد الخلق وما يعملون.

ومثل هذه المحاولات لأسلمة الوثنية الغربية باسم التنوير والعقلانية، تنُمُّ عن عقدةِ نقصٍ متأزِّمة وتبعية عمياء، وقد سبق إلى مثلها أناسٌ من المتفلسفة الباطنية استدلوا لضلال الفلاسفة الدهرية بحديثٍ موضوعٍ مكذوبٍ على رسول الله ﷺ لينصروا به (العقل) كما ينصره هؤلاء، فزعم أولئك أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّـهُ الْعَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ! فَأَقْبَلَ، فَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ! فَأَدْبَرَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْك، فَبِك آخذُ وَبِك أُعْطِي وَلَك الثَّوَابُ وَعَلَيْك الْعِقَابُ)(5)، وها هو التاريخ يعيد نفسه.

(1) http://www.alrashed.net/products/PublicationDetails61.htm.

(٢) انظر على يوتيوب: (قناة الرسالة الفضائية - لقاء الجمعة - د. صلاح الراشد)، الدقيقة: ٣٣:٥٤:٠.

(٣) راجع كلامه بتمامه على الرابط التالي تحت عنوان «جلسات إرسال النية» لتدرك خطورة ما نتحدث عنه:
https://www.facebook.com/ssalrashed/posts/1440861056481967comment_id=1229639&offset=0&total_comments=26.

(٤) انظر على يوتيوب: (لين ماكتاجريت/ تتحدث عن تجربة إرسال النية يوم ١١ سبتمبر)، الدقيقة: ١٥:٠.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١١: ٢٣٠.

وهؤلاء المفتونون - رغم تهافتهم - يرمون خصومهم بالجهل بمرادهم، فهُم الخواصُّ الذين أدركوا لُباب العلم وباطنه بينما تركوا لنا الظاهر والقشور. وحجتهم في ذلك أنَّا لا نواكب الجديد من علوم الغرب، بل نقف حيث انتهى سلَفُنا. وهذا من التلبيس على العامة، فإن ما يزعمون أنه من جديد العلم إنما هو في الحقيقة من قديم الشرك كما بيّنَّا. بل جُلّ ما يزعمون أنه من العلم هو لحمُ جملٍ غثٍّ، على رأس جبلٍ وعْر، لا سهلٌ فيُرتقى ولا سمينٌ فيُنتقل. وإني أتحدى هؤلاء «الجذَبة» أن يثبتوا لنا بالدليل أن ما يروجون له من قانون الجذب مغاير لشِرك الفلاسفة الدهريين والنصارى وزعمهم أن العقل هو الذي صنع العالم - ودونَ ذلك خرطُ القَتاد.

فقانون الجذب تحدث عنه باطنيو الحركة الثيوصوفية منذ مائة عام كما فصلته في مقالة أخرى(6). واعتقاد تسخير القدَر عن طريق هذا القانون، وأنك إن فكرت فيما تشتهي أتاك راغماً؛ ليس علماً ولا هو بالحديث، فإننا إن عدنا إلى عقيدة الرواقيين وجدناهم يُسمُّون الـ (لوجوس) «قدراً»؛ وذلك لارتباط فيض العقل عندهم بحصول الأمر. يقول «ديوجينيس» حاكياً مذهبهم: «يُعرَّف (القَدَر) بأنه سلسلة لا متناهية من العلل بها تحصل الأشياء، أو أنه الـ (لوجوس) أو الصيغة التي يسير بها العالم»(7).

فتأمّل كيف جلب هؤلاء على أمة الإسلام بجهالتهم شركاً أعظم من شرك النصارى؛ فإن النصارى جعلوا المسيح عليه السلام شريكاً لله في إيجاد خلقه، بينما جعل هؤلاء «الجذَبة» كل إنسان، نبياً كان أو غير نبي، شريكاً لله في خلقه، قادراً على التصرف في أقداره.

فتنبَّه يا من خُدع بشعارات زائفة، ووعود كاذبة، فإنك لن تُحصِّل من دنياك إلا ما قدَّره الله لك، وإن قضيت عمرك محتبياً تتأمل.

لو أن في صخرةٍ صمَّاً مُلملَمة
في البحرِ راسيةٍ مُلسٌ نواحيها
رزقاً لعبدٍ براه الله لانفلقت
حتى تؤدي إليه كل ما فيها

وإن من الغبن أن تدفع لـ«عَليم الدين» حُرَّ مالِك، بينما لا «تجذب» من دنياك إلا خسران آخرتك.

(٦) في مقالٍ بعنوان «قانون الجذب، من السر إلى السحر».

(7) Diogenes Laertius, VII, 149 (pp. 252253-).

البحث في قضايا الهوية والقيم



أحمـــــــــد فــهــمــي
afahmee@hotmail.com
@ahmdfahmee

كما يوحي عنوان المقالة، فإن الحديث ينقسم إلى قسمين:

- الأول يتناول أبرز الإشكالات البحثية في قضايا الهوية والقيم.
- والثاني عن المناهج والمجالات البحثية في تلك القضايا.

الإشكالات البحثية:

في عصر العولمة فإنه لا يسمح لأمة أن تتميز بدينها وهويتها وقيمها تميّزاً يتعارض مع متطلبات العولمة، فضلاً عن معارضتها ومقاومتها؛ فالفكرة الأساسية للعولمة هي البحث عن القدر المشترك بين الشعوب والحضارات وإعادة صياغته بصورة تتواءم مع نتاج الحضارة الغربية.

تسعى العولمة إلى حرث النتوءات وإلغاء التمايزات، ليس وصولاً إلى قدر متوافق عليه بين الجميع، بل وصولاً إلى أقرب نقطة من الحضارة الغربية كمصدر جديد - ودائم - للقيم، وأساس لتعريف الهوية.

من هنا، يكتسب البحث في قضايا الهوية والقيم أهمية مضاعفة، فهو ليس مجرد تثبيت أو ترسيخ لمبادئ دينية، بل هو عملية مقاومة أصيلة ولازمة لأكبر عملية تجريف حضاري يتعرض لها العالم الإسلامي كله في الوقت نفسه؛ هي مقاومة لو تراجعت أو هُزمت، فإن ذلك سيعني أن تفقد الأمة هويتها وتتبدل قيمها.

والمراجعة المتأنية للنتاج البحثي في هذا المجال تكشف لنا الفجوة الهائلة بين الواقع والمطلوب، وفي هذه المقالة نعرض لأهم الإشكالات وجوانب القصور في هذا المجال:

١ ما يبعث على الاهتمام بالبُعد المنهجي عند التناول البحثي لقضية الهوية والقيم، أمران:

الأول: القصور في المنهجيات المطروحة حالياً لتناول تلك القضايا، كونها تعتمد على الحدس ومخاطبة المؤيدين، وتفتقر إلى القدرة التحليلية المنضبطة والتعمق المنشئ للتصور.

الثاني: عجز المنهجيات المعرفية الغربية عن مواكبة التصور الإسلامي والتماهي مع ثوابته، وينبع هذا القصور أساساً من النزعة الوضعية للفكر الغربي، فهو فكر يعرض تماماً عن الجانب الإلهي للمعرفة.

أحد الإشكالات المنهجية الكبرى في هذا المجال أن المجتمع في الحضارة الغربية منتج للقيم ومستخدم لها في الوقت نفسه، بينما في الحضارة الإسلامية فإن المجتمع يطبّق القيم أكثر مما ينتجها، إذ يستمدها أساساً من مرجعيته الإسلامية المتمثلة في الكتاب والسنة، لذا تبدو الهوة كبيرة جداً عندما نستخدم مناهج غربية لدراسة القيم مع هذا الفارق الأساس بين الحضارتين.

أيضاً من الأمثلة على سلبيات المناهج الغربية أن منتجات الحداثة تتسم بالتشرذم العلمي والمعرفي، فالحضارة الحداثية قسمت الحياة الإنسانية إلى دوائر تخصصية، مثل: الاقتصاد، والسياسة، وعلم النفس والاجتماع، لكنها حررت هذه الدوائر من النتاج التركيبي الذي يجمع بين العلوم.

مثال آخر: من تطبيقات البنيوية أن خبرات الحاضر تؤثر في الطريقة التي نفهم بها الماضي، فكلما تطورت خبرات وتجارب الحياة في مختلف المجالات، فإن تفسير التاريخ يتغير تبعاً لذلك، ولأن الماضي - الذي يتغير فهمه بحسب البنيوية - يستوعب قدراً كبيراً من ثوابت المجتمع ومبادئه، فإن الثوابت الدائمة تتقلص بصورة مستمرة.. وهذه من الأفكار التي تبنّاها سيغموند فرويد.

٢ من الإشكالات الأساسية أيضاً: صعوبة قراءة المجتمع، فنحن أمام ثلاثة أنواع من القراءات يمكن تداولها فيما يتعلق بدراسات الهوية والقيم: (قراءة تاريخية تأصيلية، قراءة التحولات، قراءة المستقبل واتجاهات التغير).

أغلب المتصدّين في الجانب الإسلامي لقضايا القيم والهوية يركزون على القراءة التاريخية التأصيلية، وأقل منهم من يهتم بقراءة التحولات قراءة علمية منهجية، والأقل هم الذي يعتنون بقراءة اتجاهات المستقبل.

٣ يمكن التعرف على ملامح للأزمة من خلال الاقتراب من واقع دول الثورات العربية، إذ تثور محاولات وتظهر مبادرات كثيرة لإعادة تعريف الهوية، وإعادة تسمية القيم الثابتة للمجتمع.. هناك صراع حقيقي يدور الآن حول تلك القضية، ومن خلال تحليل الواقع في هذه الدول يمكن أن نلاحظ عدداً من المشكلات المنهجية:

١. هناك اضطراب اصطلاحي مفاهيمي يبرز بقوة عند التصدي لمصطلحات مثل: الديمقراطية، والدولة المدنية، والدولة الدينية.
٢. توجد مشكلة حقيقية في فرض الإسلام كمصدر وحيد للقيم داخل المجتمع المسلم؛ بسبب اضطراب العقل الجمعي في بلورة موقفه النهائي من وحدانية الإسلام كمصدر للقيم وكأساس لتعريف الهوية، ومع الأسف فإن الجهود التي يقدمها المثقفون الإسلاميون لا ترقى لمستوى الصراع الدائر ولا تحدث تأثيرات إيجابية حقيقية في هذا الصدد، وفي بعض الأحيان تقدم أطروحات عكسية تهمش دور الإسلام في إعادة تعريف الهوية وتحديد قيم المجتمع.

٤ أغلب الدراسات التي تتناول قضية الهوية تفتقر إلى الواقعية وتغرق في التنظير وتستغرق في النقد، في حين أن التناول الواقعي يقربنا أكثر من لب الموضوع وحقيقة الأزمة، لنجد أنفسنا أمام ثلاث ظواهر تتعلق بالهوية: (نسيان الهوية، تشوش الهوية، فقدان الهوية).. وما بين الحالات الثلاث فروقات واضحة يجب أن تنعكس على منهجية التناول البحثي لقضية الهوية.

فالنسيان يحتاج إلى إعادة تذكير، والتشوش يحتاج إلى إعادة تعريف، والفقدان يحتاج إلى إعادة تأسيس.. بذلك نحن أمام «ثلاثة عوارض» تتطلب «ثلاث مهام» بحثية مختلفة متعلقة بالهوية، وهي: التذكير، التعريف، والتأسيس.. وغالباً ما يضم المجتمع فئات متباينة في قناعاتها الثقافية والعقدية، بحيث نحتاج إلى القيام بالمهام الثلاث في الوقت نفسه.

ويظهر الخلل المنهجي في التناول هنا في أمثلة كثيرة، من أبرزها: أن نخاطب إحدى الفئات المجتمعية بالمهمة التي لا تتناسب معها، كأن تكون مثلاً فئة فقدت هويتها بينما نصرّ نحن على التعامل معها بآلية تذكير، فلا تحدث استجابة بالطبع.

باختصار: نحن قد نحتاج في أحيان كثيرة إلى استخدام مناهج عرض الإسلام على غير المسلمين كي نقنع المسلمين عن طريقها بالعودة إلى هويتهم، والرجوع إلى قيم دينهم.

مناهج ومجالات البحث:

بصفة عامــة، فإن الحلقات المترابطــة بين النظام المعرفي ومناهج التعامل مع مصادر التأسيس والمرجعية (القرآن والســنة)، ومناهج التعامل مــع النتاج الفكري (الإســلامي والغربي)، فضلاً عن مناهــج التعامل مع الواقع؛ هي من أهم الأمــور التي تجعل النظام المعرفي أكثر فاعلية وقدرة على توليــد رؤى وتصورات منهجية على شــاكلته. ومن المهم أن نشير إلى أن النظام المعرفي واحدة من حلقــات موصولة بين النظام القيمي والنظام العقدي.

من هنا، فــإن المنهاجية المعرفية التــي تفتقر إليها دراســات الهوية والقيم، هي مجموعــة المبادئ المعرفية والإجرائية المعتمدة لتوليد مفاهيــم وأحكام تصورية.. والمبــادئ المعرفية هي مبادئ تقــع ضمن إطار الثوابت، أما المبــادئ الإجرائية فتأخذ طبيعــة وضعية متغيرة. إذن، المنهاجية المعرفية الإســلامية في بعض تعريفاتها هي صياغة العلاقة بين الثابت والمتغير.



نحتــاج إلى أربعــة أنــواع من الدراســات لسـد الخلل المعرفي في قضيـة الهويـة والقيم:

١ دراسات فكرية تنطلق من منهجية إسلامية تعمل في اتجاهين: النقد والبنــاء.. فهي ترصد دعاوى تحريف الهوية واســتبدال القيم، فتكشفها وتسقطها وتحدد آليات المواجهة، كمــا تعمل على اتباع منهج علمي في عملية البناء المفاهيمي، فتتناول القيم وفق آلية منضبطة متعمقة تتجاوز الاســتغراق في الحديث عن الفضل والأهمية، إلى ممارسة عملية تفكيك للمفهوم وإعادة بنائه من جديد وفق خطوات محددة تشــمل: تحديــد معنى المفهوم، تحديد خصائصه، تحديد العلاقة بين المفهوم وبعض المفاهيم المشــابهة أو المقاربة، تحديد شروط المفهوم، تحديد مراحل ومستويات المفهوم، وتوظيف المفهوم.

٢ دراســات اجتماعية تتناول الواقع القيمي في المجتمع الإســلامي، وترصد التغيرات والتحــولات، وتقرأ التعريفات التــي يقدمها المجتمع لنفســه وما يطــرأ عليها من تبدلات، وتربط ما بين البُعد التاريخي التأصيلي والواقع؛ ليستكشــف المجتمع موقعه من ثقافته وتراثه الحضاري.

وهنا أتقدم باقتراح للباحثين المتخصصين في هذا المجال، وهو أن يتم تصميــم مقياس للقيم داخل المجتمع يكون هدفه قياس بُعد المجتمع أو قربه من هويته، ويقيس أيضاً مســتوى التمسك بالقيم، وهذا يتطلب أمرين:

الأول: إعادة توصيف الهوية بحسب المؤشرات الاجتماعية الدالة عليها.

والثانــي: إعداد قائمة بالقيم التي تمثل الإســلام داخل المجتمع، مع تحديد المؤشرات الدالة على قوتها أو ضعفها.

٣ دراســات سياســية تُعنى ببلورة الدور الذي يمكن أن تلعبه القوى السياســية الإســلامية في الحفاظ على الهوية، وتثبيــت القيم داخل المجتمع، من خلال الأدوات السياســية المتاحة.

٤ دراســات دعوية تهدف إلى وضع خطط عملية لنشر القيم الإســلامية وترسيخها وحمايتها، كما تهدف إلى تذكير المجتمع بهويته بصورة دائمة.

إذن نحن أمام مشــروع بحثي ضخم يتطلب توافر أربعة تخصصات: الدعاة، المفكرون، علماء الاجتماع، والسياسيون.. فمن يتصدَّى لهذه المسؤولية الكبرى؟

واجبنا نحو القرآن الكريم



■ هشام عقدة

وصف الله جل وعلا في كتابه العزيز شهر رمضان بأمرين عظيمين، فقال جل من قائل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فنزول القرآن أمر عظيم جداً وحدث خطير يغيّر وجه الأرض كما يغيّر نفوس البشر وحياتهم، وكونه هدى للناس أمر غاية في الإنعام والامتنان ويريح الناس من الحيرة والتخبط في هذه الحياة التي يحيونها على البسيطة، ولهذا قال تعالى مستنكراً سفه السفهاء ومتعجباً من فساد عقولهم ونفوسهم ومن عماهم عن أكبر نعمة أنعم عليهم بها: «أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم»؟!

وإذن فحين نذكر شهر رمضان فإن ذلك لا ينفك أبداً عن ذكر القرآن وواجبنا نحوه، ويتلخص ذلك في خمسة أمور:

أولاً: الإيمان به على مقتضى مذهب أهل السنة والجماعة.

ثانياً: تلاوته وتدبّره.

ثالثاً: تعلمه وتعليمه.

رابعاً: العمل به والدعوة إليه.

خامساً: توقيره وتعظيمه وصيانته عن الامتهان أو أي صورة تشعر بامتهانه.

فأما عن الإيمان به على مقتضى مذهب أهل السنة والجماعة، فنعني بذلك الإيمان بأنه كلام الله المنزل، تكلم الله به وسُمع منه حقيقة بألفاظه تلك، والإيمان بأنه ناسخ لما قبله من الكتب والشرائع، وأن منه الناسخ والمنسوخ، وأنه لا يصيبه التحريف ولا التبديل، وأنه منه بدأ عز وجل وإليه يعود في نهاية الزمان حين يذهب من الصدور والمصاحف، والإيمان بما فيه من الأخبار والشرائع والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه والتسليم له.

٢ – وأما عن تلاوته وتدبّره فقد أمرنا الله في غير آية بتلاوته في الصلاة وفي غير الصلاة ومدح التالين له والتالين من الأمم الأخرى لآيات ربهم في زمانهم، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]، وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ – ١١٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وصح فيما أخرجه الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف».

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترُجَّة: ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة: لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحان: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: ليس لها ريح وطعمها مر». فليحاسب كل منا نفسه ليعرف من أي الأصناف هو.

والقرآن بعضه أفضل من بعض، وثواب قراءة بعض آياته أكثر من ثواب البعض الآخر من ناحية الكم، فالحسنات منها حسنة كبيرة ومنها حسنة صغيرة. أما من ناحية النوع فلا يحصل مختلف أنواع الثواب والنعيم الأخروي لمرتل القرآن إلا من يتلو جميع آياته.. فنعيم الجنة أنواع كثيرة وليس نوعاً واحداً، وتلك التلاوة ينبغي أن يصحبها التدبر وحضور القلب، وإلا ضاع تأثيرها وقلَّ نفعها، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وأما من لا يتدبرون القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

٣ – أما عن تعلمه وتعليمه: ففي ذلك حديث البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه إذ يقول: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

ويدخل في ذلك أمور كثيرة، منها:

أ – تعلّم التلاوة الصحيحة وتعليمها وما يلزم لذلك من معرفة التجويد والضبط بالشكل الصحيح، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به – أي مجيد لفظه على ما ينبغي بحيث لا يتشابه ولا يقف في قراءته – مع السفرة الكرام البررة»، أي في منازلهم في الآخرة، وهم رسل الملائكة، فهم أفضل الملائكة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

ب – ويدخل في تعلمه وتعليمه حفظه وتحفيظه.. ففي سنن الترمذي وأبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق – أي في درج الجنة – بقدر ما حفظته من القرآن. اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها». ويلحق بذلك ضرورة تعاهد ما يحفظ منه لما في الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها».

ج – ويدخل في تعلمه وتعليمه مدارسته ومعرفة معانيه وتعليم الناس ذلك. أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»، وكان هذا شأن قراء القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ؛ يتعلمون القراءة ويحفظون ويعلمون تأويل ما حفظوا، لذلك كان القراء هم العلماء، ولم يحدث ذلك الانفصال الذي انتشر اليوم حيث نجد كثيرين قراء

وحفظة لكنهم لم يتدارسوا القرآن ولم يفقهوه، ومن تأمل في حال قراء الصحابة وجدهم هم علماء وأئمة الفتوى أمثـال ابن عباس ومعاذ بن جبل وابن مسـعود وأبي بن كعب وعلي بن أبي طالـب... وغيرهم، فهم قراء علماء عاملون؛ ولذلك رفع الله شـأنهم كما قال ﷺ: «إن الله يرفـع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»، وبهذا كانوا أهل الله... كما قال ﷺ: «أهل القرآن هم أهل الله».

د - وممـا يدخل في تعلم القرآن وتعليمه تعلم آداب التـلاوة، ولا بد من الرجوع في هـذا الباب للتبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي رحمه الله.

٤ - أمـا عن العمل به والدعـوة إليه، فهذا صلب الأمر، ولا منزلة لقارئ لا يعمل بما يقرأ، بل يخالفه، بل كل ما ورد من فضل لقراء القرآن وتوقير لهم إنما قصد به قرّاؤه العاملون به، ففي صحيح مسـلم عن النواس بن سـمعان رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سـورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»، وليحذر من يلعن نفسه بقراءة القـرآن كمن يتلو ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وهـو يظلم، (ألا لعنة الله علـى الكاذبين) وهو يكذب، وليحذر مـن يقرأ القرآن وهو يرائـي فيكون في أول ثلاثة تسـعَّر بهم النار يوم القيامـة، وليحذر من يقرأ القرآن وهو يتأوله على غير معناه ويعمل به على خلاف السـنة.. أخرج مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس إني سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا حياتكم إلى حياتهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهـم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية». وكلما ازداد المرء قراءة وعلماً بالقرآن ازدادت مسؤوليته في العمل به والدعوة إليه، بما فـي ذلك الآداب الخاصة بحملة القرآن. ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقـوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»، والآناء الساعات.

وأخرج البخاري عن سـمرة بن جندب رضي الله عنه أنـه قال: كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «من رأى منكـم الليلة رؤيا؟». فإن رأى أحد قصه، فنقول ما شاء الله، فسألنا يوماً فقال: «هل رأى أحد منكم رؤيـا؟». قلنا: لا. قال: «لكني رأيـت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى الأرض المقدسـة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيـده كلوب من حديد يدخله في شـدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشـدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتـى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ به رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلـق إليه ليأخذه فلا يرجـع إلى هذا حتى يلتئم رأسـه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه، قلت: من هذا؟ قـالا: انطلق. فانطلقنا إلى نقـب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسـع يتوقد تحته نار، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها نسـاء ورجال عراة، فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا علـى نهر من دم فيه رجل قائم على وسـط النهر، ورجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخـرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان فجعـل كلما جاء ليخرج رمي فـي فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلـت: ما هذا؟ قالا: انطلـق. فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شـجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من شجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بي في الشـجرة وأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شـيوخ وشباب ونسـاء وصبيان، قلت: طوفتمـا في الليلة فأخبراني عما رأيـت. قالا: نعم. أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث الكذبة فتحمل عنه حتـى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيـت إلى يوم القيامة. والذي رأيته يشـدخ رأسـه فرجل علمه الله القرآن فنام عنـه بالليل ولم يعمل فيه بالنهـار، يفعل به ذلك إلى يوم القيامة. والـذي رأيته في النقب فهم الزناة. والذي رأيته في النهر آكلو الربا. والشـيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام، والصبيان حوله فأولاد الناس، والذي يوقد النار مالك خازن النار، والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل وهذا ميكائيل.. ارفع رأسـك، فرفعت رأسـي، فإذا فوقي مثل



السـحاب، ذاك منزلك. قلت: دعاني أدخل منزلي، قالوا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله فلو استكملته رأيت منزلك».

فأعظم واجب علينا نحـو القرآن أن نعمل بما فيه، والرسول ﷺ، كما وُصف، كان خُلقه القرآن.

غافلون ومهرجون أولئك الذين يزعمون أنهم يقومون بحق القرآن بمجرد التلاوة والتغني به، أو بتعليقه للبركة، أو التلذذ بسماعه أو قل سماع الأصوات، أو الحديث عنه وعن عظمته، ثم بعد ذلك لا تتوقد أنفسهم هداية وعملاً بهذا القرآن، ولا يظهر لهم سـلوك بمقتضاه ولا إذعان وتسليم لأحكامه، ومع ذلك يتلون الكتاب، أفلا يعقلون.

أيها المسـلمون: أعظم واجب علينا نحو القرآن هو العمـل به، والعمل بالقرآن هو العمل بالإسـلام، كما أن أعظم واجب علينا نحو رسـول اللـه ﷺ اتّباعه والعمل بسـنته. نعم، هـذه القضايا التي تطمـس وتعكس في عصور التمييـع فتبقى مظاهر جوفاء مـع ترك العمل والاتباع حتى صار القرآن حجة على المسـلمين لا حجة لهم، وحتى صار الرسـول ﷺ شاهداً على مدعي محبته لا شـاهداً لهم.. ويا ويح كل صاحب زعم باطل وصاحب كل دعوى باطلة إذا ما أبدت الصحف العيوب.

ثـم من واجبنا نحو القرآن الدعوة إليه؛ دعوة الناس إلى اتباعه والتزام حدوده وبذل الجهد والطاقة في ذلك اتباعاً لطريق المصطفى ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ومن ذلك دعوة الناس أفراداً ومجتمعات إلى تحكيم كتاب الله عز وجل وإقراره منهجاً للحياة في هذه الأرض، فهنالـك واجب جماعي علـى كل مجتمع وعلى كل دولة تدّعي الإسلام تجاه هذا الكتاب المبين، ألا وهو تحكيمه واتخاذه شريعة ومنهجاً للحياة، الأمر الذي من أجله أنزل الله كتابه كما سبق أن ذكرنا: ﴿إِنَّا أنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النسـاء: ١٠٥]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَـقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَـاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِـن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعـاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيـهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنـزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَـمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِـمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّـنَ النَّاسِ لَفَاسِـقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ – ٥٠].

وهذا الحكم بكتاب الله لا يصح ولا يقبله الله عز وجل إلا إذا كان كتاب الله هو المرجع والحكم في كل شيء وليس في بعض الأمـور دون بعضها، وإلا فهـو الكفر والخزي في الدنيا والآخرة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَـزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُـمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَـدِّ الْعَذَابِ وَمَـا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُـمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥، ٨٦]. ومن ذا الذي يشـك في كفر من أعرض عـن كتاب الله المحكم وأقبل على مناهج

الشرق والغرب يستمد منها ويطبع حياة الناس ولو في بعض الأمور بطباع أهلها الكفرة الفجرة الذين كرهوا ما أنزل الله، بلى والله إنها الردة السافرة والكفر المبين بإله العالمين ورب الخلق العظيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٥، ٢٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

يصدّون.. ويعرضون.. ويزعمون أنهم يتحرّون الأصوب وأنهم يريدون المصلحة والفلاح لشعوبهم، فبالله عليكم كيف يؤمن بهذا القرآن وبالله قوم يبحثون عن الأصلح في غير قول الله وشرعه وحكمه؟ ألا يصبح هؤلاء بفعلهم ذلك متعالين على الله مستجهلين له - تعالى الله عن إفكهم وما يفترون -. من الذي يعلم الأصلح والأنفع؟ وهل يبقى على دين الله لحظة وهل يستمر في هذه الملة طرفة عين أحد بعد أن يرى أن الأصلح والأنفع ما يدّعيه هو لا ما شرعه الله؟ ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

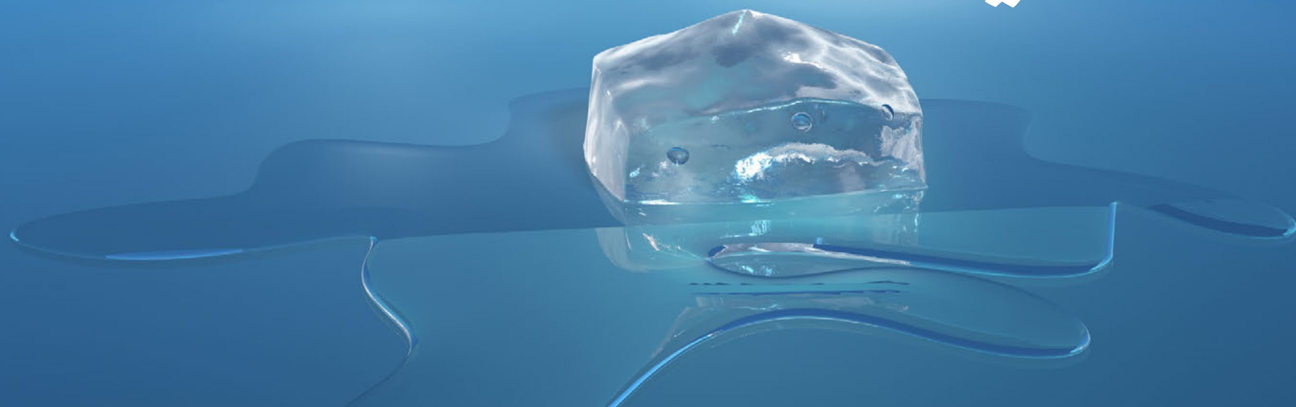
وإن لم تقم للمسلمين دولة تقوم على القرآن شريعة ومنهاجاً، فسيبقى هذا القرآن مهجوراً؛ ولذا فمن حق القرآن الجهاد في سبيله حتى يبلغ الآفاق ويطبّق حكمه في البلدان.. فلا يبقى طاغوت يحول بين الشعوب وأنوار القرآن، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. تلك حقوق القرآن التي قام بها الرسول ﷺ والصحابة الأخيار، ومن تبعهم في السوالف الفواضل من الأعصار، إلى أن خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون: سيغفر لنا، وارتفع صوت النفاق واضطهد صوت الحق والفلاح، لكن لا بد من انبلاج الصبح بعد طول الظلام.. ونحن واثقون بوعد الله ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤، ٥].

ويبقى بعد ذلك واجب آخر نحو هذا القرآن، ألا وهو توقيره وتوقير أهله العاملين به وصيانته عن أي امتهان؛ كاتخاذه للزينة أو اللعب بكتابته كالذين يكتبونه بخط صغير جدّاً في صفحة واحدة، أو اتخاذه للغناء والتجارة، أو كتابته على الميداليات... وغيرها من الأشياء التي يصعب صرفها عن الامتهان والسقوط أو الدخول بها في الخلاء لقضاء الحاجة.. أو الاتكاء عليه أو تركه على الأرض في صورة المهمل، ونحو ذلك مما يشعر بعدم التوقير، أو اتخاذه رمزاً للكوارث والمصائب في المآتم المبتدعة ونحوها، أو خلطه مع الهزل كما يفعلونه في برامج أجهزة الإعلام وافتتاح الحفلات الماجنة أو اتخاذه وسيلة لتملق البشر فيستخدم لمدح الفسقة والطواغيت ويتفنن في ذلك من لا يرجون لله وقاراً ولا يقيمون له وزناً، أو يستخدم لإضحاك الناس ولفت أنظارهم كالذين يدخلونه في النكت أو للدعاية لتجاراتهم وصناعاتهم فيقتبسون منه آيات يضعونها على معان فاسدة غير معانيها التي أنزلت لها، كالساعاتي الذي يعلق عنده قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، والحائك الذي يكتب على بابه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

بل بلغ الأمر أن بعض المجرمين الذين يزينون النساء كتبوا على أبوابهم ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]... وغير ذلك مما يصل إلى حد السخف والهزل بآيات الله، وذلك من الكفر الذي حذر الله منه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.. اللهم اجعلنا ممّن يتلونه حق تلاوته.. اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك.. اللهم اجعله حجة لنا لا حجة علينا، وأعنا على الاجتهاد في تلاوته وتدبّره في هذا الشهر الكريم خاصة وفي جميع شهور السنة عامة، واجعله لنا في الدنيا رفيقاً وفي القبر أنيساً وفي القيامة شفيعاً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

معالم في تربية النفس في ظلال رمضان



عبد العزيز مصطفى الشامي(*)
Omarez1973@hotmail.com

لا شك في أن شهر رمضان معلَم مهم في تربية النفس، ففيه من العبادات والأعمال الصالحة ما يجعل النفوس تنقاد إلى رب العالمين، فتزكو النفوس، وتطهر القلوب، وتعيش الأرواح أجواء إيمانية مفعمة بالبركات والرحمات.. ومما قيل من روائع الكلام عن دور شهر رمضان في تربية النفس، ما كتبه الإمام ابن القيم (رحمه الله)، حيث قال: «لَمّا كَانَ صَلَاحُ الْقَلْبِ وَاسْتِقَامَتُهُ عَلَى طَرِيقِ سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُتَوَقِّفاً عَلَى جَمْعِيَّتِهِ عَلَى اللَّهِ وَلَمِّ شَعَثِهِ بِإِقْبَالِهِ بِالْكُلِّيَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنّ شَعَثَ الْقَلْبِ لَا يَلُمُّهُ إِلّا الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ فُضُولُ الطّعَامِ وَالشّرَابِ وَفُضُولُ مُخَالَطَةِ الْأَنَامِ وَفُضُولُ الْكَلَامِ وَفُضُولُ الْمَنَامِ مِمّا يَزِيدُهُ شَعَثاً، وَيُشَتّتُهُ فِي كُلّ وَادٍ وَيَقْطَعُهُ عَنْ سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يُضْعِفُهُ أَوْ يَعُوقُهُ وَيُوقِفُهُ اقْتَضَتْ رَحْمَةُ الْعَزِيزِ الرّحِيمِ بِعِبَادِهِ أَنْ شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الصّوْمِ مَا يُذْهِبُ فُضُولَ الطّعَامِ وَالشّرَابِ، وَيَسْتَفْرِغُ مِنَ الْقَلْبِ أَخْلَاطَ الشّهَوَاتِ الْمعوقة لَهُ عَنْ سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَشَرْعِهِ بِقَدْرِ الْمَصْلَحَةِ بِحَيْثُ يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَبْدُ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ وَلَا يَضُرّهُ وَلَا يَقْطَعُهُ عَنْ مَصَالِحِهِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَشَرَعَ لَهُمْ الِاعْتِكَافَ الّذِي مَقْصُودُهُ وَرُوحُهُ عُكُوفُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَجَمْعِيّتُهُ عَلَيْهِ وَالْخَلْوَةُ بِهِ وَالِانْقِطَاعُ عَنْ الِاشْتِغَالِ بِالْخَلْقِ وَالِاشْتِغَالُ بِهِ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ؛ بِحَيْثُ يَصِيرُ ذِكْرُهُ وَحُبّهُ وَالْإِقْبَالُ بَدَلَهَا، وَيَصِيرُ الْهَمّ كُلّهُ بِهِ، وَالْخَطَرَاتُ كُلّهَا بِذِكْرِهِ، وَالتّفَكّرِ فِي تَحْصِيلِ مَرَاضِيهِ وَمَا يُقَرّبُ مِنْهُ؛ فَيَصِيرُ أُنْسُهُ بِاللَّهِ بَدَلاً عَنْ أُنْسِهِ بِالْخَلْقِ فَيُعِدّهُ بِذَلِكَ لِأُنْسِهِ بِهِ يَوْمَ الْوَحْشَةِ فِي الْقُبُورِ حِينَ لَا أَنِيسَ لَهُ وَلَا مَا يَفْرَحُ بِهِ سِوَاهُ فَهَذَا مَقْصُودُ الِاعْتِكَافِ الْأَعْظَمِ»(1).

(1) زاد المعاد لابن القيم (٢/ ٨٦- ٨٧).

(*) باحث شرعي ومدقق لغوي.

ورغم الدور التربوي لشهر رمضان، إلا أن هناك ما يُضعف تأثير الصيام والأعمال الطيبة عند كثير من الناس، فلا يستفيدون من رمضان، فيخرجون منه كما دخلوا فيه، وفي أحيان كثيرة تكون المعاصي مؤجّلة فقط لما بعد الشهر، فلم يتركوها ويبغضوها ويتوبوا إلى الله منها، بل هي فقط مؤجّلة لما بعد رمضان، والسبب الرئيس في هذا هو إلف العادة!

إلف العادة من الآفات الخطيرة:

إن من أعظم آفات العبادات: آفة الإلف والعادة، فعندما يعتاد المرء العبادات وتصبح جزءاً من برنامجه اليومي كالصلاة، والأسبوعي كالجمعة، والسنوي كرمضان والحج؛ تتحوّل هذه العبادات إلى مجرد أفعال وأقوال متكررة لا تُضيف جديداً إلى حياة الفرد.

وإن مَن يدقق النظر في ركن الدين الأعظم بعد توحيد الله تعالى، وهو الصلاة، التي وصفها الله سبحانه بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر فقال سبحانه: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ يجد أنها تحوّلت إلى عادة من العادات عند كثير منا، فأصبحت لا تنهى عن الفحشاء ولا المنكر! بل صارت أشبه بجهاز تسجيل، يكبر المسلم ليدخل صلاته، فيكرر لسانه المحفوظات التي اعتادها بلا تفكير منه فيما يقرأ ولا تدبّر لأذكارها، ويخرج منها كما دخل، فلا خشوع ولا خضوع ولا قرب، إلا من رَحِمَ الله تعالى.

وكذا في صيام رمضان، فالملاحظ أننا في كل سنة نستقبل شهر رمضان ثم نودعه، نسمع قبله بقليل عن فضل هذا الشهر وأهميته ومكانته، وما يجب علينا من اغتنامه، حتى حفظ الناس أحاديثه وآياته، فلم يتدبروها ويفكروا فيها، ثم بعد رحيله نسمع كذلك بعض المواعظ في وداعه والحزن على فراقه، حتى أصبح ذلك الأمر عادة تعودناها وقضية ألفناها؛ عبر أحداث رتيبة تتكرر علينا في السنة وفي الشهر وفي الأسبوع وفي اليوم. ولئن كان الاعتياد على كثير من شؤون حياتنا الدنيوية مقبولاً، فإن من غير المقبول أن ينسحب ذلك على عباداتنا التي نتقرب بها إلى الله سبحانه.

لذلك ينبغي لنا أن نتذكر جيداً أن من آفات العبادات الخطيرة العظيمة أن تتحول العبادة إلى عادة، يؤديها الواحد منا دون أن تترك أثراً في نفسه أو سلوكه.



عبرة تربوية في استقبال رمضان:

قبل عام ودّعنا شهر رمضان، ثم ها هو يقبل الآن، وربما لم يشعر كثير منا بقيمة الزمن الذي طُويت فيه الأيام والشهور، وأننا مسافرون إلى الله، ولكل عبد نهاية ولا بد، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]. وقد ذكر ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون الأودي أنه قال: قام فينا معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «يا بني أوْد، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار»[1].

وإن مما يجب على العبد المسلم أن يبحث عن الزاد الذي يقرّبه إلى الله تعالى؛ حيث إن الطريق موحش وطويل، ولا بد فيه من زاد، وقد جعل الله تعالى شهر رمضان لتطهير القلوب من الخطايا والعيوب وغفران الذنوب، فهل استقبلنا رمضان بتوبة تغسل عنا الذنوب؟! ومن ثم يُزال الران من القلوب فنحسن اغتنام أيامه، لنخرج من رمضان بلا ذنوب، وما أدرانا فقد يكون رمضان الأخير في حياتنا.. فاغسل ذنوبك قبل مماتك.

ومع الأسف، فإن من الناس من يستقبل الشهر بعدم اهتمام وعدم اكتراث، كأنه شهر من الشهور، وقد أخطأ من لا يفرق بين رمضان وغير رمضان، وأن يجعل يوم صومه كيوم فطره. وهناك من يعرف للشهر فضله ومكانته، لكنه لا يستقبله بتوبة نصوح، وعزم أكيد على الاستقامة في أيامه ولياليه، بل يستقبله بفتور وعدم جدية وقلة نشاط.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٥).

ومن المعالم التربوية لشهر رمضان ما يلي:

١ تربية النفس على التقوى:

تدريـب النفس على تحقيق التقوى والخوف من الله سـبحانه وتجنب مساخطه والالتزام بطاعته؛ من أسمى أهداف فريضة الصيام، قال تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَـلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُـمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال الإمام الرازي: «بَيَّنَ سُـبْحَانَهُ بِهَـذَا الْكَلَامِ أَنَّ الصَّوْمَ يُورِثُ التَّقْوَى لِمَا فِيهِ مِنَ انْكِسَـارِ الشَّهْوَةِ وَانْقِمَاعِ الْهَوَى؛ فَإِنَّهُ يَرْدَعُ عَنِ الْأَشَـرِ وَالْبَطَرِ وَالْفَوَاحِشِ، ويهون لذات الدنيا ورئاسـتها؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّوْمَ يَكْسِـرُ شَهْوَةَ الْبَطْـنِ وَالْفَرْجِ، فَمَنْ أَكْثَرَ الصَّوْمَ هَـانَ عَلَيْهِ أَمْرُ هَذَيْنِ وَخَفَّـتْ عَلَيْهِ مُؤْنَتُهُمَا، فَكَانَ ذَلِـكَ رَادِعاً لَهُ عَنِ ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ، وَمُهَوِّناً عَلَيْهِ أَمْرَ الرِّيَاسَـةِ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ جَامِعٌ لِأَسْـبَابِ التَّقْوَى فَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ فَرَضْتُ عَلَيْكُـمُ الصِّيَامَ لِتَكُونُوا بِهِ مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَثْنَيْتُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِي»[١].

٢ تربية النفس على التوبة:

عبر عام طويل يحمل العبـد على ظهره العديد من الذنـوب والمعاصي ويقع في مخالفـات كثيرة، والذنوب تميت القلوب، وغبارها يزكـم الأنوف، وإذا اعتاد العبد الذنب استسهله وخاض في غماره، فيظلم قلبه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ قَـالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُـقِلَ قَلْبُـهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّـى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُـوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ» ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][٢].

قال المباركفوري: «وقوله: (نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ) أَيْ جُعِلَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَـوْدَاءُ أَيْ أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنُّقْطَةِ شِبْهُ الوسخ في المرآة والسـيف ونحوهما، وَيَخْتَلِفُ عَلَى حَسَبِ الْمَعْصِيَةِ وَقَدْرِهَا، وَالْحَمْلُ عَلَـى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنْ جَعْلِهِ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْـبِيهِ؛ حَيْثُ قِيلَ شَبَّهَ الْقَلْبَ بِثَوْبٍ فِي غَايَةِ النَّقَاءِ وَالْبَيَاضِ وَالْمَعْصِيَةَ بِشَيْءٍ فِي غَايَةِ السَّوَادِ أَصَابَ ذَلِـكَ الْأَبْيَضَ فَبِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ يُذْهِـبُ ذَلِكَ الْجَمَالَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَ الْمَعْصِيَةَ صَارَ كَأَنَّهُ حَصَلَ ذَلِكَ السَّوَادُ فِي ذَلِكَ الْبَيَاضِ»[٣].

وسواد القلب - عياذاً بالله - ينعكس على الجوارح، فتسـيء الأفعال، وترتكب القبائح، قال الشيخ مصطفى العدوي: «السـواد على القلب يمنع الإيمان ونور الإيمان من الخروج من القلب إلى الصدر، فتجد الصدر مظلماً، كما أن المشـكاة تكون مظلمة إذا كانت الزجاجة سوداء، فتجد اليد تتحرك في ظلمة، والرجل تخطو في الظلمات، والعين تنظر في الظلمات، وهكذا يتحرك كبهيمة عمياء إذا كان القلب قد اسود من المعاصي»[٤].

ولذلـك كان تحصيل المغفرة من أهـم معالم تربية النفس في رمضان، فمن خـرج من رمضان غير مغفور الذنب فالوعيد في حقه شـديد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِـرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْـلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الجَنَّةَ»[٥].

قـال المباركفـوري: «وَقَوْلُهُ: (رَغِمَ أَنْـفُ رَجُلٍ) أَيْ: لَصِقَ أَنْفُـهُ بِالتُّرَابِ كِنَايَةٌ عَنْ حصول الذل. الرَّغَامُ وَهُوَ التُّرَابُ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ ثُمَّ اسْـتُعْمِلَ فِي الذُّلِّ وَالْعَجْزِ عَنِ الِانْتِصَافِ وَالِانْقِيَادِ عَلَى كُرْهٍ. انْتَهَى.

وَهَـذَا إِخْبَارٌ أَوْ دُعَاءٌ وَالْمَعْنَى بَعِيـدٌ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ إِجْرَاءِ كَلِمَاتٍ مَعْدُودَةٍ عَلَى لِسَـانِهِ فَيَفُوزَ بِهَا فَلَمْ يَغْتَنِمْهُ فَحَقِيقٌ أَنْ يُذِلَّهُ اللَّهُ، ثُمَّ انْسَـلَخَ رَمَضَانُ أَيِ انْقَضَى قَبْـلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ أَيْ بِأَنْ لَمْ يَتُـبْ أَوْ لَمْ يُعَظِّمْهُ بِالْمُبَالَغَـةِ فِي الطَّاعَةِ حَتَّى يَغْفِرَ لَـهُ، فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ لِعُقُوقِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِي حَقِّهِمَا»[٦].

وقال المناوي: «رغمَ أنفُ من علم أنه لو كفّ نفسـه عن الشـهوات شهراً في كل سنة، وأتى بما وُظف له فيه مـن صيام وقيام، غُفر له ما سـلف من الذنوب، فقصّرَ ولم يفعل حتى انسـلخَ الشهرُ ومضى، فمن وجدَ فرصة

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٤٠).
(٢) سنن الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وحسنه الألباني.
(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ١٧٨).
(٤) سلسلة التفسير للشيخ مصطفى العدوي (٥/ ٣٦).
(٥) صحيح سنن الترمذي للألباني (٣٥٤٥).
(٦) تحفة الأحوذي (٩/ ٣٧٢).

عظيمةً بأن قام فيه إيماناً واحتساباً، عظمه الله ومن لم يعظمه حقره الله وأهانه»(١).

إن رمضان فرصة نادرة ثمينة فيها الرحمة والمغفرة، ودواعيها متيسّرة، والأعوان عليها كثيرون، وعوامل الفساد محدودة، ومردة الشياطين مصفَّدون، ولله عتقاء في كل ليلة، وأبواب الجنة مفتحة، وأبواب النيران مغلقة، فمن لم تنله الرحمة مع كل ذلك فمتى تناله إذن؟! وإذا لم يُغفر له في رمضان فمتى يُغفر لمن لا يُغفر له في هذا الشهر؟! ومتى يُقبل من رُدّ في ليلة القدر؟! ومتى يصلح مَن لا يصلح في رمضان؟ ومتى يصلح من كان فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان؟ مَن فرط في الزرع في وقت البدار لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسارة(٢).

وحصول العبد على مغفرة الله سبحانه في رمضان ميسرة، متعددة الطرق والوسائل، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٣)، وزاد الإمام أحمد في مسنده(٤): "وما تأخر". قال الحافظ ابن حجر: «قَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ أَيْضاً فِي حَدِيث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِت عِنْدَ الْإِمَام أَحْمَدَ مِنْ وَجْهَيْنِ وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ»(٥).

وبيَّنت هذه الأحاديث أن للمغفرة شرطين، الإيمان بالله سبحانه والإخلاص له واحتساب الأجر عنده، قال الحافظ ابن حجر: «قوله (احتساباً) لأن الصوم إنما يكون لأجل التقرب إلى الله، والنية شرط في وقوعه قربة، أي: مؤمناً محتسباً، والمراد بالإيمان الاعتقاد بحق فرضية صومه، وبالاحتساب طلب الثواب من الله تعالى. وقال الخطابي: (احتساباً) أي عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه طيّبة نفسه بذلك غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه»(٦).

٣ تربية النفس على العفو والصفح:

من الأمور التربوية التي يجب أن يخرج بها العبد من رمضان؛ أن يبتعد عن أذى الناس، ويسلم المسلمون من لسانه ويده، فلا ينبغي للعبد أن يصوم رمضان وهو واقع في الغيبة والنميمة والسبّ والشتم والكذب، وهي معاصٍ يجب الحذر منها واجتنابها من الصائم وغيره؛ إذ إنها تجرح الصوم وتُضعف الأجر؛ لقول النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(٧)، ولقوله ﷺ: «الصيام جُنّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم»(٨).

فالصوم ليس مجرد الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من الفجر حتى غروب الشمس، كلا، فهناك حِكَم وأسرار هذا بعضها، لكننا نرى كثيراً من الناس تصوم بطنه ولا تصوم جوارحه، فيصوم عن الحلال المباح، ويتناول ما حرم الله من المنكرات كقول الزور وفعل الزور، فلا يتورع بلسانه عما حرم الله، ولا يغض بصره كذلك عن المحرمات، ويقع بيده ورجله في المحرمات، بل ربما يفطر عند إفطاره على كسب محرم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإن مما يستجلب العبد عفو الله عنه بعفوه عن الناس، ولين الجانب معهم، وخفض الجناح لهم، فعن عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: (يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَدْعُو؟ قَالَ: تَقُولِينَ: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي)(٩).

قال ابن رجب: «والعفوّ من أسماء الله تعالى، وهو الذي يتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لآثارها عنهم، وهو يحب العفو، فيحب أن يعفو عن عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض؛ فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته»(١٠).

٤ الشعور بوحدة الأمة:

وأنت تصوم هذا العام وتفطر على ما رزقك الله من خيره وفضله، تذكّر إخوانك المبتلين في كل مكان، في أرض الشام وبورما وغيرها، فاستشعر معاناتهم وآلامهم، وابذل لهم من مالك ودعائك ما تستطيع، واحمد ربك على نعمة العافية، فإن من الأمور التربوية في رمضان

(١) فيض القدير (٤/ ٣٤).
(٢) لطائف المعارف، لابن رجب، ص٢١١، بتصرف يسير.
(٣) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٥٩).
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٧١٣).
(٥) فتح الباري (٤/ ١٣٨).
(٦) فتح الباري (٤/ ١٣٨).
(٧) أخرجه البخاري (٥٧١٠).
(٨) أخرجه البخاري (١٨٠٥)، ومسلم (١١٥١).
(٩) أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٢٣).
(١٠) لطائف المعارف لابن رجب ص (٢٢٨).

الشعور بوحدة الأمة وجماعية الطاعة، فلو أن الله تبارك وتعالى كلّف كل واحد منا بصيام ٣٠ يوماً وحده وقيام ٣٠ ليلة منفرداً عمن حوله؛ لوجد صعوبة كبيرة، وكان هذا العمل فيه مشقة عظيمة، لكن من رحمة الله تبارك وتعالى بالأمة أن جعل الطاعة جماعية، ففي رمضان يصير الغالب على المجتمع حرصه على الصيام مع أعمال الطاعة والخير والبر، فالمساجد تمتلئ، وأعمال البر والصدقات يتسابق فيها المتسابقون، والأخلاق السمحة تفرض نفسها، والكل يقرأ القرآن ويجلسون في المساجد، وما ذلك إلا بما أودعه الله في هذا الشهر من بركات، وتيسيره للناس سبل الخير عن غيره من الشهور.

٥ حمية للجسد:

من رحمة الله تبارك وتعالى بالعباد أن جعل الصيام وقاية وحماية وتنظيفاً للبدن مما فيه من سموم وأدواء، ففي الصوم صحة البدن، وخلوصه من الأخلاط الرديئة.. وفي الصوم إضعاف للشهوات التي تزداد مع الأكل والشرب وإطلاق النظر، فيأتي الصيام ليكسر هذه الشهوات، فيحفظ الإنسان جوارحه.

إن البدن طوال العام مع العمل يكلّ ويملّ وقد تصاب أجهزة الجسم بالآلام والأسقام، والأفضل أن تستريح الأعضاء بعضاً من الأوقات لتستعيد نشاطها وقوتها مرة أخرى، فمن رحمة العزيز العليم أن جعل للمعدة وقتاً تستريح فيه كما يستريح غيرها من الأعضاء.

وبامتناع الإنسان عن الشهوات بالصوم المشروع؛ ترتقي نفسه وتسمو روحه، وكأنها تقترب من الملأ الأعلى الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون؛ فيكون هذا السمو الروحي وكسر حدة الشهوات عاملاً مهمّاً ليتخلص المرء من حصار الآفات المهلكة.

٦ الصوم في الحر واستدارة الزمان:

الصوم في الحر ومع طول النهار مدرسة عظمى في الصبر، وفيه من الأجر الكثير لمن صبر على ذلك، وقد شاء الله سبحانه أن يجعل الشهر القمري رمضان محلاً للصيام، ولهذا الشهر علامته الكونية الكبيرة؛ القمر بدءاً وانتهاءً يحمل في طياته عوامل الوضوح والثبات، فلا تستطيع سلطة أو جماعة أن تُخفيه أو تحرّف المسلمين عنه، قال النبي ﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ»(١).

واختيار السنة القمرية في التوقيت له فيه حِكَم عظيمة، فالسنة القمرية أقل من السنة الشمسية بنحو عشرة أيام، فعلى هذا يتقدم شهر رمضان كل عام عنه في السنة الماضية عشرة أيام، وعلى هذا ففي خلال ستة وثلاثين عاماً لا يبقى يوم من أيام السنة إلا وقد صامه المسلم، يشهد له بصومه لربه.

اليوم القصير.. واليوم الطويل.. واليوم الحار.. واليوم البارد.. وبذلك يتساوى المسلمون في كل أقطار الدنيا في مقدار الصيام وشدته، ولولا هذا لكان نصيب أهل المناطق الحارة أشد من نصيب أهل المناطق الباردة، وناس يصومون يوماً طويلاً أبد الدهر وناس يصومون يوماً قصيراً.

ومن رحمة الله عزَّ وجلَّ بعباده أن علق الصوم والإمساك على علامتين سماويتين يسهل تمييزهما، هما طلوع الفجر، وغروب الشمس، وفي ذلك ضبط للوقت يستطيعه أي إنسان في أكثر مناطق العالم كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ومن رحمة الله بعباده أن منح الناس في رمضان وقتاً يعوّضون فيه كل ما فقدوه في صيام اليوم من حاجة الجسد، وذلك بإباحة الطعام والشراب والنكاح ليلاً، ومنعه منهم نهاراً، وبذلك يتمحض الصيام نفعاً خالصاً للإنسان بدنياً ونفسياً.

وفي تعيين شهر رمضان بالذات شهراً للصوم، دون ترك التعيين للإنسان ليختار شهراً معيناً لنفسه من السنة؛ إشعار للمسلمين بوحدتهم، ومن تعويدهم النظام والانضباط والاستسلام لله عزَّ وجلَّ، وفيه فتح الباب لأعمال موحدة من الخير ينال كل مسلم من المسلمين فيها نصيبه، وإعلان لدخول المسلمين جميعاً في يوم واحد مدرسة واحدة فيها الصيام والقيام، والبذل والإحسان، وتلاوة القرآن.

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٩)، ومسلم (١٠٨١).

٧ يا باغي الخير أقبل:

إن أبـــواب الأجر في الإســـلام كثيرة، وإن أســـباب اكتساب الحسنات متعددة، وفي شهر رمضان تتضاعف أجـــور الأعمال الصالحة، فضلاً مـــن الله - عز وجل - على عباده، وينادي مناد في أول ليلة من رمضان فيقول: «يا باغي الخير! أقبل، ويا باغي الشر! أقصر»(١).

إن الأيـــام صحائف الأعمار، والســـعيد من يخلّدها بأحسن الأعمال، وراحة النفس في قلة الآثام، ومن عرف ربه اشـــتغل به عن هوى نفسه، وفي هذا الشهر المبارك المنـــزل فيه القرآن العظيم المتعدد فيه طلب أنواع المغفرة من التوسع في المعروف والبذل والدعاء وتفريج الكربات والإكثار من العبادات، إلا أن بعض الناس أرخص لياليه، وأرهق فيها بصره مع الفضائيات، يعيش معها في أوهام، ويسرح فكره حولها في خيال، ويتطلع لها لعل فيها سعادة السراب، فإذا انقضى شهر الصيام لا لمال فيه جمع، ولا للآخرة ارتفع، ربح الناس وهو الخاسر.

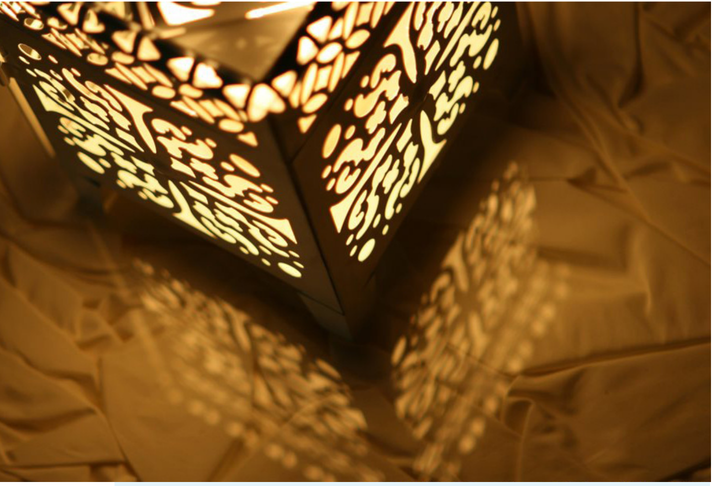
إن مـــن رحمة الله بعباده في رمضان أن ســـاعدهم على الطاعات وهيّأ لهم الوسائل المعينة على ذلك، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشـــياطين" [متفق عليه]. ففي شـــهر رمضان المبارك يفتح الله ســـبحانه وتعالى أبواب الجنة علـــى مصراعيها لكل تائـــب توبة نصوحة وفق شروطها الشرعية المعتبرة، وتغلق بوجهه كل أبواب الجحيم.

ومن رحمـــات الله تبارك وتعالى بالناس في شـــهر رمضان المبارك أنه يصفد الشـــياطين الذين يسعون في الأرض فساداً.

٨ تربية النفس على الاستيقاظ بالأسحار:

الليل واحة المتّقين، تجتمع فيه شـــتات الهموم، وتصفو النفـــوس، ويتوجه العبد للقاء الحي القيوم، والسَّـــحَر وقت شـــريف، يقترب الله جل وعلا من عباده، لعلهم يتوبون إليه أو يناجونـــه ويُنزلون حاجتهم به، لكن كثيراً من المســـلمين طـــوال العام يكونون نائمين في هذا الوقت الشـــريف، فإذا جاء رمضان قاموا إلى السحور فذكروا ربهم وصلوا ركعتين في جوف الليل ودعوا ربهم واستغفروه.

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهما وحسنه الألباني.



ومـــا أروع ليـــل رمضـــان، يتقلب العبَّاد بـــين أنوار الساعات المباركة في ساعات رمضان، فتهتز قلوبهم من روعة المشهد ولذة الإيمان، فتنساب الدموع.

أيها المقبل على ربه! ما أحوجك في رمضان إلى توبة صادقة ودمعة صادقة تغســـل عنك أدران الذنوب، تكون عنـــوان ضراعتك لمولاك، وبرهان خـــوف ورجاء ومحبة للرحمن، علها تكون طوق النجاة.

إن الســـعيد مـــن اغتنم مواســـم الشـــهور، والأيام، والســـاعات، وتقرب فيها إلى مولاه بمـــا فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة من يأمن بعدها النار وما فيها من اللفحات.

فإياكم والغفلة، وإياكم والتكاســـل عن فعل الطاعات والخيرات في هذا الشـــهر المبـــارك، فإن الغفلة ضيعت عمرَ كثير من الناس، واســـتهلكت لياليهم وأيامهم، وحين ينزل الموت بساحة أحدهم يستذكر ما فرط فيه.

الانتباه لأيام الخير ومواسم الفضل:

وختامـاً.. فقـد أظلتنـا أيـام غالية، ستمركما مرَّما قبلها، لكن هل ربحت تجارتك فيها أم خسـرت؟ هل ازددت قربـاً من ربـك أم زدت عنه بُعـداً؟ هـل آواك ربك ونصرك وسددك وأعانك، أم تجد الأخرى من ضنك الحياة؟

إن الغفلـة عـن هذه الأيـام وتضييعها ليس من سـمات الصالحين، وإنما الصالحون يهتفون دائماً: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ قولاً وعملاً واعتقاداً، فرضاً ونفلاً وإحساناً.

اللهـم مُـنَّ علينـا بأعمـال صالحـة فـي رمضان وتقبلهـا منّـا، واملأ نفوسـنا ثقـة بـك، ومحبـة لـك، وطمأنينـة بذكرك، وأعنّا اللهم على ذكرك وشـكرك وحُسن عبادتك.

خريطة النهوض الحضاري للأمة



حوار مع الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل(*)

■ أجرى الحوار: إسماعيل طه

البيان: النهوض الحضاري للأمة المسلمة لا بدّ من الوعي بالهوية وتوطين الذات، لكن نرى الاستلاب لأنظمة فكرية وتنظيمية ناتجاً عن خبرة غربية، فقد ظهر الحداثيون العرب والتفكيكيون وما شابه.. كيف يمكن التعامل مع هذا الوضع على المستوى الفكري؟

دعني أبدأ حديثي معك وجواباً على سؤالك هذا، من خلال خبرتي الشخصية مع ثلاثة من الحداثيين المحسوبين على العرب. في عام ٢٠٠٨ على ما أذكر أتيح لي أن أطّلع على حلقة من برنامج (الاتجاه المعاكس) في قناة الجزيرة الفضائية.. كان محمد أركون أحد طرفي الحوار.. دققت في ملامحه فوجدته كالطفل الخائف المذعور.. يتراجع عن رأيه بمجرد أن يجابَه بموقف حازم من الطرف الآخر.. يعتذر.. يتلكأ.. وكان يعتمد ما أسميه اللغة الثالثة في طرحه.. خليط من الألغاز والمعميات، وكأن اللغة العربية عاجزة عن نقل أفكاره بالوضوح المطلوب.

قلت في نفسي: هذا هو إذن أحد أعمدة الحداثة الإسلامية في القرن العشرين.. تشويه مقصود لكل ما هو إسلامي أصيل.. عكس للرؤية بزاوية ١٨٠ درجة بين تأسيسات هذا الدين العظيم وبين ما يريده أن يكون عليه الحداثيون!!

(*) مفكر وأديب ومؤرخ وكاتب مسرحي وناقد، ولد في الموصل عام ١٩٣٩م.

لم أستغرب هذه الجملة من النقائض والترّهات الفكرية التي طرحها الرجل والتي سبق أن ملأ بها بحوثه ومؤلفاته.. إذا كان الرجل يستمد جذور أفكاره المعوجة هذه من أستاذه (فوكو) الذي اتهم في بولندا بالشذوذ الجنسي، ثم ما لبث أن توفي بمرض الإيدز؛ فلا بّد من أن ينعكس ذلك على منظور أركون الفكري.. وإذا كان أستاذه الآخر الفيلسوف الألماني (نيتشه)، الذي أعلن موت الإله، قد انتهى به المطاف إلى مستشفى الأمراض العصبية؛ فلا يستغرب هذا الإفراز المرضي من تلميذه الفكري (أركون).

قبل ذلك بـ ١٥ عاماً أتيح لي أن ألتقي - عرضاً - حداثياً مصرياً استدعي للمشاركة في أحد المؤتمرات في المغرب.. كان يدعو في كل حوار يجمعه مع بعض المشاركين، إلى القول بأنه لا يوجد شيء اسمه (حضارة إسلامية) على الإطلاق.. وإنما هي مجموعة من الاقتباسات الفجّة عن الحضارة اليونانية، وبأن العقل المسلم لم يقدّم أو يبتكر أو يضيف أي شيء على الإطلاق لما سبق أن قدّمه العقل اليوناني.. كان يرفض الحوار وينقفل على قناعاته الخاصة.. فقررت أن أقرأ بحثه الذي سيلقيه في المؤتمر.. فوجئت بأنه ليس بحثاً على الإطلاق، ولا يمتّ للأصول الأكاديمية المتبعة في كتابة البحوث بأي صلة.. مجموعة من الشتائم الرخيصة التي صبّها على رؤوس الإسلاميين.. واستدعاء للشرطة والبوليس في ضرورة ملاحقتهم، وتضييق الخناق عليهم، واستئصالهم من الوجود.. الأمر الذي دفعني إلى الشك بأن هذا الدكتور الحداثي مبعوث من المخابرات المصرية يومها، إذ كيف يبرّر لنفسه، وهو الأستاذ الجامعي، أن ينجرف إلى ما لا يفعله السوقة وأراذل الناس؟

في عام ٢٠١١م شاءت الظروف أن ألتقي عبر مؤتمر في إسطنبول حداثياً ثالثاً.. وهو مؤلف مصري كبير.. كانت كتبه منذ عقود تترى على الناس.. بالتناقضات الحداثية نفسها.. وبالغطاء الفلسفي المخادع الذي يعتّم الرؤية على المتلقّين.. وبمحاولة إنزال كتاب الله سبحانه وتعالى من عليائه، ووضعه كنص أدبي لدراسة الناس، بعد تجريده من قدسيته وتميّزه، باعتباره قادماً من عند الله الذي يعلم من خلق وهو سبحانه بكل شيء خبير.

تابعت محاضرته البائسة على مجموعة الطلبة الذين دُعوا لسماع محاضرات المشاركين، فإذا به يبدأ كلامه بالهجوم على الفكر الغيبي، وإدانة تشبّث المسلمين بالغيبيّات، واعتبار ذلك سبب الأسباب في تخلفهم عن اللحاق بركب الحضارة الغربية المتفوقة.. ويستمر يقدّم هذه الترهات بانفعال شديد، حتى إذا انتهى من كلامه طلبت مناقشته وبدأت حديثي بأنه يمارس تضليلاً للطلبة الأتراك المساكين وأنه يناقض تأسيساً قرآنياً للعقيدة الإسلامية باعتبار الإيمان بالغيب هو نقطة الانطلاق، ثم تلوت الآيات الأولى من سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، وقلت بأن ذلك يتوافق مع دعوة القرآن إلى الالتحام بالكتلة، بفيزياء العالم، فيما يزيد على ألف آية.. وفيما يدفع المسلمين، وقد دفعهم فعلاً: إلى تلك الحركة العلمية التي كانت أساس حضارتهم، والتي قدمت للحضارة الغربية تأسيساتها الأولى التي انبنت عليها.. ويوم أن ارتخت أيديهم عن الإمساك بالكتلة، فيما هو نقيض الموقف القرآني، تركوا الفرصة للآخرين بأن يتفوقوا عليهم ويسوموهم سوء العذاب.. فأي علاقة إذن بين تخلّف المسلمين وبين إيمانهم بالغيب؟ وقبل أن أتمّ كلامي رأيت الرجل وقد ارتبك، وأصفر وجهه، وراح يصرخ: أتريد أن يقتلني خصومي.. وأن ألاحق في كل مكان! فما كان مني إلا أن أهدئ من روعه، وأقول له إننا هنا في حلقة نقاش علمي وليس في حلبة ملاكمة.. لقد ضلّلت بكلامك حشوداً من الطلبة، فأردت أن أوضّح لهم الحق.

كلهم سواء هؤلاء الحداثيين.. في تناقض أفكارهم.. في نفي أحدهم الآخر.. في اهتزاز شخصياتهم.. وفي حقدهم الذي لا حدود له على كل ما هو إسلامي أصيل في هذا العالم.

الأنسنة والعقلنة والترخنة.. فأي شيء أكثر من هذا، وأبشع منه في تنزيل كتاب الله المتعالي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه.. إلى اعتباره نصّاً أدبياً وضعياً قابلاً للنقد والتفكيك والتشريح؟!

الأنسنة حيث يجرد كتاب الله من بُعده الغيبي ومن ارتباطه بالوحي.. والعقلنة حيث يحكم العقل البشري النسبي القاصر المحدود ذو الأهواء والنزعات في النص الإلهي ويعبث بمعطياته.. والترخنة حيث يسجن هذا النص المتعالي على الزمن والمكان في دائرة التاريخ!!

لكنهــا بأباطيلهــا لم تصمــد إزاء موجــات أخرى كانــت ولا تزال يضرب بعضهــا بعضاً ويســقط بعضها بعضاً؛ لأنها في حقيقتها لا تعدو أن تكون شبكة متهافتة من الظنون والأوهام تسعى لأن تســتعبد الناس باسم العلمية والأسلوب العلمــي.. ﴿إِنْ هِـيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَـا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُـلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّـنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُـسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُـدَى﴾ [النجم: ٢٣].. وصدق الله العظيم.

البيان: هـل تـرى أن النهوض الحضـاري للأمـة يتطلـب معالجـة حقيقـة للأزمـة الفكريـة الراهنـة دون انغلاق على الـذات وبصـورة تنأى عن الذوبان في فكـر الآخـر.. كيف يمكـن أن يتـم ذلـك.. هـل الحلّ منهجـي أم مفاهيمي وقيمي؟

الحــلّ منهجي ومفاهيمــي وقيمي معاً.. فنحن ما ضيّعنا ســوى تشــبثنا بمبدأ إما هذا أو ذاك، ولو أننا استبدلناه بمنهج هذا وذاك لأغنانا ذلك عن الكثير الكثير من الجدل والنقاش في المنتديات والمؤتمرات وســاحات العلــم والمعرفة، حيث ينقســم المتحــاورون إلى طرفين، كل طرف يتشــبث بجانــب من القضية موضوع النقاش، ولهذا تراهم لا يصلون إلى نتيجة مقنعة فــي معظم الأحيان. ولو أنهم تعاملــوا بمنطوق (هذا وذاك) لـمــا أصرّ كل طرف علــى رأيه الأحادي الجانب، ولاجتمعوا على موقف موحّد.

مهما يكــن من أمر فــإن النهوض الحضــاري للأمة المســلمة يتطلــب – فعــلاً – معالجــة حقيقيــة للأزمة الفكريــة الراهنــة، دون انغــلاق على الذات، وبصورة تنــأى عن الذوبان في فكر الآخر. ولقد عالجت هذه المســألة بالتفصيل فــي الفصل الرابع من كتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) الذي صدر عام ٢٠٠٥م عــن المركز الثقافي العربي في الرباط والدار العربية للعلوم في بيــروت، وذلك من خلال الســياق الفكري والثقافــي والعلمي والحضاري والإنساني.. فلا مبّرر للتكرار.

البيان: هــل الأمــر يحتــاج إلى إصـلاح الأنظمـة التعليميـة وبنـاء معارف تنبثـق من رؤيتنا ونظامنا المعرفي حتى نعالج حالة الاستلاب الفكري؟

الذي اخترق عقلية أمتنا الإسلامية فــي العصر الحديث هــو رفض المنهج الإســلامي فــي التعامــل المعرفــي، واســتدعاء المنهج الغربي العلماني في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، في طول البلاد الإسلامية وعرضها.. هذا المنهج الذي فــك ارتباطه بعالم الغيب، ورفض التلقي عن الســماء، والتصق بالأرض.. بالكتلة.. بالمادة.. وبالمصلحة الذرائعية.. فانتهى به الأمر إلى الطرق المسدودة.

وكان على القائمين على التعليم في ديارنــا أن يفرّقوا في تعاملهم مع المنهج بين نمطين من المعرفــة.. نمط المعرفة الإنســانية (في علوم الاجتماع والنفس والتاريخ والسياســة والإدارة والاقتصاد والتربيــة والآداب والفنــون... إلــخ)، ونمط المعرفة الصرفة والتطبيقية (في علوم الرياضيات والفيزيــاء والكيمياء والفلــك والأرض والنبــات والحيوان.. والعلــوم التكنولوجيــة).. أن يرفضوا الأخذ عن الأولى، والتســليم بمقولاتها الظنية الخاطئة، وأن يتشبثوا بالثانية.. لكنهم ضلّوا الطريق فأخذوا عن الاثنتين فضيّعوا أجيال الطلبــة، ودفعوهم إلى ما يمكن اعتباره – بشــكل من الأشكال – حالــة انفصــام في الشــخصية بين الديني والدنيوي فيمــا لم يأذن به الله ورســوله ﷺ، حيث التوحّد المطلق بين القطبين، وحيث يغيب الازدواج وتتكامل الشــخصية في ظلال منهج تلتقي فيه سائر الثنائيات التي اصطرعت وتقاتلت في ســاحات الغرب، لكنهــا في ظلال هذا الدين تصالحت وفق أقصى حالات التوافق والانســجام: الله والإنســان.. الغيب والوجود.. الروح والجسد.. الفرد والجماعة.. المنفعــة والجمال.. العدل والحريــة.. الســماء والأرض.. الفناء والخلود.. الدنيا والآخرة.. إلى آخره.

إن اعتماد نتائــج ومعطيات المعرفة الإنســانية الغربيــة فــي مدارســنا وجامعاتنــا، كان – كما يقــول ليوبولد فايس فــي كتابه القيّم (الإســلام على مفترق الطرق) – أشبه بالمصل المسموم الذي حقنت بــه أدمغة طلبتنا، فقادتهم إلى الضياع.

وبدلاً من أن نضع أنفسنا في قفص الاتهام ونلجــأ إلى الدفاع عن قناعاتنا، علينــا أن نتحول إلــى الهجوم – الذي هو خير وســيلة للدفاع – فنعرّي الفكر الغربي في تعامله مع المعارف الإنسانية، ونبيّن أخطاءه وسقطاته، ثم نتحول إلى عمل تأسيســي للمعرفة الإنسانية في سياقاتها كافة، يستمدّ جذوره من عقيدة هذه الأمــة التي لم تبخــل مطلقاً في الإجابة عن كل ســؤال في شتى ميادين

المعرفة الإنسانية. وهكذا قامت حركة (أسلمة المعرفة) أو (التأصيل الإسلامي للمعرفة) لتدارك هذه الفجوة، وتقديم علم اجتماع إسلامي وعلم نفس إسلامي وعلم إدارة إسلامي... إلخ.. من أجل العودة بالضائعين إلى الطريق.

والآن، فإن هذه الحركة، منذ تأسيسها في بداية ثمانينيات القرن الماضي؛ قطعت خطوات واسعة في الطريق، وخرّجت حشوداً من علماء الاجتماع والنفس والإدارة والسياسة والاقتصاد... إلخ، وعقدت مئات الندوات والمؤتمرات.. وأصدرت أكثر من ثلاثمائة كتاب.. وأنشأت جامعات تعنى بتقديم المعرفة الإنسانية وفق المنظور الإسلامي المتوازن القائم على الوحي والوجود.. وهي ماضية في طريقها لتقديم المزيد.

لقد أتيح لي في كتابي (حوار في المعمار الكوني) (الذي صدر عام ١٩٨٧م)، أن ألاحق حشوداً من أخطاء المعرفة الإنسانية الغربية وتناقضاتها، فيما لا يتسع المجال لاستعراضه في هذا اللقاء، لكني أكتفي بالإشارة إلى بعضها فحسب.

ففي رسالة بعنوان (رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي) يبعث بها أوغست كونت إلى محبوبته (كلوتيلد دي فو)، يغيّر رأيه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييراً تاماً.. فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه (ستورات ميل) فيرى أنه ليس في المرأة أمل ولا خير، أما الآن فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه. والسبب في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض إلى النقيض هو أنه في الأولى كان يحب امرأة قبلت الزواج منه، لكنها خدعته فدفعته إلى محاولة الانتحار، والالتحاق بمستشفى المجانين حيناً من الدهر، وفي الثانية أحب فتاة لم يتح له الزواج بها، لكنها منحته نفسها وأحبته حباً صادقاً.

ونقارن هذا العبث بالموقف الديني من المرأة.. الموقف الثابت الواضح المنبثق عن علم إلهي محيط بتكوين هذا الجنس وخصائصه ووظائفه المناسبة، فنراه شاسعاً هائلاً، ونرى الذين يتجاوزونه صوب الأحكام النسبية المتغيرة كأحكام (كونت) إياها، ويريدون أن يتعاملوا على أساسها المتقلب مع المرأة، يستحقون الرثاء والازدراء!!

وإذا كان (كونت)، مؤسس واحدة من أشد الفلسفات أهمية وانتشاراً في أوروبا، يغيّر رأيه بسبب دوافع ذاتية صرفة، وفي واحدة من المسائل الأساسية في الحياة البشرية: المرأة؛ فكيف يرجى لفلسفته أن تمنح اليقين لتلامذتها والمعجبين بها، بل كيف نفسّر تحوّلها، وغيرها كثير من الفلسفات البشرية العاجزة إلى ما يشبه الدين الذي ينحني الغربيون لمسلّماته ويعتقدون أنه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه؟ ألا ينسحب الأمر على معظم الفلسفات والعقائد الوضعية إن لم نجازف فنقل: كلّها!!

وإليك شاهدٌ آخر: كان الدافع الجنسي – يقول أرثر كوستلر – مقرّراً أو معترفاً به في بدايات تشكل الاتحاد السوفياتي، إلا أننا كنا في حيرة بشأنه، كان الاقتصار على زوجة واحدة، بل كان نظام الأسرة كلّه عندنا من آثار النظام البرجوازي ينبغي نبذه لأنه لا ينمّي إلا الفردية والنفاق والاتجاه إلى اعتزال الصراع الطبقي، بينما الزواج البرجوازي لم يكن في نظرنا إلا شكلاً من أشكال البغاء يحظى برضاء المجتمع وموافقته. إلا أن السفاح والاتصال الجنسي العابر كان يعد أيضاً شيئاً غير مقبول، وكان هذا النوع الأخير قد شاع وانتشر داخل الحزب، سواء في روسيا أو خارجها، إلى أن أعلن (لينين) تصريحه الشهير الذي يهاجم فيه نظرية (كأس الماء)، تلك التي روّج لها الدكتور الماركسي (ولهلم رايخ) والتي تزعم أن العملية الجنسية ليست أكثر خطراً وأثراً من عملية إطفاء العطش بكأس من الماء. من هذا نرى أن الفضيلة البرجوازية كانت تعد شيئاً سيئاً، كما أن السفاح والاتصال الجنسي العابر كان سيئاً كذلك، أما الموقف الصائب الذي ينبغي أن نتخذه نحو هذا الدافع الجنسي فهو الفضيلة العمالية التي تتلخص في أن الإنسان ينبغي له أن يتزوج ويخلص لزوجته وينجب أبناء عماليين.. وإلا أصبح أولاد الروس جميعاً أولاد حرام!

البيان: والعلمانية ضد طبقة رجال الدين، والإسلام جاء بدعوة التوحيد ومحاربة من يدّعي حقاً إلهياً، وهم لا يعرفون الإسلام، بل يعرفون أديانهم المحرّفة وممارساتهم الخاطئة.. فكيف نتعامل معهم؟

حقاً إن الإسلام جاء ثورة حاسمة تدعو إلى التوحيد وتحارب أي ادّعاء بالحق الإلهي.. إن شعار (لا إله إلا الله) الذي هو نقطة الارتكاز في العقيدة الجديدة، والذي أصرّ رسول الله ﷺ

على التمسّك به والقتال دونه.. إنما هو شعار انقلابي ضد كل قوى الطاغوت والاستلاب والابتزاز والحتميات القاهرة في هذا العالم.. والذين لا يعرفون هذا يدخلون أنفسهم في الأنفاق المظلمة ويصدرون آراء ملفقة ما أنزل الله بها من سلطان.. وهم فضلاً عن ذلك يمزجون بين الخبرة الإسلامية والخبرة المسيحية القادمة من الغرب الذي كبّلته تلك الخبرة ومنعته من اكتساب المعرفة العلمية، والكشف عن حقائق الكون والعالم، فتمرّد عليها، وانطلق تلك الانطلاقة العلمية الكبرى.. أما في الإسلام، وكما يقول الباحث الإنكليزي المعاصر (روم لاندو)، فإن الأمر يختلف.. ذلك أن الغرب لم يفصل العلم عن العقائد الدينية فحسب، بل فصله عن مفاهيم الإيمان والقيود الأخلاقية الملازمة لها أيضاً. أما العلم الإسلامي فلم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معاً إلى الوجود، لإقامة الدليل على (الألوهية) وتمجيدها. ومن هنا فليس عجيباً أن يكون العلم الإسلامي لم يجرد في أي يوم من الأيام من الصفات الإنسانية – كما حدث في الغرب –، لكنه كان دائماً في خدمة الإنسان.. ومرة أخرى فإن الحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي أن المسلمين وفّقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه، وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح، لا عامل تعويق وإحباط.

أما كيف نتعامل معهم، فهو في توصيل الصورة الصادقة الأمينة لهذا الدين، خاصةً ونحن في زمن الإعلام السريع، والعولمة، التي جعلت من العالم قرية صغيرة، والفضائيات التي تخاطب في اللحظة الواحدة ملايين الناس.. ولسوف نكون جدّ مقصّرين في حق أنفسنا وحق الآخر إن لم نوظف هذه الفرصة في حدودها القصوى.

لقد قالها القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] بواسطة رسل الله وأنبيائه الكرام (عليهم السلام)، وعلينا نحن أن نواصل الطريق، فنوصّل خطابنا الإسلامي إلى سمع العالم وعقله ووجدانه.. وحينذاك سنعرف كيف يفعل هذا التوصيل فعله المدهش، خاصةً إذا تجاوزنا خطاب بعضنا البعض بلغتنا العربية، وتحوّلنا إلى خطاب العالم بلغاته الكبرى: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والروسية.

لقد أتيح لي في خريف عام ١٩٩٧م أن ألتقي في كوالالمبور بماليزيا الداعية الإسلامي المعروف (عبد المنعم خفاجي)، الذي كان قد عمل وزوجته في الكويت حيناً من الزمن، وجمعا مبلغاً من المال فاض عن حاجتهما، فسافرا إلى ألمانيا لتوظيف هذا المال هناك في قضايا الدعوة، وعهد الرجل إلى مكتب ترجمة بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الألمانية، وصدرت الترجمة بألفيْ نسخة، فما لبثت أن نفدت من الأسواق، حيث أقبل عليها الألمان يقرؤونها بنهم، وبعضهم انتهى به الأمر إلى إعلان إسلامه.. وها هو ذا خفاجي يدور في البلدان الإسلامية لجمع مبلغ من المال لكي يواصل الطريق، فيصدر عدداً أكبر من نسخ الترجمة الألمانية، ويطمح إلى تنفيذ العمل نفسه مع اللغات الأوروبية الأم، كالفرنسية والإسبانية والروسية.

ونحن نستمع ونقرأ يوماً بيوم عن هذا العدد الكبير من نخب الغرب الذين ينتمون للإسلام، فكيف لو اتسع نطاق (توصيل) الخطاب الإسلامي الأصيل إلى مداه الأقصى في العالم كلّه؟!

البيان: الولاء داخل الأمة الإسلامية عقدي في المقام الأوّل، لكننا نجد دعاوى تعصّب للقوم لحقتها فكرة الأوطان، ما أدى إلى تجزئة الأمة الإسلامية وزرع الخلافات بينها.. كيف يمكن لمّ شمل الأمة الإسلامية في وحدة تنظيمية تتوافق مع العصر الراهن وتكون ذات فاعلية في الشأن العام الذي يهم المسلمين جميعاً على المستوى الكوني؟

من خلال مفهوم الوحدة والتنوّع، وهو مبدأ أساسي من مبادئ تعامل هذا الدين مع الواقع البشري المتنوّع والمتغاير.. واسمح لي بأن أحدثك عن جانب منه.. فلقد قدّم التاريخ الإسلامي في نسيج فعالياته الحضارية نموذجاً حيوياً على التناغم بين هذين القطبين اللذين ارتطما وتناقضا في الحضارات الأخرى، ووجدا في الإطار الإسلامي فرصتهما الضائعة للتلاؤم والانسجام.

فالحضارة الإسلامية هي من ناحية حضارة الوحدة التي تنبثق عن قاسم مشترك أعظم من الأسس والثوابت والخطوط العريضة، بغض النظر عن موقع الفعالية في الزمن والمكان وعن

نمطها وتخصصها. وهي - من ناحية أخرى - حضارة الوحدات المتنوعة بين بيئة ثقافية وأخرى في إطار عالم الإسلام نفسه، بحكم التراكمات التاريخية التي تمنح خصوصيات معينة لكل بيئة تجعلها تتغاير وتتنوع فيما بينها في حشود من الممارسات والمفردات، تبدأ باللغة وتنتهي بالملابس والعادات.

إنها جدلية التوافق بين الخاص والعام، تلك التي أكدها القرآن الكريم في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي الآية: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وهو يتحدث عما يمكن تسميته الأممية الإسلامية التي تعترف بالتمايز بين الجماعات والشعوب والأمم، لكنها تسعى لأن تجمعها في الوقت نفسه على صعيد الإنسانية.

وهي محاولة تختلف في أساسها عن الأممية الشيوعية التي سعت - ابتداءً - وبحكم قوانين التنظير الصارمة؛ إلى إلغاء التنوع ومصادرته، وإلى تحقيق وحدة قسرية ما لبثت أن تأكد زيفها وعدم القدرة على تنفيذها تاريخياً بمجرد إلقاء نظرة على خريطة الاتحاد السوفياتي (المنحلّ)، حتى قبل حركة (البرسترويكا)، والرفض المتصاعد الذي جوبهت به الأممية الشيوعية من قبل حشود الأقوام والشعوب التي تنتمي إلى بيئات ثقافية متنوعة، فيما حدثتنا عنه المؤلفة الفرنسية الخبيرة بشؤون الاتحاد السوفياتي هيلين كارير دانكوس في كتابها القيّم (القوميات والدولة السوفياتية). ومقارنة هذا بما شهده التاريخ الإسلامي من تبلور كيانات ثقافية إقليمية متغايرة في إطار وحدة الثقافة الإسلامية وثوابتها وأسسها الواحدة وأهدافها المشتركة؛ تتبيّن مصداقية المعالجة الإسلامية لهذه الثنائية كواحد من حشود الثنائيات التي عولجت بنفس القدرة من الواقعية في الرؤية والمرونة في العمل.

لقد شهد عالم الإسلام أنشطة معرفية متمايزة وثقافات شتى على مستوى الأعراق التي صاغتها، عربية وتركية وكردية وفارسية وهندية وصينية ومغولية وزنجية وإسبانية... إلخ، كما شهد أنماطاً ثقافية على مستوى البيئات والأقاليم: عراقية وشامية ومصرية ومغربية وتركستانية وصينية وهندية وإفريقية وشرق أقصوية وأوروبية شرقية وإسبانية وبحر متوسطية... إلخ.. وكانت كل جماعة ثقافية تمارس نشاطها الاجتماعي والمعرفي بحرية، وتعبّر من خلاله عن خصائصها، وتؤكد ذاتها، لكن في إطار الأسس والثوابت الإسلامية.. بدءاً من قضية اللغة والأدب، وانتهاءً بالعادات والتقاليد، مروراً بصيغ النشاط الفكري والثقافي بأنماطه المختلفة. ولم يقل أحد إن هذا خروج عن مطالب الإسلام التوحيدية، كما أن أحداً لم يسعَ إلى مصادرة حرية التغاير هذه. وفي المقابل فإن أياً من هذه المتغيّرات لم تتحول - إلا في حالات شاذة - إلى أداة مضادة لهدم التوجهات الوحدوية الأساسية لهذا الدين.

البيان: برأي طه عبد الرحمن بلغ تعلّق النقاد العرب بالحداثة الغربية أن توهموا أنها واقع لا يزول، وحتمية لا تحول، وأنها نافعة لا ضرر فيها، وكاملة لا نقص معها، فحجبهم هذا التعلق عن أن يتبيّنوا ما في كتابه "سؤال الأخلاق: مساهمة في نقد الحداثة الغربية" من أصول أخلاقية مصححة لمسار هذه الحداثة، لم يقلد فيها أحداً، ثم كتب "روح الحداثة: مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية".. ويريد أن يتبنى الحداثة الإسلامية.. ما رأيك بهذا المصطلح؟

للدكتور طه عبد الرحمن القول الفصل في نقد الحداثة الغربية، وهو - بحق - فارسها الأوّل في جلّ ما أنجزه من مؤلفات في غاية القيمة.. أما تعبير (الحداثة الإسلامية) فهو مجال الأخذ والردّ وكأنه نوع من ملاحقة مستجدات العقل الغربي.. وبما أن هذا العقل - بسبب عدم تلقّيه الثوابت اليقينية المطلقة من السماء - ضلّ به الطريق، وأخذت حداثته نفسها تتعرض لنكسات خطيرة، بحيث أخذت موجاتها المتعاقبة يضرب بعضها بعضاً ويطرد بعضها بعضاً.. التفكيكية وما بعد التفكيكية، والسيميائية وما بعد السيميائية..و..و.. ولا ندري أين سينتهي بهم المطاف.. فما دام الأمر كذلك فلماذا نقتبس عناوينهم المتغيرة، ولا نلجأ إلى نحت عناوينا من القاموس الإسلامي نفسه الذي لا يبخل علينا مطلقاً بأي محاولة للتجديد؟

سيد الضمانات الفكرية



فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@gmail.com
@alajlan_f

شابٌّ يتحدث في مجالسه - بكل استرخاء - عن سرّ تحولاته الأخيرة، فيأتي ببعض الاستشكالات التي كانت شرارة هذه التحولات، وحين تفحصها تجدها من الشبهات اليسيرة التي يسهل الجواب عنها، بل لم تعد لها جاذبية لتوالي الردود الكثيرة عليها.

بينما تجد شاباً آخر يحضر مجالس حواراتٍ كثيرة مع عدد من الملحدين والشكّاك ويسمع من فنون الإشكالات، فيخرج منها وهو واثق من دينه متلمّظ مما سمع، قد زادته هذه الشكوك حميّة لدينه وحرصاً على تعلّم أحكامه وسعياً للدفاع عنها، مع كونه ربما لم يكن قادراً في حينها على الإجابة عن هذه الأسئلة.

في كلا الحالتين لدينا شـبه وإشكالات، لكنها في الحالة الأولى أحدثت انقلاباً عميقاً مع كونها شـبهة سـهلة، وفي الثانية لم يكن لها أي أثر، بل قد زادت صاحبنا إيماناً.

يقودنا هذا المشهد المتكرر إلى إدراك حقيقة أن الإشكال الحقيقي ليس في وجود (شبهة) معينة عند المسلم أو حضور تساؤلاتٍ ما أو مرور بعض الخواطر على قلبه؛ إنما الخلل يأتي في موقفه من هذه الشبهة وكيفية إدارته هذه الإشكالات، وإلا فكون المسـلم يجهل شيئاً من الشـريعة أو يُشْكِل عليه بعض أحكامها أو تخفى عليه حكمة بعض شـرائعها أو لا يستطيع الجمع بـين بعض نصوصها؛ كل هذا أمـر طبيعي، ولا يكاد يسـلم منه أحد، وهي نتيجة طبيعية لواقع الإنسـان وما هو عليه من جهل ونسيان وهوى وضعف، ولهذا فموقف التسليم للشـريعة في مثل هذه الأسـئلة هو موقف عقل واعٍ مدرك طبيعة هذا الضعف والنقص.

قد كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون النبي ﷺ عما يستشكلون، انظر مثلاً في أسئلة عائشة رضي الله عنها، فلما سمعت الرسول ﷺ يقول: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. قالت إنا لنكره الموت[1].

وحين سمعته يقول: من حوسب عذب. قالت: أوليس الله يقول ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [**الانشقاق**: ٨][2].. وغيرها.

إذن، فليس الخلل في وجود استشكالات أو حضور أسئلة، فمثل هذا لا ينافي التسـليم، بـل هو في الحقيقة داعٍ لكمال التسليم وتمام الانقياد لله ورسوله ﷺ.. إنما يأتي الخلل على الإنسان حين لا يُحسن التعامل مع هذه الإشكالات والشبهات فتكون سبباً لهدم أصول شرعية وتغذية انحرافات عميقة ما كانت لتحصل لو أنه تعامل مع هذه الشـبهة بشـكل منهجي صحيح، وبطريقة عقلية موضوعية سليمة.

إن التعامل مع الأسـئلة التي ترد على المسـلم يحتاج إلى مدخـل منهجي عقلانـي متكامل، فهي بأمـسِّ الحاجة إلى منهجية متكاملة وليس إلى مجرد ردود عقلية ونقلية فقط.

ولو قُـدِّر لي أن أرى هذا المدخل المنهجي فسـأضع في أول مدخله لوحة كبيـرة أنحت عليها حديث النبي ﷺ وثناءه العظيم لأشـج عبد القيس: إن فيك خصلتـين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة[3].

الأناة صفة خلقية تسيطر على سلوك الإنسان حتى يغلب عليه الهدوء والاسـتقرار والتفكير قبل اتخاذ القرار، فتحميه من العجلة والخضوع لضغط نفسي معيّن.

كثيـرة تلك المواقف التـي نتخذها في حياتنـا، لو قدّر لنـا أن نتريث فيها قليلاً لما رضينـا بها، لكن العجلة وضغط اللحظة الآنية تدفع الشخص لاتخاذ مواقف غير منطقية ولا صحيحـة، وهنا تأتي هذه الصفة الجليلة لتجذب النفس عن السقوط في مثل هذه الأخطاء.

الأناة منهج ضروري للتعامل مع الإشـكالات والشـبهات التي تنهال على قلب المسـلم من كل مـكان في هذا الزمان، فهـي تدعوه لأن يتريث في أمرها، ويفكر فيها كثيراً، وتدفعه للاستشارة، وطول النظر، وحينها سينزِل الإشكال في موقعه الطبيعي.

تريد أن تعرف قيمـة الأناة حقاً؟ انظر في تحولات كثيرٍ من الناس، ستجد فيها ظاهرة ملموسة بوضوح وهي: (سرعة التحول)، فجلسـات قليلة ولقاءات محدودة وأسـابيع يسيرة كافيـة لتغيير بعض الناس تصوراته بالكامل، بل بعضهم ربما تبـدأ حالة التحول لديه من خلال لقاء واحد فقط أو ارتباط مع صديـق في فترة معينة، أو من خلال قـراءة محدودة لو أمضـى كل وقته ليلاً ونهاراً في القراءة لمـا كانت كافية في تغيير قناعاته بهذه الطريقة، إنما كان غياب (الأناة) السـبب العقلاني الوحيد لتفسير مثل هذه التحولات غير العقلانية.

ضعف الأناة يفتح على الإنسـان ركام التأثيرات النفسية، فيكـون المؤثر الأقوى ليس البحث عن الحق ولا ميزان العدل، بل هو الحالة النفسـية التي يعيشـها، بمـا تدفعه دفعاً إلى تصورات كلية قطعية بشـكل سـريع مع قصـور ظاهر في استيعاب الفكرة، أو تعميمها، أو التدقيق في دلائلها.

الأناة من العقل، وكلما زاد الإنسان في عقله وإدراكه قوي تريثه وطال تفكيره، وحين تمضي هذه الشـبهات والإشكالات في النفس سـريعاً، فما ذاك إلا لقصور في العقل والإدراك ولو كان صاحبها يتغنى بالعقل ويتيه فرحاً بامتيازه عن الناس به، فالعقل ليس مادة نظرية أو حالة شعورية نفسية، بل العقل هو الإدراك، ولا إدراك من دون أناة وتريث.

الأناة تسـتدعي التفكير الطويل، والاستشارة، والموازنة، وحينها سـيضع الإنسـان المسـألة في وضعهـا الطبيعي، وسـيتعامل مع الإشكال والشبهة بشـكل موضوعي صحيح،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٧)، ومسلم برقم (٢٦٨٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٠٣)، ومسلم برقم (٢٨٧٦).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

وستبدو غالب هذه الشـــبهات أموراً يجهلها الإنسان ويسعى لتعلّمهـــا.. نعم، قد يصل الشـــخص بعد هذا كله إلى أن تؤثر فيه هذه الإشكالات وتغيّر مساره، غير أن هذا سيكون نادراً، بعد أن يكون قد استقر على بيّنة من أمره.

مـــن العقـــل والإدراك أن يفقه الإنســـان أن فهم الأفكار وتقويمهـــا لا يكفي فيه مجرد التغنـــي بالعقل والثقة المطلقة بالنفس، والشعور بالاستقلال والتفرد، إلى آخر هذه المظاهر التي تتجمل بالشكل العقلي وهي من أبعد ما يكون عن العقل، بل إدراك الأفكار وتقويمها كثيراً ما يحتاج إلى وقت كافٍ حتى يتمكّن عقل الإنسان من اتخاذ الموقف الصحيح، وهذا يعني أن يتريث الشخص في أفكاره فلا يجزم بها إلا بعد زمن كافٍ أو بلوغ مرحلة عمرية معينة.

أعـــرف جيداً أن هـــذا الكلام في زمـــن التباهي بالعقل والاســـتقلال يبدو منفراً وغير جذاب لفئة شبابية تشعر أنها مؤهلة للحكم على كل شـــيء، وليســـت بحاجة مع عقلها إلى شـــيء، لكن من العقل والإدراك أن يحـــزم العاقل عقله حتى يكون عقلاً وليس حالة شعورية!

الأناة فـــي تلقي الأفكار تعطي العلم قيمته ومكانته، وهي أن يكون لدى الشـــخص قراءة واسعة ومعرفة جيدة بالموضوع قبل أن يحســـم خياراته فيهـــا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [**الإسراء**: ٣٦].

مـــع الأناة يســـتطيع الشـــخص أن يوازن بـــين القضايا المعروضـــة بين ناظريه، فيعرف المصالح والمفاســـد، ثم يوازن بينها، ثم يوازن بين الخيرين فيختار أخيرهما، وبين الشـــرين فيدفع أشـــرهما، وهي مســـتوى عالٍ من الإدراك والوعي لا يمكـــن أن يصل إليها من يبادر بكتابـــة الفكرة قبل مرور ٢٤ ساعة من استقراره في رأسه!

الموازنة في الإشكالات تجعله يميّز بين الأصل والإشكال، فإن ورد عليه إشـــكال جزئي على أصل كلي متقرر لديه، فمن العقل أن لا يهدم الأصل لوجود إشـــكال عـــارض عليه؛ لأن الإشكال في هدم الأصل سيكون أعظم، بل أن يحفظ الأصل كما هو، ويبقى هذا الإشـــكال شـــبهة يبحث عن حلها، فمن ينظر في بناء متماســـك ويجد فيه خدوشاً معينة أو رسومات لم يفهم الحاجة إليها، فليس من الأناة والعقل أن يلغي الحاجة لهذا البناء نظراً لوجود هذه الملحوظات الجزئية!

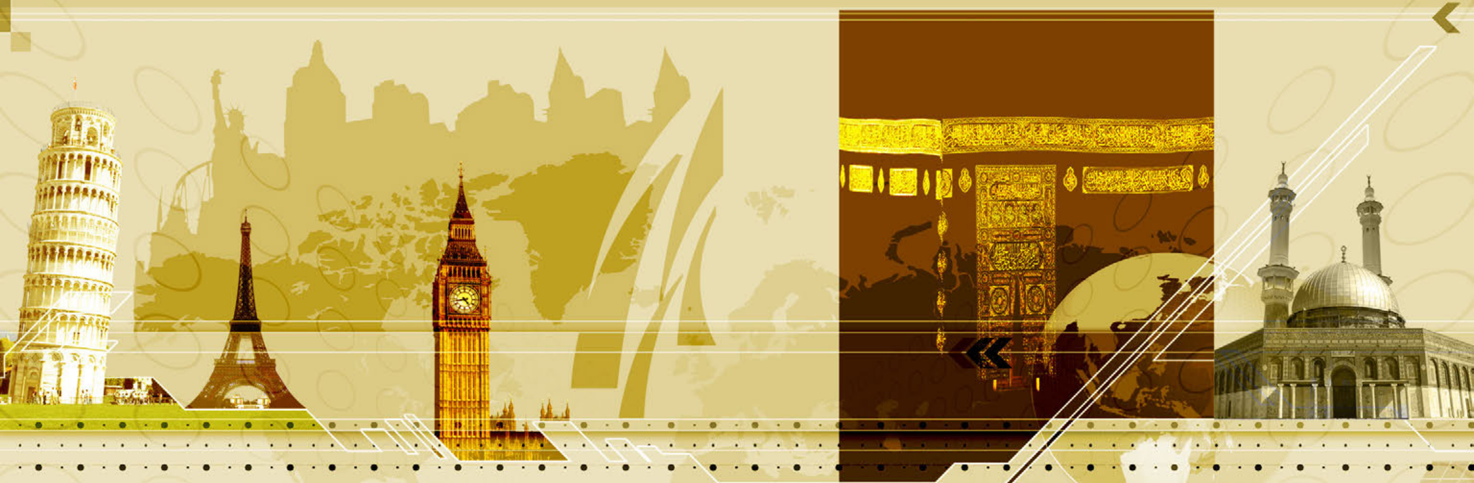
حالُ كثيرٍ من هذه الإشـــكالات أنها مطرقة تكسر المناعة لدى قلوب بعض الشـــباب فيكون قابلاً لأي تحول، ليس لقوة هذه الشـــبهة، بل لانكســـار النفس وضعفها، ولو كان ثمّ أناة وعقل في معاملة هذه الأسئلة لعادت النفس لوضعها الطبيعي فتعاملت مع الســـؤال بشـــكل واعٍ منطقي، وربما فعلاً تستمر الإشـــكالية حتى مع الأناة، لكن بعد أن يكـــون قد تأثر فعلاً بالسؤال وليس بالحالة النفسية التي أحدثتها المطرقة.

إن خلق (الأناة) هو ســـيد الضمانات الفكرية التي تعصم المســـلم من الانحـــراف، فالعوارض التي تأتي مع الشـــبهات تعمل في نفس الإنســـان أشد مما تعمله هذه الشبهة نفسها، فالحقيقـــة أن الذي حـــرك التحولات ليس (الســـؤال)، إنما الحالة النفســـية التي كانت مع السؤال، وأكثر شيء يشعل نار هذه الحالة النفســـية هو العجلة، وأعظم ضمانة للصيانة من ضررها هو في الأناة.

ومـــن أعظم ما تثمـــره الأناة: الدعاء، فالقضية ليســـت مســـائل يتعامل معها بمنطق رياضي، إنما هي نفس متقلبة، فيها أهواء وشـــهوات ورغبات، ويعتريها نقص ونسيان، وتؤثر فيها الضغوط والمتغيّـــرات، فليس بالضرورة أن يكون ما تراه عقـــلاً هو العقل فعلاً، بل ربما تكون هي الأهواء والشـــهوات التي تحســـبها عقلاً، وهنا تأتي الحاجة إلى الالتجاء إلى الله ومناجاته والصدق في الانطراح بين يديه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [**العنكبوت**: ٦٩]، ولهـــذا كان من دعاء النبي ﷺ: (اللهـــم رب جبرائيل وميكائيل وإســـرافيل، عالم الغيب والشـــهادة، أنت تحكم بين عبادك فيمـــا كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشـــاء إلى صراط مستقيم).

يا الله ما أعظم أن تســـتخير الله وتطلـــب هدايته فيما أشـــكل عليك وما اختلف فيه الناس، إنـــك تعترف بنقصك وضعفك وأهوائك، وتلتجئ إلى من بيده مقاليد كل شـــيء.. موقـــف عظيم لن يعرفه إلا ذوي الأناة، حري به أن يهدي إلى الحـــق وأن يعصم من الفتن، وحري بمن اعتمد على نفســـه وعقله وقصوره أن يكل إليها فلا يجد إلا الخذلان والاضطراب ومخالفة العقل.

[المسلمون.. والعالم]



حقيقة الصراع في معركة استكمال الثورة المصرية
د. تامر بكر

الحوثي.. ذراع إيران في خاصرة الخليج
إعداد: محمد الأحمدي ومصطفى حسان

الوحدة أم الانفصال.. خلاف العلماء وعدل الشريعة
أنور بن قاسم الخضري

سدُّ النهضة.. بين سيناريو المؤامرة وجدوى التنمية
عمرو عبد البديع

الطائفية التي أرهقت لبنان
أحمد أبو دقة

مرصد الأحداث
عمرو عبد البديع

حقيقة الصراع في معركـــــ



■ د. تامر بكر

المتابع للحركات الإصلاحية التي حققت إنجازاً حقيقياً عبر تاريخ المسلمين، يجد أن هناك سُنّة قد جرت عليها، وهي حتمية الصدام بين الحق والباطل، ليتحقق في النهاية قول الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]؛ **ولذلك فمسألة التدرّج المحسوب في الإصلاح والتغيير هي في حقيقتها عند الإسلاميين[١] واقعة تحت واقع فقه الاستضعاف في التوازن بين المطالب المتعددة، وتحقيق الحق المتاح ليكون وسيلة إلى الحق المطلوب؛ بحيث إن هذا التدرج ليس إلا نوعاً من تأجيل الصدام حتى تمام الاستعداد أو التقليل من خسائره إذا جاء قدر الله وعُجِّل به.**

(١) أعني منهم الإخوان بالذات، بصفتهم المتصدرين للمشهد.

ــــة استكمال الثورة المصرية

والمتابع لمســيرة ثورة يناير المصرية الشعبية والتي لم يكن لها قائد مُحدّد وشــارك فيها مُجّمل الشعب المصري (المسلم وغيره، البَرّ والفاجر)، ولم يرفع الإســـلاميون المشاركون فيها أي شــعارات إسلامية؛ تخوفاً من ســحقها؛ المتابع يجد أنها تعرضــت لمراحل تصفية عديدة؛ فخرج منها كل من شــارك فيها من النصارى والعلمانيين والليبراليين والنفعيين، وعملاء الخارج المســتترين، وتمت تصفية الثورة منهــم، فلم يبقَ مَنْ يُدافع عنها حقيقة إلا الإسلاميون والمواطنون الشرفاء الذين هم بالجملة يحبون الإسلام ولا يُعادون فكرة شموله؛ لتتحول تلك الثورة في آمال الإســـلاميين - وإن لم يعلنوا ذلك - إلى حركة إصلاح إسلامية لتطبيق شرع الله.

ولذلك؛ فلا عجــب أن نجد تلك الفئات التي خرجت من الانتساب للثورة - وإن ادّعت غير ذلك - بعدما وجدوا أنفسهم خارج دائرة التأثير في قرارات الثورة نتيجة فشلهم عدة مرات في إقناع الناس بآرائهم واختياراتهم عبر آليات الديمقراطية التي كثيراً ما دعوا للاحتكام إليها وأجهدوا أنفســهم لإقناع قطــاع عريض من الإســـلاميين بقبولها - بعــد الرفض - كآلية ســلمية لتداول الســلطة؛ لا عجب أن ينقلبوا على تلك الديمقراطية التي تسبّبت في تبيان أنهم براجماتيون وليسوا ديمقراطيــين؛ حيث كانوا يتوهّمون أن الثــورة طالما لم ترفع شعارات إســـلامية فهي ليبرالية علمانية! وأن الديمقراطية ســتأتي بهم لسُــدّة الحكم، ونظراً لأن ذلك لم يحدث، فقد تحالفوا مع بقايا المُفســدين من النظام السابق ومن يُحركهُم (الأمريــكان)؛ مُعلّلين فعلهم بأن الثورة قد سُــرِقت منهم! ما يدعوهم لثورة ثانية لإسقاط الحكم الإسلامي (كما يعتبرونه).

إن المُتأمــل بدقة فيما يحدث في مصر يرى أن المســألة ليست مواجهة في زمان ما ومكان ما بين علمانيين وإسلاميين، بل الموضــوع أكبر من ذلك بكثير.. إنها قضية تنحية التحاكم إلى الإســلام في مصر منذ ما يقرب مــن مائتي عام.. إنها الحيلولة دون رجوع شعوب هذه المنطقة إلى منهج خالقها!

فمن شــعارات الثورة: الحرية، أي: حرية الشــعوب في اختيار قاعدة نظامها السياسي الذي ستُحكم به، ولا شك أن الشعوب ستختار القرآن والسنة، ونجاح الإسلاميين في مصر معناه - بســبب مكانتها - انتهاء وجود الغاصب الصهيوني[1] وعودة الخلافة الإســـلامية - ولو بصــورة معاصرة -، وهذا الســبب كفيل بأن يجعل التحالف ضد نجاح الإسلاميين موتاً أو حياة.

ويقودنا ذلك للقول بأن إشــكالية المتحالفين ضد مصر ليســت في نجاح أو ما يحســبونه فشــل كلٍّ مِنَ الرئاسة والإســـلاميين عموماً فــي إدارة البــلاد؛ لأن الحديث عن الفشــل وســط الـ (٢٥) مليونية التي خرجــت على مدار عــام كامل تطالب بإســقاط الرئيس، ابتــداء من مليونية (٢٠١٢/٨/٢٤م)، وانتهــاء حتى الآن بـــ (٢٠١٣/٦/٣٠)، وكذلــك العديد مــن المحاولات الفاشــلة للعصيان المدني، وآلاف الإضرابات والمطالبات الفئوية، والاعتداء المُسلّح على القصر الرئاسي والتخطيط لاقتحامه! ومحاولات الاعتداء بالقتــل والحرق لممتلكات الإســـلاميين الخاصــة! وأزمات

(١) نشر مركز بحوث الأمن القومي في جامعة تل أبيب، يوم الجمعة ٣٠ (مايو) ٢٠١٣م، تقريراً استراتيجياً (للعامين ٢٠١٢ - ٢٠١٣) حول (مستقبل السلام بين إسرائيل ومصر) في ظل حكم الإخوان، أعده (أفرايم كام)، ومن أهم ما جاء في هذا التقرير أن المركز توصّل لخلاصة مفادها: أن الرئيس مرسي «يُفرّغ حالياً اتفاق السلام من مضمونه تدريجياً»، وأن «علاقات السلام بين مصر وإسرائيل ستكون مختلفة في فترة حكم الإخوان عما كانت عليه في فترة حكم مبارك» (الكنز الاستراتيجي)، وأن عدداً من التغييرات طرأت على طبيعة العلاقات بين القاهرة وتل أبيب في ظل حكم الرئيس مرسي؛ «فقد أصبح النظر إلى إسرائيل في الخطاب العام في مصر أكثر عداءً؛ ولا يجري الرئيس مرسي محادثة مباشرة مع إسرائيل، ويُشَكُّ في أن يجريها في المستقبل؛ وتطالب أصوات كثيرة في مصر بتعديل اتفاق السلام».

تخـــص الأمن القومي، مثل: (أحداث بور ســـعيد، اختطاف الجنود، والميــاه)، وكل ذلك تحت وطـــأة القذف الإعلامي المُمَنْهج الذي يُســـيِّس كل مشكلة تحدث، ليُهَجِّم من خلالها على الرئيس! (حادثة أطفال أسيوط نموذجاً)؛ ذلك الحديث عن الفشل هو حديث ظالم متغافل عن الحقائق، فالحصاد يحتـــاج للزراعة أولاً، ومصر الآن فـــي مرحلة الزراعة التي تسبق الحصاد بإذن الله.

ومما يمكن الاســـتدلال به على أن محاولات إسقاط حكم الإســـلاميين في مصر ليس له علاقة بأي نجاح أو فشل، ما يمكن أن نفعله من اســـتخدام أســـلوب المقاربة السياسية مع مـــا يحدث الآن في تركيا، فقد خرج العلمانيون هناك مؤخراً مطالبين بإســـقاط النظـــام الحاكم بعد مـــا حققه أردوغان وحكومته من تقدم اقتصادي مبهر لشـــعبه! مستغلين محاولة تجديد ميدان (تقســـيم)! وما ذلك فـــي الحقيقة إلا لاعتزام الحكومة إصدار قانون لبيع الخمور ابتداء من العاشرة مساء حتى السادســـة صباحاً! ما يعني عندهم على مستوى الفهم البســـيط للحدث تدرّجاً في منع الخمور، ويعني على مستوى الفهم العميق للحدث توجُّهاً أكثر لتطبيق الإســـلام وأحكامه، وابتعاداً عمّا تسمى العلمانية الجزئية.

إن المسألة لو كانت متعلقة حقاً بالفشل أو حتى التصلّب في عدم تلبية بعض مطالب المُتحالفين ضد الإسلاميين في مصـــر (إقالة النائب العام نموذجاً)! لمـــا وجدناهم مُتَّخذين مواقف عداءٍ مبدئية مِنْ كل مَنْ يتم تعيينه من الإسلاميين في أي منصب من مناصب الدولة (المحافظون نموذجاً)، ولرأينا نوعاً من الإنصـــاف في رؤية الأمور، فيُقـــال - مثلاً - إن هناك ضعفَ خبرةٍ أو صعوبة أو حتى تعثراً في إدارة الدولة! أمَـــا وأنَّ في الأمر هوىً متبعاً؛ فإنهم يقفزون على المقدمات باستباق النتائج، ويُلصقون الفشل بالإسلاميين من أول أيام حكمهم! ولو افترضنا جدلاً أن الإسلاميين فاشلون في إدارة الدولـــة؛ فإن ذلك الفشـــل لا يعني أولئـــك المتحالفين بقدر ما يعنيهم استغلاله؛ فيســـتغلون المعاناةَ اليومية للمصريين، واشـــتياقهم في الوقـــت ذاته لنتائج إصلاحية ســـريعة، مع فقدانهم الصبر، وغلبة الميل للإحباط عليهم، وعدم تحمّلهم الثمن الاجتماعي لذلك التغيير الســـريع المنشـــود، واتساع بعض المشـــاكل التراكميـــة الموروثة لمرحلة مـــا قبل الثورة، (الوقود مثالاً)، والتراجع الحادث بســـبب الثورة، وسوء إدارة العســـكر في المرحلة الانتقالية (انخفاض العُمْلَة مثالاً)، مع وجود بعض الأخطاء الحقيقية للإسلاميين في الإدارة والتي يفرضها الواقع السيئ؛ يستغلون ذلك كله للترويج لفكرة فشل الإسلاميين لدى المواطنين البسطاء؛ الذين استجاب بعضهم للفكرة الخطأ التي صُدِّرت لهم، بل جعلوها منظاراً يرون به كل الأمور ولو كانت إيجابية!

إن إشـــكاليتهم الحقيقية هي وجود حُكّام يدعون لتطبيق الإسلام واقعاً في الحياة، فمجرد تلك الدعوة تزعجهم، حتى لـــو جاءت من مُـــدّعٍ أو كاذب أو مراوغ أو موهوم أو فاشـــل، وحتـــى لو كانت دعوةً للتطبيق بتـــدرج، وحتى لو لم يظهر لها أي واقـــع عملي حتى الآن؛ لأنهـــم لا ينظرون تحت أقدامهم، بل يستشرفون المســـتقبل إذا ما اســـتقر أمر الحُكم حقيقةً للإسلاميين.

إنهم يخافون الإسلام الشامل لنواحي الحياة، ويريدونه إســـلاماً محصوراً في العبادات الفردية، أو التقدم المادي، ولا شـــأن له حقيقة بإدارة الحياة وتحرير الشعوب وريادة العالم.

إن عـــودة الخلافة تعني منازعة الأمريـــكان في ريادتهم للعالم وتحكّمهم فيه بأسلوبهم النفعي اللاقيمي، ولذلك فقد عمدوا للتعامل مع وصول الإســـلاميين للحكم في مصر عبر السير في أربعة خطوط متوازية[(١)]، يُحرّكون من خلالها الأمور كلها من خلف الستار، وهي:

١ - عدم إظهار العداء؛ حفاظاً على المصالح الآنية.

٢ - محاولة منع الإسلاميين من تحقيق إنجازات ملموسة على الأرض، بتعطيل تحركاتهم لجذب الاستثمارات خارجياً، ورفع فاتورة مقاومة الفساد داخلياً، عن طريق سكب الأموال السياسية.

٣ - محاولة فَضّ التفاف جميع الإسلاميين حول الرئيس، عن طريق افتعال أحداث ممنهجة مســـتفزة للإســـلاميين[(٢)]، بحيث يكون الرئيس مسؤولاً عنها بصفته الحاكم.

٤ - محاولة قلب نظام الحكم عن طريق ثورة شـــعبية، أو

(١) يمكن التعرف على الفكرة المجردة لتلك السياسة من خلال مقالي: (سياسة الخطوط المتوازية ومقاومة نشر التشييع)، والمنشور على موقع جريدة (المصريون)، بتاريخ ٩/٣/٢٠١٣م، على الرابط التالي:
http://www.almesryoon.com/permalink/105186.html.

(٢) مثل التعامل الأمني السيئ مع كل مَنْ تعرض للتحقيق في أي قضية من الإسلاميين.

الدفع في اتجاه انقلاب له تأييد شعبي، مستخدمين أدوات عدة في ذلك، وعلى رأسها الآلة الإعلامية الضخمة التي أنشؤوها مباشرة بعد الثورة بأموال الشعب المنهوبة.

ولقد واجه الرئيس المنتخب ومن يسانده من الإسلاميين، تلك السياسة الأمريكية بسياسة مضادة، بها هي أيضاً عدد من المسارات المتوازية، وهي:

١ - عدم إظهار العداء، مع عدم إظهار الولاء، ومحاولة التقليل من أسباب التبعية المصرية لأمريكا، والتي تؤثر سلباً في استقلالية القرار السيادي المصري[١]، ما جعل (أوباما) يحدد الموقف من مصر بعد أشهر من فوز الرئيس؛ بأنها ليست حليفاً وليست عدواً[٢].

٢ - محاولة تحقيق إنجازات ملموسة على الأرض، بعضها على المدى القريب، وبعضها على المدى المتوسط، والبعض الآخر على المدى البعيد، والتي وإن كانت كلها بالجملة بطيئة متمهّلة، إلا أنها ثابتة في تقدمها[٣] (مشروع محور تنمية قناة السويس نموذجاً للمدى البعيد).

٣ - محاولة المحافظة على التفاف الإسلاميين حول الرئاسة على قدر الإمكان، عن طريق التواصل المستمر مع العلماء والشيوخ، وإطلاعهم على حقيقة الأوضاع، ومحاولة استيعاب الاختلافات، والتأكيد على إسلامية المشروع من حين لآخر.

٤ - التصدي لمحاولات الانقلاب على الشرعية، فلقد أجاد الإسلاميون توزيع الأدوار، فعمدوا - في تحليلي - إلى تفزيع الأمريكان من استبدال تجربة الإخوان بتجربة على غرار النموذج الأفغاني[٤].

٥ - وقد تزامن ذلك كله مع محاولات جادة لتفكيك الدولة العميقة التي تركها نظام المخلوع[٥]، والتي يمتطيها الغرب لمواجهة الثورة بها، والتي اتضح توغّلها وتغوّلها لدرجة أن حجمها أصبح بحجم الدولة المصرية ذاتها! ما يجعل التخلص منها دفعة واحدة مستحيلاً؛ لأن هذا سيقوّض الدولة ذاتها.

ولقد تصارعت السياسات الأمريكية المتوازية، مع تلك السياسات المضادة لها من قِبَل الإسلاميين، وحقق كل منهما نجاحات وإخفاقات نسبية في كلا الحالين، وإن كان الإسلاميون في النهاية وحتى الآن هم المتقدمون بالجملة - مع عدم استسلام عدوهم لإخفاقاته المتتالية -؛ إلا أن هذا التقدم ليس نابعاً من السياسات المضادة المُتّبعة بقدر ما هو نابع بحول الله وقوته من تدبير الله لعباده المستضعفين[٦]، وذلك (الحال الميتافيزيقي)[٧] هو ما يفتقده المُتحالفون ضد الإسلاميين، بل لن يستطيعوا أن يتفهّموه أو حتى يبصروه؛ لأنه لا يملك لهم أحد مفتاح الضوء الذي يبصرون فيه حقائق ما يلي من الآيات الكريمات، وإن عَلِمَ بعضهم معاني ألفاظها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

---

(١) من مظاهر ذلك: تنويع مصادر السلاح المصري (زيارة الهند وباكستان)، ومحاولات فتح آفاق تعاون جديدة لمصر (زيارة البرازيل، والصين، وروسيا)، والتوجه نحو الاكتفاء الذاتي من القمح، وإعادة تشغيل بعض المصانع المتوقفة.

(٢) موقع مفكرة الإسلام، بتاريخ ١٣/٩/٢٠١٢م، على الرابط التالي:
http://www.islammemo.cc/akhbar/Amer - can/2012/09/13/155603.html.

(٣) للدكتور رفيق حبيب، دراسة بعنوان (بتمهّل لكن بثبات، استراتيجية الرئيس)، يمكن للقارئ الاطلاع عليها، وهي منشورة بتاريخ ٢/٦/٢٠١٣م على الرابط التالي:
http://ar.scribd.com/doc/145216354/%D8%A8%D8%AA%D9%85%D9%87%D9%84- %D9%84%D9%83%D9%86-%D8%A8%D8%AB%D8%A8%D8%A7%D8%AA.

(٤) يمكننا هنا عرض نموذجين فقط لذلك:
- حصار الشيخ حازم أبو إسماعيل وإخوانه في حركة حازمون مدينة الإنتاج الإعلامي، إبان محاولات اقتحام القصر الرئاسي، وتهديده بإعلان دولة إسلامية من داخلها.
- إعلان الشيخ عاصم عبد الماجد وإخوانه في الجماعة الإسلامية، تصديهم لأي عنف إبان تظاهرات ٣٠/٦/٢٠١٣م.

(٥) للتعرف على استراتيجية الرئيس في تفكيكها، يُنظر دراسة د. رفيق حبيب (مَنْ يسقط النظام؟)، وهي منشورة بتاريخ ٢/٢/٢٠١٣م على الرابط التالي:
-٨٦٪D٩٪٨٥٪D٩٪/١٢٥٨٦١٦٣٨/http://ar.scribd.com/doc
٪٨٦٪D٩٪٨٤٪D٩٪A٧٪D٨٪-B٧٪D٨٪٨٢٪D٩٪B٣٪٨A٪D٨٪D٩٪
.٩F٪D٨٪٨٥٪D٩٪A٧٪D٨٪B٨٪D٨

(٦) لعل ذلك لأن الإسلاميين بالجملة في مصر هم أفضل الموجودين نسبياً، فلقد اصطفى الله بني إسرائيل وخصهم بالأنبياء في فترة زمنية؛ لأنهم كانوا بالجملة أفضل الموجودين، وظل ذلك قائماً حتى انتقلت النبوة منهم إلى نبي الرحمة محمد ﷺ.

(٧) المقصود بالميتافيزيقا الأمور الخارجة عن الطبيعة المادية للأشياء.

الحوثي..
ذراع إيران في خاصرة الخليج



إعداد: محمد الأحمدي ومصطفى حسان

مع بزوغ فجر التغيير في اليمن، حضرت جماعة الحوثي بشكل ملفت على الساحة الإعلامية، مستفيدة من الأموال الإيرانية، وراءها عديد من تجار الكلمة أو ممن اضطرتهم ظروف المعيشة الصعبة وغياب الوازع الديني والأخلاقي إلى البحث عن الرفاهية بأي ثمن، ليصبحوا أبواقاً يعملون تحت رايتها، وقلماً يعبّر بلسانها. ومع ذلك لم تكتفِ جماعة الحوثي بالإعلام كوسيلة سلمية للتعبير عن أفكارها، أياً كان حجم الكذب والتضليل الذي دأبت عليه الجماعة، بل استمرت في التعبير عن نفسها أيضاً من خلال السلاح والعنف، فكانت تحاور في يد وتحمل السلاح باليد الأخرى.

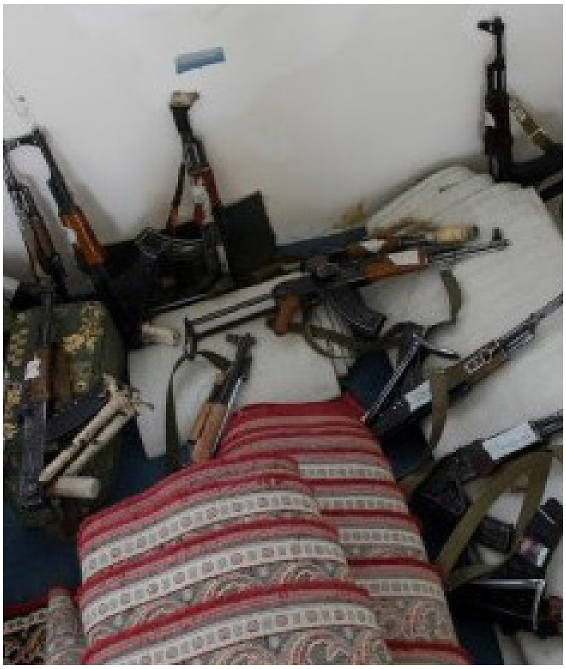


رحلة التسلح

قبل أن تعلن جماعة الحوثي التمرد المسلح عام ٢٠٠٤، كانت قد أعدّت العدة، وتجهّزت عسكرياً، فلم يكن ذلك التمرد من باب الصدفة، بل تنفيذاً لخطة مدروسة واستراتيجية التقت عندها طموحات الجماعة بالوصول إلى سدة الحكم في اليمن، ومطامع إقليمية تتمثل في إنشاء ذراع عسكرية لإيران في خاصرة السعودية، على غرار حزب الله اللبناني في خاصرة بلاد الشام.

ورغم عديد من اتفاقيات التهدئة بين الدولة والحوثيين، التي تنص على ضرورة تسليم جماعة الحوثي الأسلحة والمعدات التي استولت عليها من مواقع الجيش(١)، بما في ذلك اتفاق الدوحة في فبراير ٢٠٠٨؛ إلا أن الجماعة سرعان ما كانت تنقلب على تلك الاتفاقيات، عند الوهلة الأولى من الشروع في تنفيذها، مؤكدة تمسّكها بالسلاح، بل تسارع إلى استغلال فترات الهدنة مع الدولة لمزيد من التسلح وشنّ مزيد من الهجمات على مواقع الجيش والاستيلاء على مزيد من الأسلحة والمعدات، وهو ما كشفته بوضوح أحداث الحرب السادسة التي اندلعت مطلع أغسطس ٢٠٠٩ عندما بدت الجماعة من خلال أدائها القتالي أكثر قوة من ذي قبل، فبعد أيام من اندلاع المواجهات البرية تمكّن مقاتلوها من الاستيلاء على مواقع عديدة بعتادها الحربي الثقيل والمتوسط، وهو ما أكدته أفلام الفيديو التي بثها الحوثيون أنفسهم على مدى أسابيع، معلنين حينها أن تلك "الغنائم"، كما يسمونها، ستكفيهم لسنوات من القتال وحرب الاستنزاف(٢).

غير أنه في السياق ذاته استمر تدفق الأسلحة الإيرانية إلى الحوثيين، فقد أكد الخبراء العسكريون أن صواريخ الكاتيوشا التي استخدمها الحوثيون في الحرب السادسة هي من ذات النوعية التي سبق لحزب الله اللبناني استخدامها، معتبرين أن ظهور مثل تلك الصواريخ لدى الحوثيين قد كشف وبالدليل القاطع عن التمويل الكبير الذي تتلقاه جماعة الحوثيين من إيران وحزب الله والبؤر الشيعية في المنطقة. كما تؤكد المصادر أنه تم تهريب صواريخ الكاتيوشا إلى اليمن



من خلال رحلات بحرية عبر إريتريا ضمن أسلحة أخرى من بينها صواريخ أرض جو محمولة على الكتف.

وكانت تقارير دولية قد أشارت في وقت سابق إلى قيام إيران بإنشاء قاعدة لها في إريتريا لمدّ الحوثيين بالسلاح عبر رحلات بحرية إلى المناطق القريبة من سواحل ميناءي ميدي واللحية القريبين من صعدة. وحذرت تلك التقارير من انتقال نشاط تهريب الأسلحة الإيرانية من البحر الأحمر إلى السواحل الجنوبية لليمن. وهناك أنباء تشير إلى قيام السفن الإيرانية في منطقة خليج عدن بحجة المساهمة في مكافحة القرصنة، إضافة إلى سفن تجارية إيرانية؛ بتهريب كميات من الأسلحة عبر قوارب صيد يمنية لتهريبها إلى داخل اليمن.

لقد كان لافتاً لكثير من المراقبين أنه في أعقاب اتفاق الدوحة أُعلن عن تشكيل عديد من لجان الوساطة المكلّفة بالإشراف على تنفيذ بنود الاتفاق، تحت مسميات عدة، فمن لجان مفاوضات إلى رئاسية وبرلمانية وسياسية وإشرافية ووطنية والسلام والوساطة... وغيرها، تعددت وتباينت مهامها من إقناع الحوثي بتسليم نفسه وتنفيذ اتفاق الدولة وتهدئة موجة العنف السائدة وإحلال السلام في صعدة... إلى غير ذلك، غير أنه كان للفشل نصيب أوفر منها، والنهاية لتلك اللجان إما إقالة أو استقالة! الإثارة ليست في ذلك، إنما في تلك الأسماء التي لطالما أنيط بها القيام بتلك المهمة

(١) موقع التغيير نت، نص اتفاقية الدوحة بين الحكومة والحوثيين
http://al-tagheer.com/news844.html.

(٢) مجلة الرأي الآخر، صعدة في نسختها السادسة: حسم نهائي أم حرب طويلة؟

دوماً، خاصة والحوثي لا يثق بسواها، فهي من تمده بالسلاح والعتاد، ما جعل البعض يتساءل عن سر اعتماد السلطة في اليمن حينها على تُجّار الحروب في مهمة إحلال السلام بصعدة؟!(١).

ظلت القوة العسكرية لدى جماعة الحوثي تنمو مع مرور الأيام، حيث أشارت بعض الدراسات إلى أن الجماعة باتت تملك - في الوقت الراهن - ترسانة كبيرة من الأسلحة، يصعب الحصول على إحصائيات دقيقة بشأنها، نظراً للتكتم الذي تتبعه الجماعة. وأفادت دراسة حديثة بأن قوة الحوثيين العسكرية تقدر بحجم اثنين من الألوية العسكرية المتوسطة من حيث مستوى التسليح، مشيرةً إلى أن جماعة الحوثي تمتلك نحو ١١ دبابة معظمها من نوع (تي ٥٢)، إضافة إلى عدد من المدافع بعيدة المدى كمدافع (الهوزر)، ومدافع الهاون، أغلبها من نوع (بي ١٠)، وكميات كبيرة من الذخائر والقذائف التي استولوا على معظمها من مخازن ومعسكرات الجيش خلال حروبهم الست الماضية مع الدولة. وقالت الدراسة إن الحوثيين يمتلكون العديد من صواريخ الكتف والكثير من الرشاشات، وأسلحة أخرى مختلفة(٢).

استفادت جماعة الحوثي بشكل كبير من تاجر السلاح المعروف فارس مناع، ويعدّ أكبر تاجر سلاح في اليمن، وأحد أعضاء لجان الوساطة التي أشرنا إليها قبل قليل، وقد دفعت به جماعة الحوثي لتولي منصب محافظ صعدة خلال الاضطرابات التي شهدتها المحافظة عام ٢٠١١م، ولم يصدر حتى الآن قرار رئاسي بتعيين مناع محافظاً لصعدة، غير أنه، بحسب باحثين متخصصين بهذا الشأن، مجرد أداة من أدوات الحوثي.

تتواصل الأعمال لتشغيل مطار صعدة وإنشاء شركة طيران تابعة للحوثيين، الأمر الذي يرى فيه مراقبون أنه يشكّل خطورة بالغة على الأمن القومي اليمني، باعتباره سيفتح جسراً جوياً إلى الحوثيين ومهربي الأسلحة في المحافظة الخارجة عن سيطرة الدولة(٣)، وحتى يكتمل الحلم بوجود منفذ لجماعة الحوثي، ليكون حلقة وصل بين طهران والجماعة، دون وجود مراقبة مشددة من قبل جهاز الأمن الذي حرمهم الكثير من الصفقات، باعتبار أن محافظة صعدة أصبحت تحت سيطرتهم. وبدأت الأمور تتضح واللبس بدأ يتجلى مباشرةً بعد زيارة فارس مناع الأخيرة لمطار صعدة، الخميس ٢٦ أبريل ٢٠١٣، عندما تحدث عن تكلفة مالية ضخمتها الحكومة لتجهيز المطار قُدّرت بمليار ومائتي مليون ريال، مضيفاً أن المطار أصبح شبه جاهز لاستقبال الرحلات الداخلية والخارجية، وحثّ الجهات المعنية على استكمال اللمسات والتجهيزات الأخيرة للمطار.

وأضافت المصادر أن هدف فارس مناع من إعادة تأهيل المطار هو عقد صفقات سرية يتم بموجبها إمداد جماعة الحوثي بما تحتاج إليه من سلاح وعتاد، خصوصاً بعد تنبّه قوات خفر السواحل اليمنية للسفن الإيرانية القادمة من إيران والتي كان آخرها «جيهان ١». واستغربت تلك المصادر تسخير الدولة كافة الإمكانات والموارد لتجهيز مطار في محافظة خارجة عن حظيرة الدولة ولا تخضع لسلطتها، خصوصاً في هذه المرحلة الخطيرة التي تشهد فيها البلاد بكلها انفلاتاً أمنياً غير مسبوق، والذي بدوره سيكون عاملاً ميسِّراً لأي مشاريع أو أجندات تقدم عليها الجماعة لوحدها أو بأيادٍ خارجية للإضرار بأمن اليمن والخليج بشكل عام، أقلها استخدام المطار حلقة وصل مباشرة مع إيران(٤).

صفقات الأسلحة

استمرت وتيرة الرغبة في التسلح بشكل مخيف طيلة السنوات الماضية، وبشتى الوسائل والسبل، وزادت وتيرتها عقب الحروب الست التي كانت الجماعة تدّعي أنها تدافع من خلالها عن نفسها، كما لو أنها تتجهز لحرب اقترب موعدها، حتى صارت أغلب شحنات الأسلحة التي تضبطها الأجهزة الأمنية تكون جماعة الحوثي هي صاحبة المقام الأول والمالك الوحيد للشحنة، وفيما يلي عرض موجز بأبرز شحنات الأسلحة التي كانت في طريقها إلى الحوثيين:

- أكتوبر ٢٠٠٩م: أعلنت السلطات اليمنية احتجاز سفينة إيرانية في البحر الأحمر بالقرب من السواحل اليمنية، تحمل

(١) تُجّار السلاح.. وسطاء للسلام! النهايات المتجانسة لمسيرة لجان الوساطة بين الدولة والحوثيين، صحيفة حديث المدينة.

(٢) حجم القوة العسكرية للحوثيين، ماجد الجرافي، كتاب تحت الطبع (الحوثيون من الدفاع التكتيكي إلى السيطرة والتوسع الاستراتيجي).

(٣) يمن برس: الأمن القومي يكشف مسدسين بحوزة محافظ صعدة فارس مناع في طريقه لتركيا قبل صعوده الطائرة.

(٤) مأرب برس: مصادر تكشف المستور وخفايا مؤامرة تجهيز مطار صعدة.

أسلحة للمتمردين الحوثيين، منها مضادات للدروع وعدد من الأسلحة المختلفة. وذكرت معلومات اعتقال ٥ إيرانيين كانوا على متن السفينة المحمّلة بالأسلحة[١].

- أغسطس عام ٢٠١٢م: أفاد مصدر خاص لبعض وسائل الإعلام بأن قوات تابعة للجيش اليمني ضبطت شحنة أسلحة في أحد مداخل محافظة تعز، كانت محمّلة بـ ١٨ ألف قطعة سلاح مهرّبة، خفيفة ومتوسطة، في طريقها إلى محافظة صعدة. كما وصلت ٥ حاويات محمّلة بالأسلحة إلى جيبوتي قادمة من إيران عبر البحر الأحمر[٢].

ولم تتوقف الهدايا الإيرانية عند هذا الحد، بل كانت السفينة «جيهان ١»، التي تم ضبطها في شهر يناير من عام ٢٠١٣م؛ الأكثر خطراً والأكبر حمولة للسلاح، فقد فاقت الـ ٤٠ طناً من الأسلحة بمختلف أنواعها.

وكانت عديد من القوى السياسية في اليمن قد دعت قبل انعقاد مؤتمر الحوار الوطني، جماعة الحوثي إلى تسليم أسلحتها قبل الولوج إلى الحوار، غير أن شيئاً من ذلك لم يتم، بل ارتفعت شهية التسلح لدى الحوثي، في ظل الظروف التي مرت بها اليمن ابتداءً من عام ٢٠١١ حتى اللحظة، حيث عمدت الجماعة لاستغلال الاضطرابات الأمنية التي تمر بها اليمن، "للتزود بمعدات وأسلحة قادمة من إيران كما أشارت إلى ذلك عديد من وسائل الإعلام"[٣].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ففي تصريح لصحيفة "الشرق الأوسط" اللندنية، أفاد مسؤول يمني رفيع بأن "جزر البحر الأحمر اليمنية تحوّلت في الآونة الأخيرة إلى مخازن للأسلحة المهربة"، والتي قال إن إيران تسعى إلى إدخالها إلى الحوثيين في محافظة صعدة شمال البلاد، فيما أكد ازدياد نشاط تهريب الأسلحة عن طريق تجار لم يسمّهم إلى اليمن، ونقل بعضها من اليمن إلى دول الجوار. وذكر المسؤول اليمني أن ورشاً كثيرة تم بناؤها في محافظة صعدة لإعادة تجميع بعض الأسلحة التي تأتي من دول مثل إيران.

التوسّع وحلم السيطرة

لم تكن ترسانة الأسلحة التي جمعتها جماعة الحوثي مجرد إشباع لرغباتها في التسلح واستعراض القوة، أو للردع؛ بل لا تزال تستخدمها باستمرار متى ما سنحت لها الفرصة للتوسع وفرض نفوذها على مناطق جديدة في البلاد، لا سيما في المواقع الجغرافية القريبة من محافظة صعدة التي باتت تحت سيطرتها بشكل كامل، وقد ازداد نشاطها التوسعي منذ الأشهر الأولى من انطلاق الثورة الشبابية مطلع عام ٢٠١١، التي أطاحت برأس النظام السابق.



(١) مأرب برس: احتجاز سفينة إيرانية تحمل سلاحاً للمتمردين الحوثيين بالقرب من ميناء ميدي.

(٢) مأرب برس: قوات تابعة للجيش تضبط ١٨ ألف قطعة سلاح مهربة كانت في طريقها إلى صعدة.

(٣) أخبار اليوم: يشاركون في الحوار بأسلحتهم على جثث آلاف القتلى الأبرياء والانتهاكات الصارخة.

حظيت محافظتا الجوف ومـأرب باهتمام كبير من قبل الجماعة؛ كون مأرب الشريان النفطي لليمن، ونظراً لاتصالها بالحدود السعودية، حيث تحرّكت مجاميع حوثية لمحاولة إسـقاط محافظة مأرب وضمها إلى صعدة، لتتسـع بذلك رقعة النفوذ والتحكـم؛ لكن ذلك لم يتحقق للجماعة؛ لقلة القبائل المتعاطفة مع الفكر الذي تعتنقه الجماعة هناك.

أمـا محافظة الجوف فقد شـهدت مواجهـات دامية بين جماعة الحوثي وقبائل وأعيان تلك المحافظة استمرت قرابة ثلاثة أشهر، أثناء ثورة الشـباب السلمية، ففي الوقت الذي كانت فيه عناصر الحوثي في السـاحات تعبّر عن الوجه السـلمي الزائف للجماعة، كانت العناصر الأخرى ضمن المليشـيات المسـلحة للجماعة تعمل على الجانب الآخر في تطبيق ثقافة العنـف والقتل والتدمير على أرض الواقع.. لكن نُقل عن قيادي حوثي القول إن جماعة الحوثي خسرت في حربها مع قبائل الجوف ما لم تخسـره في حروبها السـت مع الدولـة، وكان أبرز من سقطوا في تلك المواجهات هما شـقيق عبدالملك الحوثي ونجل يحيى بدر الدين الحوثي[1].

فـي أعقاب الخيبة التـي مُنيت بها الجماعة وفشـل مخططاتها بالسـيطرة على الجوف، غيّـرت وجهتها لتبحث عن فريسـة أخرى، فتحركت غرباً نحو مديريات محافظة حجة، الممتدة على ساحل البحر الأحمر، في محاولة لإخضاع قبائل المرتفعات الجبلية المحاذية لسـهل تهامة لتسـهل السـيطرة على ميناء ميدي الاسـتراتيجي على ساحل البحـر الأحمر، بهدف أن تكون بذلـك قد أمّنت خطوط إمداداتها من الاحتياجات الاقتصادية والعسكرية.

فـي واقع الأمر لم يكن ميناء ميـدي هدفاً للجماعة بحد ذاته في توسـعها غرباً، بـل كان مجرد محطة للوصول إلـى أهداف أخرى لا تقل أهمية عنه؛ فإذا اسـتطاعت أن تسيطر على ميناء ميدي وإخضاع القبائل التهامية لنفوذها، فإنها بذلك سـتتحرك بكل حرية إلى ميناءي الصليف والحديدة، باعتبارهما اثنين من أهم الموانئ البحرية اليمنية.. ولهذا السـبب تنبّه عدد من أعيان ومشائخ الحديدة، فعقدوا اجتماعاً بتاريـخ ٢٠ مايو ٢٠١٣ لتدارس كيفية إيقاف المدّ الحوثي في مناطقهم، خصوصاً بعد أن قامت الجماعة بالسـطو بالقـوة على بعض المزارع والأراضي المطلة على السـاحل بعد أن رفض أصحابها بيعها للحوثيين رغم المبالـغ الطائلة التي عرضوها عليهم، محاولين إغراءهم بها، دون جدوى.. فالحوثيون منذ عامين يشترون كل الأراضي المحاذية للساحل بأضعاف أسـعارها الحقيقة لإغراء البسطاء من أهالي المنطقة، وفي حال رفض أصحاب الأراضي البيع فإنهم يستولون عليها بقوة السلاح.

(١) أحمد عايض، محرقة الحوثيين في اليمن، ضمن كتاب لمجموعة من الباحثين تحت الطبع (الحوثيون من الدفاع التكتيكي إلى السيطرة والتوسع الاستراتيجي).

مسلّحو الحوثي في سورية

تسير جماعة الحوثي على ذات الخطى التي يسير عليها حزب الله اللبناني، بل ربما استمدت خططها وتكتيكاتها من قيـادة حزب الله، الأمر يبدو واضحاً حتى من خلال التسمية التي أطلقتها الجماعة على نفسها أخيراً بـ "أنصار الله"، على غرار "حزب الله"، رغم أن التسـمية التي ظهرت بها الجماعة منذ التسـعينيات كانت "الشـباب المؤمن"، وهي حتى اللحظة ترفض الانخراط في العمل السياسـي، وتفضّل البقاء كما هي عليه، جماعة مسـلحة. وتتدرب قيـادات حوثية على أيادي خبراء من حزب الله اللبناني، وكانت إيران تمـد الحوثيين بكثير من الخدمـات، بلغت هذه الخدمات ذروتها في عـام ٢٠٠٩ عندما أقامت معسـكرات تدريبية لأعضاء حوثيين في إرتيريا، حيث كشف بشـير إسحاق، مسـؤول العلاقات الخارجية في التحالـف الإريتيري المعارض، عن وجود معسكر تدريب لعناصر من أنصار الحوثي بدعم وإشـراف إيراني، في منطقة دنقللو (شرق مدينة قندع وسط إريتريا).

عندما سـارع حزب الله بإرسـال قواته إلى سورية لدعم بشار الأسد، الذراع الأخرى لإيران، وقتال الثوار؛ فإن الحوثي لم يقف مكتوف الأيدي، فقد أفـادت مصادر متطابقة بـ "أن نحو ٢٠٠ شـاب حوثي غادروا اليمن منتصف مايو الجاري للقتال في صفوف نظام بشار الأسد في سورية". وأوضحت أن بين هؤلاء ممن تم تجنيدهم مؤخراً غادروا إلى لبنان ومن ثم سـينتقلون إلى سورية ضمن ترتيبـات خاصة للانضمـام إلى ما بات يطلق عليهم "شـبيحة الأسد". وقالت مصادر إن رئيس المكتب السياسـي للحوثيين، صالح هبرة، التقى الشباب قبيل سفرهم لتوديعهم، وفي اللقاء أبلغهم تحيات "السـيد" عبدالملك الحوثي. يأتي ذلك فيما كانـت تقارير صحفية قد تحدثت قبل فترة عن قيام عناصر من الحوثيين بتجنيد بعض

الشباب مقابل مبالغ مالية كبيرة، وإرسالهم إلى سورية لدعم "شبيحة" بشار الأسد. وأشارت المعلومات إلى أن الحوثيين يقومون بعملية اســتقطاب واسعة للشباب، ويجندونهم مقابل مبالغ مالية كبيرة، ويرسلونهم إلى سورية بذريعة الدراسة في الجامعات. ونقلت وكالة "آكي" الإيطالية للأنباء عن مصدر دبلوماسي عربي رفيع المستوى القول إن أعداداً غير قليلة من الحوثيين اليمنيين قدموا إلى ســورية وتركزوا في جنوبها الغربي استعداداً للقتال. وأشــار إلى أن هؤلاء تطوّعوا للقتال لأسباب عقائدية ومالية بتشجيع من إيران.

مجرد تصريحات لا غير

على غرار المثل العربي الذي يقول: "نسمع جعجعة ولا نرى طحيناً"، يظهر أن الحكومة اليمنية تكتفي بالتصريحات وتوجيه أصابع الاتهام إلى الأطراف المتورطة بزعزعة الأمن اليمني، وترى ذلك هو العقاب الذي تستحقه تلك الجهات. كان آخر هذه التصريحات في لقاء وزير الخارجية اليمني، أبو بكر القربي، مع صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٧ مايو ٢٠١٣، عندما قال: "إن نتائج التحقيق الذي قام به أخيراً فريق من مجلس الأمن حول شحنات الأسلحة التي دخلت اليمن، أكدت تورط إيران في عمليات تهريب الأسلحة والمتفجرات"، مبيناً "أن إيران عوضاً عن أن تمدّ يد العون والمدد لأشقائها في اليمن، قامت بإرسال الأسلحة وشبكات التجسس".

وما يثير العجب أنه عدا المحاكمات الغامضة لشبكات التجسس التي أعلنت السلطات اليمنية ضبطها والعصابات المتورطة في تهريب الأسلحة الإيرانية إلى اليمن؛ لم تحرك أيّ من الجهات الرسمية في اليمن ساكناً تجاه هذه النتائج، بينما تستمر التصريحات المنسوبة لمصدر حكومي يمني بأن "السفير الإيراني يدير خليةً إرهابيةً تستهدف الدبلوماسية السعودية ومصالحها في اليمن". وكشف المصدر عن أن غرفة العمليات المشتركة لمكافحة الإرهاب - وفقاً لتقارير أمنية - تتعقب خلية إرهابية مسلحة تابعة لجماعة الحوثي تعمل على تنفيذ مخطط تخريبي لزعزعة الأمن والاستقرار، يتضمن هذا المخطط، وفقاً لذات المصدر الحكومي، "تنفيذ عملية اغتيالات"[1].

تجدر الإشارة أيضاً إلى ما تناقلته مواقع التواصل الاجتماعي والمواقع الإخبارية خلال الأيام الماضية عن تورط جماعة الحوثي في استهداف الطائرات اليمنية وإسقاطها فوق العاصمة صنعاء، وقتل الطيارين، كان آخرها في شهر مايو من عام ٢٠١٣، وهو ما أفصح عنه أيضاً المدعو "طامح"، على تويتر، في حوار خصصه مع متابعيه البالغ عددهم ٨٠ ألفاً، من مختلف الدول العربية، تناول علاقة جماعة الحوثي باغتيال الطيارين اليمنيين وسقوط الطائرات، حيث قال "طامح" بأن "المسؤول الرئيسي في سقوط الطائرات في اليمن هو جماعة الحوثي عبر تيار الرئيس اليمني السابق علي عبدالله صالح المتمكن في عمق المؤسسة العسكرية، والقوات الجوية"، مشيراً إلى أن "الجماعة تستغل المرحلة لتصفية بعض الطيارين الوطنيين ولنية الجماعة دخول حرب سابعة".

ومع كل هذه الجرائم لا تزال الحكومة اليمنية تلتزم الصمت تجاه كل ما يحدث، وتغضّ الطرف عن ممارسات الحوثي الخارجة عن القانون والدستور والأعراف، كما تبدو دول الجوار كذلك غير آبهة بهذه الذراع الإيرانية التي يشتدّ عودها يوماً إثر آخر، وتتمدّد باستمرار، ويزداد خطرها بازدياد حالة الصمت المحلي والخذلان الإقليمي.



الوحدة أم الانفصال..

خلاف العلماء وعدل الشريعة

■ أنور بن قاسم الخضري

أصبحت قضية الوحدة والانفصال مثار خلاف بين علماء ودعاة اليمن نتيجة الواقع الذي آل إليه حال كثير من أبناء الجنوب، ومن مختلف الأطياف، من المطالبة بفك الارتباط أو الانفصال أو تقرير المصير. وأصبح الحوار الدائر بين بعضهم يأخذ منحى البغي والبهتان؛ ذلك أن كل طرف من الأطراف يتمسّك بجملة مشتركة يريد منها بعضاً من الحق، ويرفض في المقابل جملة المخالف المشتركة استناداً لما فيها من الباطل.. وهكذا يصبح تأويل الكلام وحمله على غير محمله والطعن في النوايا، هو سيد المشهد. والمؤسف أن يذهب البعض في هذه المسائل - التي مدارها النظرة للواقع أو توصيفه أو تحليله كما هو - إلى إقحامها في مفاهيم الشريعة واصطلاحاتها، وقد يكون منشأ ذلك الجهل في تصور الفوارق في هذه الأمور، أو الالتباس عليه فيها، أو نوع هوى ينزع بالمرء إلى التسلح بدثار الدين والفقه وإظهار الغيرة والحمية عليها!

لذلك يقول ابن تيميـــة – رحمه الله تعالى – وهو يتناول بعض ما جرى في مســـائل العقيدة والشريعة من خلاف، أي وهـــو يتحدث عن الخلاف في الألفاظ والمصطلحات الدخيلة في هذا الشـــأن، لا عن أمور لا صلة بها بهـــذا الميدان: «إن المناظـــرة بالألفاظ المحدثة المجملـــة المبتدعة المحتملة للحق والباطـــل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئاً، وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشـــتراك الأســـماء، وفي ذلك من فساد العقل والدين ما لا يعلمه إلا الله.. فإذا رد الناس ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة، فالمعاني الصحيحة ثابتـــة فيهما، والمحق يمكنه بيان مـــا يقوله من الحق بالكتاب والســـنة، ولو كان الناس محتاجين في أصـــول دينهم إلى ما لم يبيّنه الله ورســـوله، لم يكن الله قد أكمل للأمة دينهم، ولا أتم عليهم نعمته، فنحن نعلم أن كل حق يحتاج الناس إليه في أصول دينهم لا بد أن يكون مما بيّنه الرســـول، إذ كانت فروع الدين لا تقـــوم إلا بأصوله، فكيف يجوز أن يترك الرســـول أصـــول الدين التي لا يتم الإيمان إلا بها لا يبيّنها للناس؟»[1]. فملاحـــظ أن ابن تيمية يؤصّل فقط ما يحتاج إليه الناس في أصول دينهم، مما تنازعوا فيه، فهذا مما يوجب فيه الرد إلى الكتاب والسنة، كونه يستحيل أن لا يكون الرسول قد بيَّنه وقد بيَّن الفروع!

«فالنِّـــزاعُ اللَّفظي» – كما يقول ابن تيمية ذاته – «لا يَضُرُّ إلَّا إذا خُولِفَت أَلفَاظُ الشَّـــرِيعَةِ»[2]، فإذا لم يكن في الشَّريعة ما يُخالفُ ذلك، لم يكـــن للنزاع ما يبرره إلا اختلاف وجهات النظر، فلا داعي لتلبيسه لبس الشرع والدين.

وهؤلاء الجامحون كثيراً ما ينازَعُون في الأَلفَاظ المُجمَلَة، «وقَد قِيلَ أَكبَرُ اختِلَاف العُقَلَاءِ من جِهَة اشتِرَاك الأَسمَاءِ»[3]، فـــإنَّ «ممَّا كَثُرَ فِيه نزاعُ النَّاسِ بِالنَّفي وَالإثبَات إذَا فُصِّلَ فيهَا الخِطَابُ ظَهَرَ فيها الخَطَأُ من الصَّوَاب. والوَاجبُ على الخَلق أَنَّ مَا أَثبَتَهُ الكِتَابُ والسُّنَّةُ أَثبَتُوهُ، ومَا نَفَاهُ الكِتَابُ والسُّنَّةُ نَفَوهُ، ومَا لم يَنطِق بِهِ الكِتَابُ والسُّـــنَّةُ بلا نَفيٍ ولا إثبَاتٍ استَفصَلُوا فِيهِ قَولَ القَائِل، فمَن أَثبَتَ مَا أَثبَتَهُ اللهُ ورَسُـــولُهُ فَقَد أَصَابَ، ومَن نَفَى مَا نَفَاهُ اللهُ ورَسُولُهُ فَقَد أَصَابَ»[4]. و«معرفة اللغات والعـــرف الـــذي يخاطب بها كل مخاطب مـــن أهم ما ينبغي الاعتناء به في فهم كلام المتكلمين وتفســـيره وتأويله ومعرفة المراد به؛ فإن اللغة الواحدة تشـــتمل علـــى لغة أصلية وعلى أنواع من الاصطلاحات الطارئة الخاصة والعامة، فمن اعتاد المخاطبة ببعض تلك الاصطلاحات يعتقد أن ذلك الاصطلاح هـــو اصطلاح أهل اللغة نفســـها، فيحمل عليـــه كلام أهلها، فيقـــع في هذا غلط عظيم، وقد قيـــل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء»[5]. و«من تكلم بلفظ يحتمل معاني لم يُقبَل قولُهُ ولم يُرد حتى نستفســـره ونستفصله حتى يتبيّن المعنى المراد، ويبقى الكلام في المعاني العقلية لا في المنازعات اللفظية، فقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشـــتراك الأسماء، ومن كان متكلماً بالمعقول الصرف لم يتقيد بلفظ، بل يجرد بأي عبارة دلت عليه»[6].

وهنا يأتي التســـاؤل عن الوحدة اليمنيـــة القائمة اليوم، والتي نشـــأت عام ١٩٩٠م بين حزبين حاكمين، هل هي وحدة إسلامية.. فيجب التزامها وعدم الخروج عليها؟ أم هي وحدة سياسية – حققت مقصداً شرعياً – لكنها ليست هي الوحدة الإســـلامية التي يعتبر الخارج عليها باغياً أو خارجياً مفارقاً للجماعة وميتته ميتة جاهلية؟

والإسلاميون على هذا مذاهب:

– فريق يراها وحدة سياســـية حققت مقصد الاجتماع، وإن شـــابها ما شـــابها أثناء قيامها من دستور علماني جرى تصحيحـــه – في نظره – بعد ذلـــك. وعليه فهو يراها وحدة إسلامية شـــرعية المطالبُ بفكها – من أي صنف كان ولأي عذر كان – مُطالبٌ بمحرم يخالف الشـــريعة، ويرى المطالب بفكها جاهلياً وعنصرياً وضالاً، ويسوق فيه كل مذمة! والبعض

(١) درء تعارض العقل والنقل لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – المملكة العربية السعودية، ط٢/١٩٩١م، ج ١/٢٣٣.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، دار الكتب العلمية، ط١/١٩٨٧م، ج ١/٣٩١.

(٣) وهي جملة رددها ابن تيمية – رحمه الله – في كثير من فتاويه ومؤلفاته.

(٤) المسائل والأجوبة، من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية، ومعه (اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية) للحافظ العلامة محمد بن عبد الهادي، مع (ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية) لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي، تحقيق أبو عبدالله حسين بن عكاشة، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر – القاهرة، ط ١/٢٠٠٤م، ج ١/١٤٩.

(٥) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية، تحقيق مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط ١/ ١٤٢٦هـ، ج ٧/٤٠٠.

(٦) درء تعارض العقل والنقل، مرجع سابق، ج ١/٢٩٩.

قد يحكم بحِلِّ دمه للجنـــود باعتباره داعي فتنة، وربما أجاز قتاله فيما لو قامت حرب مســـلحة بـين النظام وأطراف في الجنوب[1].

– فريق يراها وحدة سياســـية بالأمـــر الواقع، وهي وإن لم تكن نظاماً إســـلامياً شرعياً، إلا أنها تظل صورة من صور الاجتمـــاع والتآخي، وفيها تحقيق لبعـــض مصالح الناس من ناحيـــة؛ لكنه يرى أن الداعي إلى فكهـــا داعٍ إلى فتنة دهماء، خاصـــة مع ما يرافق ذلك من التحريش والتحريض على أبناء الشمال من لغة عنصرية تستند إلى تعبئة مناطقية[2].

– وفريق يراها وحدة سياســـية قامت على أسس سياسية ومصلحيـــة، ولم يراعَ فيهـــا الجانب الشـــرعي لا ابتداء ولا انتهاء[3]. فهي في صورتها هذه ليست فرضاً شرعياً بقدر ما هي مصلحة إذا حققت للناس المصالح والعدل، ومفســـدة إذا فوّتت المصالح وجرّت الظلم؛ فيكون المطالب بحقوقه والراغب في فـــك الارتباط عنها لبناء واقعه، مجـــدداً مطالباً بأمر لا يخالف الشريعة. ويذهب لما أجازه علماء الإسلام – كما نص الجوينـــي في كتابه – من جواز تعـــدد الدول إذا تعذر توحيد الأمة في إمام واحد وكانت مفسدة ذلك غالبة. فكيف والوضع أساساً ليس وضع خلافة أو حكم إسلامي؟!

والمعضلة ليســـت في هذا التصنيف، لكن في العبثية التي يمارســـها البعـــض لتمرير وجهة نظـــره – المحتملة للصواب والخطـــأ – تحت الحق الذي يرفعه لعدم الســـماع إلى وجهة نظر الطـــرف الآخر وتخطئتها إجمـــالاً. وعوضاً عن فكفكة المصطلحات والألفاظ يتم تعويمهـــا وإطلاقها دون تقييد في سبيل إفحام الخصم باسم الاجتماع المأمور به شرعاً والوحدة الإسلامية.

فالفريق الأول يتهـــم الفريق الثالث بأنه لا يؤمن بالوحدة الإســـلامية، وأنه يدعو لتمزيق اليمنيين، هكذا بإطلاق ودون إيضاح لوجهة نظره كما هي عليه، ومن ثَمَّ يجيز لنفسه وصف المخالـــف بالنعوت التي تنفر عنه: بغاة، خوارج، عملاء، خونة! والوصف ليس لجهات غير إســـلامية، بـــل لإخوة في المنهج والمسار والهدف أحياناً.

(١) وهذا الفريق يتمثل في بعض علماء الشمال ودعاته، بمن فيهم بعض الذين وقفوا إلى جانب حرب عام ١٩٩٤م.

(٢) وهو فريق له حضور في الشمال والجنوب على حد سواء، وإن كان صوته في الجنوب خافتاً وحضوره أقل.

(٣) انظر مثالاً: رؤية حركة النهضة (الجنوبية) الشرعية لقضية الوحدة. وهي تستند في ذلك إلى فتوى علماء اليمن عام ١٩٩٠م بعدم جواز الوحدة في حينه؛ كونها وحدة على دستور علماني. وهذا التوجه كثير في علماء ودعاة الجنوب.



والفريـــق الثاني وإن كان أقل حدة في مواقفه من الفريق الأول تجـــاه الفريق الثالث، لكنه يـــرى أن هذا الفريق جاهل وغير واعٍ ومُضلل. والفريق الثالث يتهم الفريق الأول بالتلبيس والمداهنة وخدمة الظلمة والفاسدين والنظر لمصالح فريق دون آخر. وهكذا فإن كل فريق يطعن في الآخر بما يعزز من إقناع الناس بمواقفه، فيغيب منطق التعقل والحوار والتفاهم.

و«غلط هؤلاء وأمثالهم كان من جهة اللفظ المشترك، وقد قيل إن أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، والله تعالى ورسوله إذا خاطب عباده باسم مشترك كان مقروناً في كل موضـــع بما يبيّن المراد به، كما في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًـــا لِّلَّهِ﴾ [النحـــل: ١٢٠]، أي قدوة للناس يؤتم به أو يقتدى به؛ وفي قوله: ﴿وَادَّكَـــرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوســـف: ٤٥]، أي قرن وزمان». و«إذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل.. وأمثالها مما كثـــر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فُصِّل فيها الخطاب ظهر الخطأ من الصواب».

فالوحدة التي يتمسّك بها الطرف الأول وينزل عليها حكم الخوارج والبغاة والميتة الجاهلية، ليســـت هي الوحدة القائمة حقيقة، وإذا لم تكن كذلك فإن اصطحاب الأحكام الشـــرعية عليها هو من باب الزور على الشـــارع، وإن كان المقصد طيباً والمـــراد خيراً. وليس من الإنصـــاف والعدل القول بأن الآخر يرفض الاجتماع الشـــرعي والوحدة الإسلامية لكونه يرفض الاجتماع والوحدة في صورتهما السياسية القائمة.

كما أن التفكك الذي يســـعى إليه الطرف الآخر ليس من الدين في شـــيء، ولا ينبغي إلباسه لباســـاً شرعياً؛ لأن مراد الشـــارع الاجتماع بأي شـــكل كان، وفي أي صورة كانت؛ لأن اجتماع أهل الإســـلام خير لهم ولو لـــم يكن ذلك في خلافة إسلامية أو نظام حكم إسلامي.. فلا ينبغي إنكار هذا المقصد الشرعي لمجرد معارضته للهوى والمطامع. وليس من الإنصاف والعدل إنـــكار ما يقعون فيه من إثـــارة النعرات والعصبيات المناطقيـــة للوصول إلى حق دنيوي، مـــع ما توجبه من النفرة والبغضاء.

لكن قد يقال: إذا كان هذا الاجتماع، في صورته الواقعية، لم يحقق مقصد الشارع، بل كان فيه من المفاسد ما يغلب المصالح؛ فما الحكم فيه؟! وهل يجوز التخلي عنه حفاظاً على الأخوّة العامة وإن لم تتوافر صورة الاجتماع السياسي؟!

والظاهر من استقراء نصوص الشريعة هو أن مضرة التخلي عن الاجتماع تحتمل فيما لو كانت مفسدة الاجتماع تربو عليها، فيكون الاجتماع صورياً (تراهم جميعاً وقلوبهم شتى). وهذا في كل اجتماع بين اثنين وأكثر، ولأي صفة كانت.. فالشراكة في المال، أو التعاقد على العمل، أو التحالف لمصلحة، أو الاجتماع في وطن أو سكن أو زواج؛ إذا لم تحقق الغاية المرجوة منها، ولم تقم على العدل والرضى بين الأطراف؛ لم يوجب الشارع التزامها مطلقاً، بل أوجد لها من المخارج في حال تعذر العلاج ما يجعل الحياة تستقيم بين الناس حتى مع فك الارتباط.

وهنا أنقل كلاماً نفيساً لابن تيمية - رحمه الله تعالى - وهو يتحدث عمَّا جرى بين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - من القتال، وهو كلام يحتاج إليه أهل العلم إذا أرادوا التجرد للحق والبحث عن الصواب والوصول إلى العدل.. يقول - رحمه الله: «وهذا مذهب أهل الحديث وعامة أئمة السنة حتى قال الإمام أحمد: لا يختلف أصحابنا أن قعود علي عن القتال كان أفضل له»[1]، ثم يقول بعد أن يؤكد تنازع السلف والخلف في هذه المسألة: «ولأجل هذه النصوص لا يختلف أصحابنا أن ترك علي القتال كان أفضل؛ لأن النصوص صرحت بأن القاعد فيها خير من القائم، والبعد عنها خير من الوقوع فيها. قالوا: ورجحان العمل يظهر برجحان عاقبته، ومن المعلوم أنهم إذا لم يبدؤوه بقتال ولم يقاتلهم لم يقع أكثر مما ووقع من خروجهم عن طاعته، لكن بالقتال زاد البلاء وسفكت الدماء وتنافرت القلوب وخرجت عليه الخوارج، وحكم الحكمان حتى سمي منازعه بأمير المؤمنين، فظهر من المفاسد ما لم يكن قبل القتال، ولم يحصل به مصلحة راجحة. وهذا دليل على أن تركه كان أفضل من فعله، فإن فضائل الأعمال إنما هي بنتائجها وعواقبها»[2]، ثم يضيف: «فقد تكون المصلحة المشروعة أحياناً هي التآلف بالمال والمسالمة والمعاهدة، كما فعله النبي - صلى الله عليه وسلم - غير مرة. والإمام إذا اعتقد وجود القدرة ولم تكن حاصلة كان الترك في نفس الأمر أصلح»[3].

فهذا ابن تيمية - رحمه الله تعالى - يرجح أن الأولى بالصواب هو عدم قتال علي - رضي الله عنه - معاوية - رضي الله عنه -، وبقاء كل منهما على ما تحت يده، مع قيام التآلف والمسالمة، جاعلاً هدي الرسول ﷺ مع أعدائه هدياً للإمام مع مخالفيه[4]، فهو يقول: «ومن رأى أن هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته علم أنه قتال فتنة، فلا تجب طاعة الإمام فيه، إذ طاعته إنما تجب فيما لم يعلم المأمور أنه معصية بالنص، فمن علم أن هذا هو قتال الفتنة - الذي تركه خير من فعله -، لم يجب عليه أن يعدل عن نص معين خاص إلى نص عام مطلق في طاعة أولي الأمر، لا سيما وقد أمر الله تعالى عند التنازع بالرد إلى الله والرسول»[5].

ويستطرد ابن تيمية في تناوله لما جرى فيقول: «وحينئذ فبعد التحكيم والتشيع وظهور البغي لم يقاتلهم علي ولم تطعه الشيعة في القتال، ومن حينئذ ذمت الشيعة بتركهم النصر مع وجوبه، وفي ذلك الوقت سموا شيعة، وحينئذ صاروا مذمومين بمعصية الإمام الواجب الطاعة، وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولما تركوا ما يجب من نصره صاروا أهل باطل وظلم.. فصار حينئذ شيعة عثمان الذين مع معاوية أرجح منهم، ولهذا انتصروا عليهم»؛ و«علي هو من الخلفاء الراشدين، ومعاوية أول الملوك، فالمسألة هي من هذا الجنس، وهو قتال الملوك المسلطين مع أهل عدل واتباع لسيرة الخلفاء الراشدين، فإن كثيراً من الناس يبادر إلى الأمر بذلك لاعتقاده أن في ذلك إقامة العدل ويغفل عن كون ذلك غير ممكن، بل تربو مفسدته على مصلحته»[6].

ثم يعيب على بعض الذين يوظفون الأمر الشرعي لهوى الملوك والحكام، فيقول: «فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقرّ بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم؛ بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة؛ فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض فهذا منشأ

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية، تحقيق عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة النبوية، ١٩٩٥م، ج ٤/ ٤٣٩.

(٢) المرجع السابق، ج ٤/ ٤٤١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) وهو يقول في موضع آخر: «... إن الرسول أخبر بظلم الأمراء بعده وبغيهم ونهى عن قتالهم لأن ذلك غير مقدور؛ إذ مفسدته أعظم من مصلحته. كما نهي المسلمون في أول الإسلام عن القتال، كما ذكره بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]، وكما كان النبي ﷺ وأصحابه مأمورين بالصبر على أذى المشركين والمنافقين والعفو والصفح عنهم حتى يأتي الله بأمره». فهو يرى أن ما فعله الرسول ﷺ مع أعدائه هو من السياسة الشرعية التي تجري في الأمور المتماثلة حتى مع اختلاف الطرف المقيس عليه في صفته الدينية.

(٥) المرجع السابق: ج ٤/ ٤٤٣.

(٦) المرجع السابق: ج ٣/ ٤٤٤.

الفرقــة والاختلاف، ولهذا لما اعتقــدت طوائف من الفقهاء وجوب القتال مــع علي جعلوا ذلك قاعــدة فقهية، فيما إذا خرجت طائفة على الإمام بتأويل ســائغ وهي عنده راســلهم الإمام، فإن ذكروا مظلمة أزالها عنهم وإن ذكروا شــبهة بيَّنها، فــإن رجعوا وإلا وجب قتالهم عليه وعلى المســلمين. ثم إنهم أدخلــوا في هذه القاعدة قتال الصديــق مانعي الزكاة وقتال علي الخوارج المارقين؛ وصاروا فيمن يتولى أمور المسلمين من الملوك والخلفاء وغيرهم يجعلون أهل العدل من اعتقدوه لذلك ثــم يجعلون المقاتلين له بغاة، لا يفرقون بين قتال الفتنة المنهي عنــه، والذي تركه خير من فعله، كما يقع بين الملوك والخلفاء وغيرهم وأتباعهم: كاقتتال الأمــين والمأمون وغيرهما؛ وبين قتال الخوارج الحرورية والمرتدة والمنافقين كالمزدكية ونحوهم. وهــذا تجده في الأصل مــن رأي بعض فقهــاء أهل الكوفة وأتباعهم، ثم الشافعي وأصحابه، ثمَّ كثير من أصحاب أحمد الذين صنفوا باب قتال أهل البغي ونسجوا على منوال أولئك تجدهم هكذا، فإن الخرقي نســج على منوال المزني، والمزني نسج على منوال مختصر محمد بن الحسن، وإن كان ذلك في بعض التبويب والترتيب. والمصنفون في الأحكام: يذكرون قتال البغــاة والخوارج جميعاً، وليس عن النبــي - صلى الله عليه وســلم - في قتال البغاة حديث، إلا حديث كوثر بن حكيم عن نافــع وهو موضوع. وأما كتب الحديــث المصنفة مثل صحيح البخاري والسنن فليس فيها إلا قتال أهل الردة والخوارج، وهم أهل الأهواء؛ وكذلك كتب الســنة المنصوصة عن الإمام أحمد ونحوه. وكذلك فيما أظن كتب مالك وأصحابه ليس فيها باب قتال البغاة، وإنما ذكروا أهــل الردة وأهل الأهواء. وهذا هو الأصل الثابت بكتاب الله وسنة رسوله، وهو الفرق بين القتال لمن خرج عن الشريعة والســنة، فهذا الذي أمر به النبي ﷺ، وأما القتال لمن لم يخــرج إلا عن طاعة إمام معين فليس في النصوص أمر بذلك. فارتكب الأولون ثلاثة محاذير:

الأول: قتال من خرج عن طاعة ملك معين، وإن كان قريباً منه ومثله في الســنة والشــريعة، لوجود الافتراق، والافتراق هو الفتنة.

الثاني: التسوية بين هؤلاء وبين المرتدين عن بعض شرائع الإسلام.

والثالث: التســوية بين هؤلاء وبين قتال الخوارج المارقين من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية.

ولهذا تجد تلك الطائفة يدخلون في كثير من أهواء الملوك وولاة الأمور ويأمرون بالقتــال معهم لأعدائهم بناء على أنهم أهــل العدل وأولئك البغاة؛ وهم في ذلــك بمنزلة المتعصبين لبعــض أئمــة العلم أو أئمة الــكلام أو أئمة المشــيخة على نظرائهــم، مدعين أن الحق معهم، أو أنهــم أرجح، بهوى قد يكون فيه تأويل بتقصير لا بالاجتهاد.

وهذا كثير فــي علماء الأمة وعبّادها وأمرائها وأجنادها، وهو من البأس الذي لم يرفع من بينها.. فنســأل الله العدل؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا به»[1].

فهلا تدارك أهل العلم والإيمان في اليمن خلافهم بعيداً عن اصطحاب أحكام شرعية في غير ما وضعت له، بنوع من الهوى والبغي. فقد باتت قضية الوحدة في الوضع السياسي الراهن لليمن محل تجاذبات ومزايدات ومؤامرات. ومن غير المنطق والعقل أن يدخل الإســلاميون في خلاف فقهي بعيداً عن محور القضية الأهم، ألا وهو ما هي المصالح والمفاســد في بقاء الوحدة على ما هي عليه، أو الانفصال في حال وقع؟

فيما تســعى أطراف أخرى لاســتغلال هذه الحالة من المناكفات والخلافات لزرع مزيد من البغضاء والشــحناء بين هذه الأطراف، بدعم كل طرف في مواقفه المتشــنجة البعيدة عن تفهم الآخر والجلوس إليه.

وإن مما ينبغي ابتداء على أهل العلم في اليمن البُعد عن توظيف الأدلة الشــرعية للأهواء والآراء غير المطابقة للواقع وإن كانــت حقاً في ذاتها؛ فإن هذا التوظيف من قبيل الكذب على الله والافتراق في الدين من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم.

فالمســألة تحتاج إلى مخرج يحافظ على اجتماع القلوب قبل الجغرافيا، وســلامة الدين قبل المصالح، ورعاية الكليات قبل الجزئيات، ومراعاة القدرة والمكنة قبل الأماني الفارغة.. وهذا لا يتم بإنكار الحق والصواب الذي لدى الطرف الآخر، وبعيداً عن لغة الحوار والعقل والإنصاف والعدل معه.

فالواجب التدارس في الأمر والتشاور فيه بين أهل العلم والدعاة والمصلحين من الشــمال والجنوب، بعيداً عن ميدان السياســيين وتأثيراتهم، والإعلام ومماحكاته، والاستناد إلى الأبحاث والدراســات والتحليلات الواقعية المحايدة حتى يتم الحكــم على الأمور بصــدق وتصور صحيــح، لا من مجرد الظنون والسماع وما يحملانه من تهوين أو تهويل.

(١) المرجع السابق: ج ٤/ ٤٥٠- ٤٥١.



سدُّ النهضة..

بين سيناريو المؤامرة وجدوى التنمية

■ عمرو عبد البديع

الأزمات التي تتعلق بالأمن القومي عادةً لا تظهر فجأة، بل تسبقها تراكمات من الإهمال وسوء التقدير والممارسات، إلى أن تصل الأزمة إلى ذروتها، حينها ينتبه صانعو القرار إلى وجود أزمة تهدّد الأمن القومي. ويتجلى ذلك بوضوح في أزمة (سد النهضة) الذي شرعت إثيوبيا في بنائه، وقامت بتحويل مسار النيل الأزرق لاستكماله. كان ذلك بمنزلة صدمة وذعر لدولة المصب «مصر» على المستويين الشعبي والسياسي، حيث المياه تعني أمناً قومياً وشريان حياة، خاصة أن مصر تُعد داخلة في حزمة الدول الصحراوية في شمال قارة إفريقيا وليس لها مصدر مائي غير نهر النيل، واحتياجاتها للمياه تتزايد مع تزايد عدد السكان ومع مشاريع التوسع في الأراضي الزراعية الجديدة، وكذلك حاجتها إلى عدم نقصان الطاقة الكهربائية المُولدة من السد العالي، بل السعي إلى زيادتها، حيث ظهرت مؤخراً أزمة طاقة.

والأزمة ما هي إلا ميراث من سياسات نظام سابق أسقطته الثورة كان قد استبعد الدائرة الإفريقية من دوائر اهتمامات وأولويات السياسة الخارجية المصرية، وترك القارة تماماً لتملأ الفراغ دول أخرى مثل «إسرائيل» والصين وإيران، بل إنه في عام ١٩٩٦ لم يعترض النظام السابق على تمويل البنك الدولي إثيوبيا لإقامة عدد من السدود لتوفير ١٨٠ مليون متر مكعب من المياه تم خصمها من حصة مصر والسودان مناصفة، وكذلك موافقة النظام السابق عام ٢٠٠١ على طلب إثيوبي آخر لبنك التنمية الإفريقية لتمويل عدد آخر من السدود الإثيوبية على نهر النيل.

فالأزمة مركَّبة ونتيجةُ إهمال لملف المياه في حوض النيل لأكثر من ٢٠ عاماً؛ لذلك لا بد للتعامل معها من هذا المنطلق من إيجاد حلول مرحلية وحلول أخرى بعيدة المدى تعالج المشكلة مستقبلاً، ومن ثم لا بد من تصور الأخطار الناتجة عن بناء سد على مجرى رافد يمدّ مصر بـ ٦٠٪ من المياه.

أخطار «سد النهضة» على مصر

أولاً: عجز في نصيب المياه يصل إلى ١٥ مليار متر مكعب من حصة مصر البالغة ٥٥,٥ مليار متر مكعب.

ثانياً: تقليص الرقعة الزراعية بمعدل مليون ونصف المليون فدان.

ثالثاً: تخفيض الطاقة الكهربائية المنتجة من السد العالي بنسبة ٢٠٪.

وقد جاء في تقرير اللجنة الثلاثية لتقييم سد النهضة (المكوّنة من عضوين من مصر والسودان وإثيوبيا وأربعة أعضاء كخبراء دوليين)، بعض الملاحظات، هي:

«فـي ضـوء التعديـلات التـي أُدخلت على تصميم السـد فـي العامين ونصـف العـام الماضي، فـإن التقريـر الحالي خادع جزئياً».

«لم يأخذ التصميم في اعتباره الاحتباس الحراري، ما قد يتسبب في فيضانات».

«لم تقدم معلومات بشأن طبيعة التدفق في اتجاه دول المصب».

«لم تقدم معلومات بشـأن تأثير السـد في الزراعة على جانبي النهر في السودان ومصر».

«أهـم تأثيـر للسـد فيمـا يخص مصـر هو تقليص قدرة السـد العالـي علـى توليـد الكهربـاء بسـبب نقـص الميـاه في بحيرة ناصر».

«وجـود أخطـاء فـي تصميمـات السـد»، وأوصت اللجنـة «بإجـراء تعديلات فـي التصميـم الحالي وتغييـر أبعاد وحجم السـد».

وأوصت اللجنـة أيضـاً «بعمل دراسـات استكمالية للتأكد من سلامة وزيادة معدل أمان السد».

وفي ضوء هـــذا التقرير يتضح أن هنـــاك تعتيماً وغياب شــــفافية من قبل الطرف الإثيوبي حول مشروعه في بناء سد النهضة، إما عن عمد، وإما عن دراســـات غير كافية تعجّلتها إثيوبيا، وفي كلتا الحالتين هذا يدعم «ســـيناريو المؤامرة» بأن هنـــاك أطرافاً خلف المشـــروع تعمل على تركيـــع مصر مائياً ومحاصرتها، وهذا الطرف بالطبع «إسرائيل»، وسبق وقد كان لها دور في انفصال جنوب الســـودان، وبمشـــروع سد النهضة تكون محاصـــرةُ مصر قـــد اكتملت من حيـــث تضييق البُعد الاســـتراتيجي وتهديد مصادر الطاقة والمياه، لا سيما أنه كان هناك تعجّل في بناء الســـد رغـــم التقرير الذي تم تقديمه من الشركة الإيطالية الاستشارية، حيث أقرّت باستحالة بناء السد لاندفـــاع المياه بقوة ٧٣ مليار متر مكعـــب في المكان الذي كان مقرراً إقامته فيه، ثم جاءت فكرة من مهندس إسرائيلي باختيار مكان آخر، حيث سيتم نسف ثلاثة جبال لإمكانية تحويل مجرى النيل، فجاء التقرير من الشـــركة الإيطالية مرة أخرى بإمكانية بناء الســـد، لكن لن يســـتمر لأكثر من خمس سنوات، وبعدها ســـينهار، ووافقت إثيوبيا ومن ورائها إسرائيل؛ لأن هذا يعني تقليص الرقعة الزراعية المصرية بنســـبة ١٢,٥٪ ســـنوياً، ما سيؤثر في الأمن الغذائي المصري طيلة الخمس سنوات.

وهناك سيناريو آخر وهو «الحاجة الفعلية للتنمية»، وهذا الســـيناريو يفترض أن إثيوبيا تُعد مـــن دول المنبع لنهر النيل وأنها لا تستطيع استغلال ذلك بشكل يدعم التنمية من خلال توليد طاقة، حيث التنمية تحتاج إلى طاقة متجددة ومستمرة، وأن ســـد النهضة يعد مشـــروعاً قومياً كما كان السد العالي بالنسبة لمصر، كما أن مطالبة إثيوبيا ودول المنبع بإعادة توزيع حصص المياه ليســـت جديدة، بل هي موقف ثابت منذ حقبة حكم هيلا سيلاســـي حتى الآن، وكذلك الموقف المصري ثابت منذ الحقبة الناصرية بعدم التنازل عن قطرة ماء حتى الآن.

ولذلك تعتـــرض إثيوبيا علـــى اتفاقيـــة ١٩٢٩، واتفاقية ١٩٥٩ التي كانت بين مصر والســـودان وكانت امتداداً وتكملة للاتفاقيـــة الأولـــى التي تنص على حق مصـــر في الاعتراض على أي مشاريع ري وســـدود تهدد بنقصان نصيبها من المياه، وأن لها حـــق «الاعتراض»، وكذلك تؤكد حقوق مصر الطبيعية والتاريخية لهذه المياه. ورفض إثيوبيا هذه الاتفاقيات مبني على أن منها ما كان مع المستعمر، وأخرى كانت بين مصر والسودان ولم تكن إثيوبيا طرفاً فيها، وهذا لا يجعلها ملتزمة بأي حقوق أو اتفاقيات، بجانب أنه ليس هناك حقوق تاريخية بين شـــعب مصر وإثيوبيا، ومن ثم لجأت إثيوبيا إلى إنشاء اتفاقية جديدة مـــع دول حوض النيل؛ ففي مايو ٢٠١٠ كانت اتفاقية «عنتيبي» فـــي أوغندا، حيث تنص على إعادة تقســـيم حصص المياه بين دول حوض النيـــل، وقد وقعت على الاتفاقية دول حوض النيل باســـتثناء مصر والســـودان، والاتفاقية تعني انتهاء الحصص التاريخية لمصر والسودان والاســـتخدام المنصف والعادل (من وجهة نظر إثيوبيا) لمياه نهر النيل بين دول حوض النيل.

سيناريوهات الحل

أولاً: الحل التفاوضي

وهذا ما صرّح به الدكتور عصام حداد، مستشار الرئيس المصري للعلاقـــات الخارجية، حيث قـــال: (إن مصر تتبنى توجهاً جديداً لإعادة بناء العلاقات المصرية - الإثيوبية يعتمد اقتراباً متعدد الأبعاد ويرتكز على مبدأ الشـــراكة في التنمية، وإن توجه السياسة الخارجية المصرية ينصرف إلى محاولات التفاهم المســـتمر مع إثيوبيا حول كيفية إدارة مشـــروع السد من خلال قضايا فنية عديدة تشمل المواصفات الهيدرولوكية

للسد بما فيها معاملات الأمان اللازم توافرها فيه، وخطة الملء والتشغيل المناسبة التي لا تؤدي لتضرر المياه المتدفقة، واشتراك الخبراء المصريين في لجنة إدارة وتشغيل السد).

ثانياً: مشاريع بديلة لزيادة حصة مصر من المياه

مشروع نهر الكونغو، حيث يسمح باستغلال جزء من فاقد نهر الكونغو الذي يصل إلى ١٠٠٠ مليار متر مكعب سنوياً يُلقى في المحيط الهادي، وهو عبارة عن إنشاء قناة حاملة بطول ٦٠٠ كيلو متر لنقل المياه إلى حوض نهر النيل عبر جنوب السودان إلى شمالها، ومنه إلى بحيرة ناصر. المشروع يوفر لمصر ٩٥ مليار متر مكعب من المياه سنوياً توفر زراعة ٨٠ مليون فدان تزداد بالتدرج بعد ١٠ سنوات إلى ١١٢ مليار متر مكعب؛ ما يصل بمصر إلى زراعة نصف مساحة الصحراء الغربية، إضافة إلى أن المشروع يوفر لمصر والسودان والكونغو طاقة كهربائية تكفي أكثر من ثلثي قارة إفريقيا بمقدار ١٨ ألف ميجاوات.. والمشروع يعترضه بعض العقبات ويمكن العمل على حلها.

أو مساعدة إثيوبيا على بناء سد آخر أصغر حجماً لتوليد الكهرباء دون أن يقلص من حصة المياه الخاصة بمصر، وأن توقع إثيوبيا مع مصر على اتفاقية بعدم الإضرار بحصة مصر من مياه النيل.

كما أن أساتذة الري والموارد المائية أوصوا باتباع سياسات تُرشّد من أسلوب الري، مثل الالتزام بكل خطط ترشيد استخدام المياه، سواء نظم الري أو الالتزام بالتركيب المحصولي، خاصة المحاصيل الشرهة للمياه، مثل الأرز وقصب السكر، وهناك أيضاً بعد التجارب نجد أن تطوير الري الحقلي في زراعات قصب السكر يوفر على الأقل من ١٥ إلى ٢٠٪ والمياه المستخدمة.

ثالثاً: الحل القضائي

إذا فشلت المفاوضات بين مصر وإثيوبيا فإنه سيتم اللجوء إلى وسائل أخرى، مثل عرض الأمر على مجلس السلام والأمن الإفريقي لإيجاد تسوية إفريقية، ثم اللجوء في نهاية الأمر إلى محكمة العدل الدولية، وهذا هو السيناريو المطروح في الاتفاقيات الدولية المعنية بمياه الأنهار الدولية وعلى رأسها الاتفاقية التي أقرَّتها منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٩٧ الخاصة باستخدامات النهر دولياً. ومصر من حقها اللجوء للتحكيم الدولي للحفاظ على نصيبها في مياه النيل، حيث إن القانون الدولي ينظم علاقة الدول المرتبطة بحوض أي نهر ويحمي الحقوق المكتسبة لمصر وحصتها المائية المقررة في نهر النيل بموجب المعاهدات السابقة.

رابعاً: الحل العسكري

من خلال ضربة جوية للسد أو إرسال فرقة عمليات خاصة لتخريب السد، ولا شك أن هذا يحتاج إلى تنسيق مع السودان لإقلاع الطائرات من هناك، حيث السد على بعد ٤٠ كيلو من حدود السودان.. والحل العسكري مستبعد لعدة أسباب:

– موقف السودان من بناء السد إيجابي وليس سلبياً، وقد صدرت تصريحات باسم الناطق الرسمي باسم حكومة السودان الدكتور أحمد بلال (بأن بلاده ليست ضد إقامة السد الإثيوبي، وأن المشروع يمكن أن يكون مفيداً للسودان، وأن إنجاز المشروع لن يؤثر في حصة كل من السودان ومصر من المياه)، فهذا يعني عدم استعداد السودان للتنسيق العسكري وأنها لا تميل إلى ذلك، على العكس من التصريحات الإثيوبية التي تقول إنها تتخوّف من تنسيقات مصرية – سودانية لضرب السد من خلال طائرات إف ١٦.

– لا بد من التنبؤ برد الفعل الذي سيكون من إثيوبيا بعد تدمير سد النهضة، وهو قد يكون عملية عسكرية تهدد السد العالي وتتحول إلى حرب إقليمية، حيث إثيوبيا تدعمها دول موّلت السد، وكذلك ستجد دعماً إسرائيلياً غير معلن.. ومصر لن تستطيع أن تدخل في حرب في ظل الأوضاع والظروف الداخلية، سياسياً واقتصادياً.

– السياسة الخارجية المصرية تمهد لرجوع القارة الإفريقية مرة أخرى إلى مصر من خلال القوة الناعمة وإعادة العلاقات مع دول حوض النيل ولن تستهلها بحرب على إثيوبيا.

معلومات عن «سد النهضة»

سدُّ النهضة هو سد إثيوبي، يقع على النيل الأزرق في ولاية بني شنقول قماز بالقرب من الحدود الإثيوبية - السودانية، ويبعد عنها نحو ٢٠ أو ٤٠ كيلو متراً.

وعند اكتمال إنشائه يصبح أكبر سد كهرومائي في القارة الإفريقية، والعاشر عالمياً، وارتفاعه سيبلغ نحو ١٤٥ متراً، وطوله نحو ١٨٠٠ متر، وستبلغ سعته التخزينية ٧٤ مليار متر مكعب من المياه، وسيحتوي على ١٥ وحدة لإنتاج الكهرباء، قدرة كلٍّ منها ٣٥٠ ميغاواط.

الطائفية التي أرهقت لبنان

■ أحمد أبو دقة



لـم يكـن الصراع السياسـي الدائر في لبنـان نتاج يوم وليلة أو حدثـاً مؤقتاً مرّت عليه الأيـام، بل هو عميق عمق تاريخ هـذا الشـعب وانقسـاماته الطائفية والفكريـة والثقافية، ويمكـن الجزم بـأن التركيبة الطائفيـة في المجتمع اللبناني هي السـبب الرئيسي في هذا الصراع، فهو مجتمع له عدة أوجه كلٌّ منها يبحث عن ذاته وكينونته من خلال التحـالفات الخارجية واستجداء الخارج؛ فهناك لبنان العربي المسلم السني الذي لا يريد أن يخرج عن عباءة الأمة العربيـة الواحـدة، وهنـاك لبنان المسـيحيين الذي يريد أن تكون ملامحه أوروبيـة، وهنـاك أيضاً لبنان الشـيعي الذي يـرتبط بإيران وبلاد الفرس أكثر من ارتباطه بأمته العربية.

منذ استقلال لبنان عام ١٩٤٣م وهو يحتكم للميثاق الوطني الذي أعدّه له الاحتلال الفرنسي قبل خروجه، حيث جعل الوطن الواحد يقبل القسمة ويصبح دويلات سياسية مختلفة، وكون الطائفة هي العنصر المسيِّر لمجتمعها، فإنها أثرت سلباً من خلال إغراق لبنان في كثير من الحروب والمشاكل، وهذا ما أراده المستعمر الفرنسي للبنان بأن يغرق في خلافات داخلية لا تنتهي لضمان استقرار الأمن داخل الكيان الصهيوني، والحفاظ على التوازن الأمني في دول الطوق التي تحيط بفلسطين المحتلة؛ لذلك جاءت قسمة السلطة في لبنان على أساس الطائفة، حيث نصَّ الميثاق الوطني على أن يجرى تقسيم الوظائف البرلمانية على أساس طائفي "عادل"، حيث أعطيت رئاسة الجمهورية للموارنة النصارى، ورئاسة مجلس النواب للشيعة، ورئاسة مجلس الوزراء للسنة، أما بخصوص مقاعد البرلمان فقد تم توزيعها بالتساوي بين المسلمين والمسيحيين وفقاً لاتفاق الطائف الذي عُقد برعاية سعودية عام ١٩٨٩م. ولم تقتصر عملية توزيع الوظائف على الوظائف السيادية في الدولة، فقد وضعت ما اصطلح عليه بـ "القواعد العرفية"، حيث عمل بها منذ الاستقلال، مثل رئاسة الجيش والأمن العام ورئاسة مجلس الشورى ورئاسة الجمارك وحاكمية المصرف المركزي، حيث أصبحت بعض المراكز وفقاً لهذه القواعد حكراً على النصارى. ومن عيوب هذا التوزيع أيضاً ما تتم ملاحظته خلال عملية الانتخاب وتوزيع المقاعد على دوائر الانتخابات، حيث يلاحَظ التوزيع الطائفي في عملية تحديد عدد المقاعد لكل منطقة.

يقسِّم الباحث الفلسطيني الدكتور أكرم عدوان في بحث أعده بعنوان "الطائفية وأثرها على النظام السياسي في لبنان"؛ الطوائف اللبنانية إلى عدة أقسام، وتأتي في مقدمتها ما يحسب على الطوائف الإسلامية، وهم: (السنة، الشيعة، الدروز، العلويون الإسماعيليون، الشركس، والأكراد "إثنية"). ومن حيث الحجم فإن السنة يمثلون ٥٠ ٪ من الطوائف الإسلامية، ويتركّزون في شمال ووسط لبنان، خصوصاً في بيروت وطرابلس، ويعد مستواهم الثقافي أعلى من مستوى غيرهم من أبناء الطوائف الإسلامية الأخرى، ولهم مشاركة سياسية فاعلة من خلال مجلس النواب ورئاسة الوزراء، ويتم اختيار مفتي الديار اللبنانية منهم. ثم تأتي الطائفة الشيعية، وبدأ ظهورها في ظل الدولة الفاطمية عام ١٠٧٥م، حيث كان المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي في لبنان، ويتركز أبناؤها في الجنوب اللبناني وفي بعلبك وجبل الساحل، وهم أقل من حيث المستوى الثقافي من الطائفة السنية، ومن حيث الأوضاع الاقتصادية. ويشارك أبناء هذه الطائفة في الحياة السياسية، ويعطيهم الدستور اللبناني رئاسة مجلس النواب، كما يشاركون في تشكيل الحكومة بمقعدين وزاريين، حيث يمثلهم في الواجهة السياسية حزب الله وحركة أمل وغيرهما من الأحزاب الشيعية، وتتمتع بدعم غير محدود من قبل إيران والنظام العلوي في دمشق. وتأتي في المرتبة الثالثة الطائفة الدرزية، وتعود نشأة هذه الطائفة إلى أوائل القرن الحادي عشر، حيث جاء "تكشين الدرزي"، ويعتقد أنه شيعي، إلى سورية عام ١٠٢٠م واستقر في وادي اليتم عند أسفل جبل حرمون، وراح يبشّر بمذهب جديد يدور حول فكرة أن الخليفة الحاكم بأمر الله إمام ذو صفة فوق الطبيعة، أي أنه تجسيد للعقل الكوني، وأصبح للدروز تلامذة وأتباع أطلق عليهم اسم "الدروز" وشكلوا نواة الطائفة الدرزية وانتشروا في ظل الدولة الفاطمية في منطقة الشوف والمتن. وتبرز في هذه الطائفة عائلتان، هما: أرسلان وجنبلاط، ولزعيمي العائلتين الزعامة في الطائفة من الناحية السياسية والدينية. ويشارك أبناء هذه الطائفة الحياة السياسية، حيث يمثلهم في مجلس النواب ستة نواب ويمثلهم في الحكومة وزيران.

أما القسم الثاني في لبنان من الطوائف فهو الطوائف المسيحية، وهي: (الموارنة، الروم الأرثوذكس، الروم الكاثوليك، البروتستانت، إضافة إلى إثنيات الأرمن أرثوذكس، الأرمن كاثوليك، أستوريون كلدان، سريان). وتحتل طائفة الأرمن المركز الأول بين الطوائف المسيحية، وتستقر بصفة رئيسية في جبل لبنان، وقد تمتّعت بمستوى ثقافي لم يتح لغيرها من الطوائف، نتيجة رعاية فرنسا لها، وما كانت تتمتّع به من قوة عددية عشية الاستقلال؛ فقد استأثرت بالمناصب الحساسة في الدولة، فمنها ينتخب رئيس الدولة، وتمثَّل في البرلمان بثلاثين نائباً، ويمثلها أيضاً عديد من الوزراء. وتأتي بعدها طائفة الروم الأرثوذكس، وظهرت في القرن التاسع، واستقرت

في المناطق الساحلية، وفي مراحل سابقة لقيت عناية خاصة من قبل روسيا القيصرية، إلا أن هذه العناية انتهت بقيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧م، ما ساعد على الارتباط بين هذه الطائفة والأرثوذكس في سورية، وتحصل هذه الطائفة على أحد عشر مقعداً في مجلس النواب، ولها بعض المناصب الوزارية.

وتحتل طائفة الروم الكاثوليك المرتبة الثالثة من حيث القوة في المجتمع المسيحي اللبناني، حيث تنحدر من طائفة الروم الأرثوذكس، لكنها انشقت عنها في القرن الثامن عشر، وتتمركز في منطقة زحلة، وأبناؤها في الغالب حلفاء للموارنة، وتتمتع بوضع اقتصادي ممتاز، حيث إن غالبية أبنائها على درجة كبيرة من الغنى والثراء. ومن الناحية السياسية تشارك هذه الطائفة بستة مقاعد في مجلس النواب، ولها مقعد في مجلس الوزراء.

الأحزاب السياسية

برزت في لبنان أحزاب شُكِّلت لأبعاد طائفية، وزادت من الاندفاع نحو تشكيلها الصراعات المسلحة التي مرَّ بها هذا البلد، خصوصاً في أواخر القرن الماضي، ومن هذه الأحزاب:

حزب الكتائب:

نشأ هذا الحزب عام ١٩٢٦م، أي في عهد الانتداب الفرنسي على لبنان، على يد "بيار الجميّل"، كتنظيم شبه عسكري غالبية أعضائه من الطائفة المارونية، إلا أنه لا يمنع انضمام أبناء الطوائف الأخرى له. وقد اعترف بهذا التنظيم في نهاية عام ١٩٤٣، وتحوّل في عام ١٩٥٢ إلى حزب سياسي، وطبيعة تكوينه ونزعته الانعزالية تجعل من المستحيل انضمام أي مسلم إليه، وكذلك بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس؛ فهو حزب طائفي من الدرجة الأولى، من حيث الأهداف والأيديولوجية والممارسة. وقد لعب هذا الحزب دوراً رئيساً في الحياة السياسية والطائفية داخل لبنان منذ نشأته حتى هذه اللحظة، فما زال يمارس نفس الدور الطائفي الخطير بجعل لبنان دولة مسيحية بعيدة كل البُعد عن محيطها العربي، فضلاً عن أدواره الخطيرة في كل الحروب الأهلية التي وقعت في لبنان وآخرها الحرب الأهلية عام ١٩٧٥م، وكان مسانداً للاجتياح الصهيوني على لبنان عام ١٩٨٢م، ويرفض قيام أي علاقات مع سورية، ويناهض الوجود الفلسطيني في لبنان، حيث كان المسؤول المباشر عن قتل آلاف الفلسطينيين في مخيم صبرا وشاتيلا في ثمانينيات القرن الماضي.

حزب النجاده:

أنشئ عام ١٩٤٧م كرد فعل لنشأة حزب الكتائب، فهو منظمة شبه عسكرية وأغلب عناصره وأعضائه من الطائفة السنية. وقد حدّدت المادة الأولى في النظام الأساسي للحزب أهدافه، حيث ورد فيها "النجاده حزب لبناني سياسي ديمقراطي عربي تحرري أساسه القاعدة الشعبية العريضة الداعمة للميثاق الوطني والنظام السياسي والاقتصادي المنبثق عنه الذي يعمل على فرض المساواة وتكافؤ الفرص بين جميع الأفراد داخل الدولة".

حزب الله:

سبق الوجود التنظيمي لحزب الله في لبنان، والذي يؤرخ له بعام ١٩٨٢؛ وجود فكري وعقائدي يسبق هذا التاريخ. هذه البيئة الفكرية كان لمحمد حسين فضل الله دور في تكوينها من خلال نشاطه في الجنوب. وقد جاء في بيان صادر عن الحزب في ١٦ فبراير ١٩٨٥، أن الحزب "ملتزم بأوامر قيادة حكيمة وعادلة تتجسّد في ولاية الفقيه، وتتجسّد في روح الله آية الله الموسوي الخميني مفجّر ثورة المسلمين وباعث نهضتهم المجيدة".. كما جاء في البيان.

ومعظم أفراد الحزب هم من اللبنانيين الشيعة المرتبطين مذهبياً بمرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي، حيث يعدونه واحداً من أكبر المراجع الدينية العليا لهم، ويعد حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله، الوكيل الشرعي لعلي خامنئي في لبنان. ويقف الحزب مع النظام السوري في حربه ضد أهل السنة في سورية، حيث يرسل الآلاف من عناصره للقتال إلى جانب النظام السوري.

حركة أمل:

عُرفت في بداية نشأتها في شهر يناير ١٩٧٥ باسم حركة المحرومين بعد دعوة موسى الصدر في خطاب ألقاه بمناسبة ذكرى عاشوراء، إلى تأسيس جناح مسلح للشيعة في لبنان

كطائفة متميّزة عن أهل السـنة، ويـرأس الحركة الآن رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بـري، وكان الدافع الرئيس وراء تشكيل المجموعات المسـلحة للحركة تنظيم العمل السياسي والعسكري للطائفة الشيعية في لبنان، ويتبع جميع عناصرها المذهب "الجعفري" الشيعي بكل معتقداته.

حزب الكتلة الوطنية:

أُسّس عام ١٩٤٣م، ويعد حزب البرجوازية التجارية، وهو مـن أقدم الأحزاب، وقد عايش لبنان منذ فجر الاسـتقلال، حيث كان يعكس وجهة النظر المارونية التقليدية، وبدأ وجوده على أسـاس تكتل عائلي حول عائلة الخوري وزعيمها بشارة الخوري، في مواجهة عائلـة إده وزعيمها إميل إده، في إطار التنافس على زعامة الطائفية المسيحية.

حزب الكتلة الدستورية (الاتحاد الدستوري):

نشـأ هذا الحزب عام ١٩٣٢ بقيادة بشارة الخوري، حيث إنه يمثل البرجوازية الناشـئة المتضررة من سياسة الانتداب الفرنسـي والداعية للتعاون مع الأقطـار العربية. يرى هذا الحزب أنه من الضروري الاسـتمرار في التمسّـك بالميثاق الوطنـي، ويعلن أن من بين أهدافه العمل على إشـاعة الروح الوطنية لدى اللبنانيين، والارتفاع فوق الطائفية، والعمل على إلغائها بصورة تدريجية، ويعلن تمسّـكه بمبدأ استقلال لبنان وسيادته في حدوده الحالية، ويرى ضرورة توثيق العلاقات مع الدول العربية في نطاق ميثاق الجامعة العربية.

من الواضح أن الحزبين السابقين حزبان طائفيان من حيث الأهداف والاسـتراتيجية، بل أكثر من ذلك، فالعائلة والقبلية تلعب الدور الأساسي في تأسيس وعمل هذين الحزبين.

الحزب القومي السوري:

نشأ هذا الحزب عام ١٩٣٢م على يد أنطون سعادة، وهو رومي أرثوذكسـي، ومن مبادئ الحزب أن السوريين يشكّلون أمة واحدة قائمة بذاتها، ولذلك فإن قضية اسـتقلال سورية هي قضية قومية مستقلة عن أي قضية أخرى، وينبغي أن تتم في الإطار الوطني السـوري الذي يضم بلاد الشـام بكاملها دون أي تجزئـة، ويرفض الحزب فكرة قيام لبنان المسـتقل.

وضـمَّ الحزب إلى جانب طائفة الروم الأرثوذكسـي، العديد من المسـلمين، بحيث وصل عدد المنتمين إليه إلى أكثر من ١٥ ألف شخص.

الحزب الشيوعي:

بدأ يظهر كحزب مسـتقل عام ١٩٣٤، ووجد في الطائفة الأرمنية مجالاً خصباً لنشر أفكاره. ويطلق الحزب على قانونه الأساسي لفظ "الميثاق"، وبرامجه وأهدافه لا تختلف عن برامج وأهداف أي حزب شـيوعي آخر، ورغم أن الدولة لا تعترف به رسـمياً، إلا أنه استطاع، وخاصة في السنوات الأخيرة، أن يعمل بنشاط وعلى نطاق واسع، ولم تعد اجتماعاته وتحرّكاته سـرية كما كانت في السـابق، وقد وصل عدد أعضائه في مرحلة من المراحل إلى أكثر من ٤٠ ألف شخص.

الحزب التقدمي الاشتراكي:

تأسَّس الحزب عام ١٩٤٩م على يد كمال جنبلاط، ومعظم عناصره من الطائفـة الدرزية. من مبادئ الحزب الجمع بين إيجابيات الأحزاب السياسية والاجتماعية المتضاربة في العالم الإسلامي: الشيوعية، والديمقراطية، وغيرها؛ وذلك لمساندة الشعوب المضطهدة. يضم الحزب فئات متعددة ليس فقط من حيث الانتماء الطائفي والطبقي، وإنما أيضاً من حيث الانتماء الفكـري والمهني، حيث يضم رجال الفكر والعمل في الزراعة والصناعـة وأصحاب المهن الحرة، ومـن أهم أهدافه المناداة بقيام دولة لبنانيـة علمانية لا وجود للحواجز الطائفية فيها، مع احترام جميع الأديان والمعتقـدات، وبناء المجتمع اللبناني على أسس ديمقراطية حيث يسـود العدل والرخاء والحرية والسلام، وبحيث تكون حقوق الإنسان مكفولة. وقد ظل كمال جنبـلاط يترأس هذا الحزب حتى اغتياله عام ١٩٧٧م، حيث حلَّ محله نجله وليـد جنبلاط، وهو رئيس للحزب حتى هذه اللحظة.

حزب البعث العربي الاشتراكي:

نشـأ هذا الحزب عام ١٩٥١م، حيـث ظهر بين المثقفين اللبنانيين وعـدد من ممثلي الفئات الشـعبية الذين يؤمنون بمبادئ الحزب القومية. ظل الحزب يعمل سـرياً في الساحة

اللبنانية حتى نهايات عهد الرئيس كميل شـمعون، حيث أخذ بعد ذلك يعمل علناً شـأنه في ذلك شـأن الأحزاب اللبنانية الأخـرى. ونتيجة للطوائف التي مـرَّ بها حزب البعث في كل من سـورية والعراق والانقسام الذي نشأ، انقسم حزب البعث العربي الاشـتراكي اللبناني إلى قسمين، أحدهما مع سورية، والآخر مع العراق.

الجماعة الإسلامية:

سـاعد على بلورة هـذا التيار في لبنان لجـوء الدكتور مصطفـى السـباعي (المراقب العام للإخوان المسـلمين في سـورية) إلى لبنان عام ١٩٥٢ خلال فترة حكم العقيد أديب الشيشكلي في سورية، حيث استطاع تأصيل الفكر الإسلامي الملتزم لدى صياغة دراسات فكرية وحركية ككتاب "اشتراكية الإسـلام"، لكل من "جماعة عباد الرحمن" التي تشـكَّلت في بيروت وكان قد أسسـها الأسـتاذ محمد عمر الداعوق عام ١٩٥٠، ولدى مجموعة من الشـباب في طرابلس كان أبرزهم النائب السابق فتحي يكن.

وقد تأكدت صلات هذا التيار الإسـلامي اللبناني بحركة الإخوان المسـلمين خلال زيارة المرشد العام للإخوان في مصر (حسن الهضيبي) إلى لبنان عام ١٩٥٣، وانعقاد المكتب التنفيذي لقادة الإخوان المسـلمين في مصيف بحمـدون، حيث حضره إضافة إلى الهضيبي (مصر)، والسـباعي (سـورية)، ومحمد عمر الداعوق (لبنان)؛ كل من الشـيخ محمد محمود الصواف (العراق)، ومحمد عبد الرحمن خليفة (الأردن)، وغيرهم.

في عام ١٩٥٦ تأسّس أول مركز لجماعة عباد الرحمن في طرابلس، وكانت الجماعة في بيروت تنشر فكرها وتوسع نطاق عضويتها دون أن تعتمد مساراً سياسياً محدداً، في حين كان مركز طرابلس يصدر مواقف سياسـية من الصراع الداخلي اللبناني خلال فترة حكم الرئيس كميل شـمعون ومن القضايا الإقليمية؛ كالموقف مـن الوحدة العربية ومشـروع إيزنهاور وحلف بغـداد والصـراع العربي - الإسـرائيلي، وأصدرت نشرات غير رسـمية كمجلة "الفجر" عام ١٩٥٧ و"الثائر" عام ١٩٥٨. وعندما اندلعـت أحداث ١٩٥٨ وما صاحبها من فرز وطنـي وطائفي، كان لجماعة عبـاد الرحمن بطرابلس موقع سياسي وعسكري واضح، فأنشأت معسكراً للتدريب، وإذاعة "صوت لبنان الحر" التي كانت هي الوحيدة في الشـمال حتى الشهور الأخيرة للأزمة، بينما اكتفت الجماعة في بيروت بدور اجتماعي إغاثي، تلا ذلك تشكيل جماعة جديدة تلبي تطلعات الحركة الإسلامية بشكلها الشـمولي تحت مسمى الجماعة الإسـلامية، وكان من قـادة الجماعة أمينها العام المؤسـس الشيخ فتحي يكن، إضافة إلى بقية المؤسسين، ومنهم: القاضي المستشـار الشـيخ فيصل مولوي (الأمين العام ونائب رئيس المجلـس الأوروبي للإفتاء)، الأسـتاذ إبراهيم المصري (نائب الأمين العام ورئيس تحرير مجلة الأمان)، والكاتب الإسلامي محمـد علي الضناوي. وهكذا أبصرت الجماعة الإسـلامية النور بشكل رسمي في ١٩٦٤/٦/١٨، حيث نالت موافقة وزارة الداخلية على تأسيس تنظيم إسلامي وفق القانون الأساسي والنظام المقدم إليها.

تيار المستقبل:

هو جمعية سياسية لبنانية أسّسها رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري، وبعد اغتياله عام ٢٠٠٥ تسلم قيادتها نجله النائب سـعد الديـن الحريري. التيار يشـكل العامود الفقـري لتحالـف ١٤ آذار بالتحالف مع القـوات اللبنانية وحزب الكتائب، ويدعو هذا التجمع إلى التعايش المشـترك، ويؤمن بحرية وسيادة واستقلال لبنان، وينادي بإلغاء الطائفية السياسـية وبوحدة أرض لبنان وبحـق كل لبناني في الإقامة على أي جزء منها في ظل سيادة القانون. ويستغل هذا التجمع الذي ظهر خلال العشر سنوات الماضية بقوة اسم أهل السنة في الترويج لنظرياته وحلوله السياسية في لبنان.

صناعة النخب السياسية

حافظـت الحكومـات المتعاقبة في لبنان علـى التركيبة السياسية والاجتماعية القبلية والطائفية دون المساس بها أو تحديثها وفقاً لمتطلبات الواقع السياسـي المتغيّر. ومن وجهة نظر الكاتبة في صحيفة النهار اللبنانية هدى رزق، فإن حكام لبنان سعوا إلى الإبقاء على عناصر هذه التركيبة وامتنعوا عن عصرنة المجتمع من أجل إعادة إنتاج سلطتهم.

المسألة ذات الأهمية السياسية كانت الهندسة العشوائية للدوائـر الانتخابية التي عززها اتفـاق الطائف، وذلك من خلال تقسـيم الدوائر الانتخابية على أسـاس دوائر ذات أحجام مختلفة بدل اعتماد الدائرة الموسـعة أو المحافظة، حيث يمكن للناخبـين الذين ينتمون إلـى طوائف عدة أن

يختاروا في الدائرة الانتخابية الأوسع ممثلين ينتمون هم أيضاً إلى أكثر من طائفة. وفي هذا الصدد تذكر رزق أنــه تم اتباع نهج انتقائي هدفــه توجيه نتائج الانتخابــات لتخدم ليس فقط هذا الزعيم المعين أو ذاك، بل حتى لتبلغ درجــة خدمة طائفة أو منطقة بعينها على حســاب طائفة أو منطقة أخرى. ويمكن اعتبار أن الدوائر الانتخابية هي الركيزة الأساسية في إفــراز النخب السياســية وتحديد طبيعة عمل المؤسســات الحكومية فــي البلــدان ذات الطبيعة الديمقراطية.

في عام ٢٠٠٠ تحرَّر جنــوب لبنان من الاحتلال الصهيوني وعاد الجيــش الصهيوني إلى خط الهدنة ١٩٤٩، وبعد وفاة الرئيس السوري حافظ الأسد تولى بشار الأســد الحكم، وفي تلك الفترة جرت تعديلات في جدول السياسة الســورية بزيادة دعم حزب الله في الجنــوب اللبناني، وتعالت أصوات لبنانية مطالبة بنشــر الجيش في الجنوب، وضــرورة الالتزام بخط هدنــة ١٩٤٩. وكانت الأمم المتحدة قــد اعتبرت أن الخــط الأزرق هو خط الهدنة، وأصــرّت على عدم لبنانية مزارع شبعا.

ونشــأ على غرار ذلك قطبان في لبنان، أحدهما يدعمه النظام الســوري وهو حــزب الله الذي نصَّب نفسه داعماً للمقاومة وزعيماً لجبهة الممانعة، والآخر تيار المســتقبل الذي ترعاه السعودية، ودخل الطرفان مرحلة صدام راح ضحيتها العشرات بين قتيل وجريح في شوارع بيروت.

وكانــت صورة مجلــس النواب لعــام ٢٠٠٥ قد استقرت على ثلاثة تكتلات كبيرة: تكتل أكثري يقوده ســعد الحريري وجنبلاط مؤلف من ٧٢ نائباً، وتكتل معارض بقيادة "أمل" و"حزب الله" مؤلف من ٣٥ نائباً، وكتلة عون من ٢١ نائباً.

وتجب الإشــارة هنا إلى أن الاستحقاق الانتخابي لهذا العام يأتي ليطرح السؤال حول هوية الراعي الذي ســيحل خلافات اللبنانيين حول قانونهم الانتخابي؟ هل فعلاً ســيتفقون حول قانونهم أم أنهم سيؤجّلون الانتخابات في انتظار أن يأتيهم الترياق من الخارج؟

حكومة ميقاتي

يقول الكاتب المختص في الشأن اللبناني عبد الوهاب بدرخان: مع بداية إرهاصات الثورة الســورية وقبيل تشــكيل حكومة نجيب ميقاتــي، بدأت تظهر بعض العقبات، إذ لا يكفي أن تكون دمشــق وطهــران داعمتين لحكومته، فيجب أن يضمــن قبول دول الخليج والدول الغربية الرئيسية حكومته ودعمها، تحديداً بسبب الأوضاع المالية والاقتصادية السيئة التي كان يمر بها لبنان.

ومع اندلاع الثورة الســورية اســتغلت دمشــق حكومة ميقاتي لتنفيذ أجندتها في الداخل السوري من خلال التضييق على الثوار والحصول علــى الدعم اللازم من الجماعات الشــيعية في لبنان، سواء على المستوى الأمني أو الاستخباري؛ للتضييق على المعارضين الســوريين الموجودين فــي لبنان واعتقال العديد منهم لتســليمهم ولمطاردة مهربي الأســلحة إلى الثوار في الداخل، أو على المستوى المالي بتقديم تســهيلات مصرفية وتجارية تخفيفاً لتأثير العقوبات الدولية، أو على المستوى السياسي.

ولم يســتبعد بدرخان حــدوث فراغ في الحكــم خلال ولاية رئيس الوزراء المكلف تمام ســلام يستغلّه "حزب الله" للسيطرة على الدولة اللبنانية وفرض تعديــلات على "اتفاق الطائف" أو الذهاب إلــى "طائف" جديد، مع إمكانية احتمال التوصّل إلى صيغة حكومة "محايدة" ومصغّــرة وتكنوقراطية ومحدودة العمر، تنحصر مهمتها بالإشراف على الانتخابات.

ويرجــح الكاتب أن يتم التوافق علــى حكومة وحدة وطنية في الفترة الحالية بســبب الضغوط التي تمارس على سورية والحرب الدائرة فيها، لا ســيما مــع وجود معادلة دوليــة جديدة يفرضها الضغــط الغربي الممارس على طهران ودمشــق ويؤثر بوضوح في السياسة المتبعة من قبل حزب الله.

وتبقــى لبنان بحراكها السياســي رهينة لتحــركات الطوائف الدينيــة وملتزمة بما تمليه عليها الأطراف السياســية التي تتلقى الدعــم الخارجي ولها علاقات مع أطــراف دولية ذات طابع ديني أو طائفي، مع عدم نســيان أهمية لبنان كموقع سياسي ضمن دول الطوق العربي المحيطة بالكيان الصهيوني وأهمية إبقاء الصراعات الداخلية قائمة فيها للحفاظ على أمن الكيان الصهيوني واستنزاف القــوى السياســية اللبنانية في خلافاتها الداخليــة، وتعزيز نفوذ الجهات الأكثر تصالحاً مع نظرية الشرق الأوسط الجديد الأمريكية على حســاب أهل الســنة الحقيقيين وليس أصحاب الشــعارات السياسية التي تتاجر بقضية أهل السنة في لبنان.

مرصد الأخبار

عمرو عبد البديع(*)
amro@albayan.co.uk

«اعرف الإسلام» في كأس العالم بالبرازيل

تتطلّع فعاليات إسلامية ودعوية في البرازيل إلى استثمار تنظيم هذا البلد لكأس العالم لكرة القدم ٢٠١٤ من أجل التعريف بالدين الإسلامي وسط السكان، وأيضاً لفائدة آلاف الزوار والسياح غير المسلمين الذين سيفدون فرادى وجماعات على البرازيل خلال انعقاد هذه التظاهرة الكروية العالمية.

ويعتزم اتحاد المؤسسات الإسلامية في البرازيل، الذي يتبنّى مشروعاً ضخماً للتعريف بالإسلام في أمريكا اللاتينية تحت شعار «اعرف الإسلام»؛ تسخير جميع الإمكانات المادية واللوجستية لنجاح الدعوة إلى الإسلام اعتماداً على تجربته المتراكمة في هذا المجال، وذلك في الأسواق والجامعات ومحطات المترو ومعارض الكتب. ويُرتقب أيضاً طبع وتوزيع مليون مطوية عن مواضيع مختارة بعناية حول الإسلام، وطباعة وتوزيع مليون كتاب وترجمة لمعاني القرآن الكريم، وصنع آلاف القمصان الدعوية والحقائب الإسلامية، وإنتاج أفلام قصيرة عن الإسلام باللغة البرتغالية.

(هيسبيرس: ٢٠١٣/٣/٢٨)

٣٥ ألف إفريقي يعتنقون الإسلام على يد سلفيي مصر

دخل ما يقرب من ٣٥ ألف شخص في الإسلام استجابة للدعوة التي قامت بها مجموعة من مشايخ الدعوة السلفية المصريين في أدغال إفريقيا، حيث قاموا بعمل قوافل دعوية إلى أدغال وقرى إفريقيا لنشر دين الله في أكثر من ٦٠ قرية، وجاءت الاستجابة مبشرة بعد أن أعلنت قرى بأكملها دخولها الإسلام. وقام شيوخ الدعوة بشراء بعض قطع من الأراضي من أجل إنشاء المساجد ودور تحفيظ القرآن وحفر الآبار لمدّ القرى الفقيرة بالمياه، لافتين إلى أنه في أقل من نصف شهر استجاب ما يقرب من ٣٥ ألف رجل وامرأة للدعوة بالدخول في الإسلام. (المصريون: ٢٠١٣/٥/٢٧)

غالبية المسلمين في العالم يتمنّون تطبيق الشريعة

أجرى معهد «بيو» دراسة توصّل خلالها إلى مجموعة من النتائج، أهمها: أن معظم مسلمي العالم يريدون أن يتم تطبيق الشريعة الإسلامية، لكن تباينت نسبة هذه الرغبة من بلد إلى آخر. وجاء في الدراسة أن غالبية المسلمين، لا سيما في آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط، لديهم الرغبة في تطبيق الشريعة الإسلامية.

(مفكرة الإسلام: ٢٠١٣/٦/١٧)

«الدستور» و«الوفد» و«روز اليوسف» و«الفجر».. الأكثر تضليلا

طبقاً لتقرير لجنة الممارسة المهنية في المجلس الأعلى للصحافة عن ٣٢ صحيفة مصرية، احتلت جريدة الدستور والوفد وروز اليوسف المراكز الأولى في تضليل الرأي العام والافتقار إلى الدقة واستخدام عناوين مضلّلة لا تتطابق مع متن الخبر ونشر أخبار ومواد صحفية مجهولة المصدر والمبالغة والتهويل في تناول الأحداث والأرقام والكذب ونشر الشائعات. (الشاهد: ٢٠١٣/٦/١٨)

(*) نرحب بمقترحاتكم البنّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

علامة تعجب

تجسُّس أمريكا على مستخدمي الإنترنت!

أعلن إدوارد سنودن، الموظف السابق في وكالة الاستخبارات الأمريكية والبالغ من العمر ٢٩ عاماً، مسؤوليته عن تسريب معلومات مؤكدة عن أن الولايات المتحدة تستخدم برامج سرية لمراقبة مستخدمي الإنترنت في أي مكان في العالم عبر وكالة الأمن القومي الأمريكية.

وندد سنودن الذي عمل في وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» وعمل مستشاراً لشركة «بوز آلن هاملتون»، بما وصفه بـ «منهجية التجسس على المواطنين الأبرياء». واعترف رئيس المخابرات الأمريكية جيمس كليبر لصحيفة «واشنطن بوست» أن حكومة بلاده تجمع معلومات من الشركات التي تقدم خدمات الإنترنت، عازياً ذلك لحماية الأمن القومي.

(مصراوي: ٢٠١٣/٦/١٠)

مباحثات أمريكية رسمية مع «طالبان»!

كشف مصدر أمريكي مطلع لـ «سي إن إن» عن أن الولايات المتحدة تبدأ أول مباحثات رسمية مع طالبان (الحركة الأفغانية التي أبدت مؤخراً رغبة في تحسين علاقاتها مع العالم). ويشار إلى أن طالبان كانت قد أعلنت فتح مكتب لها في العاصمة القطرية الدوحة. وستكون المباحثات حول سبل إنهاء الحرب بأفغانستان، في خطوة تتوافق وتوقعات محللين رجّحوا احتمال قبول الحركة بإقامة قواعد أمريكية في البلاد بعد انسحاب القوات الأمريكية المحدد بنهاية عام ٢٠١٤، والتعهد بعدم مهاجمتها.

(سي إن إن: ٢٠١٣/٦/١٩)

قراءة في تقرير

الاغتيال الاقتصادي للقدس وسُبل الإنقاذ

في تقرير جديد لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية «الأونكتاد»، تم رصد المحاولات المستمرة لخنق واغتيال مدينة القدس الشرقية تدريجياً بواسطة الآليات الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن الوسائل الأمنية التي تبنّتها قوات الاحتلال الإسرائيلي منذ بداية احتلالها للمدينة في عام ١٩٦٧. ومنذ ذلك التاريخ بدأ فصل المدينة عن الاقتصاد الفلسطيني مع فرض تغيرات مادية وسكانية حادة بهدف تغيير تركيبتها السكانية كخطوة أساسية نحو القضاء على هويتها الأصلية، في الوقت الذي شهد توسع سلطات الاحتلال في إقامة المستعمرات حول المدينة وبناء الجدار العازل، ما أدى إلى محو الخط الأخضر الذي كان يحدد الحدود الفاصلة بين العرب وإسرائيل قبل حرب ١٩٦٧.

وفيما يتعلق بالاغتيال الاقتصادي والاجتماعي للقدس الشرقية، أشار تقرير «الأونكتاد» إلى أن الصدمات التي تعرض لها اقتصاد المدينة غالباً ما نجمت عن الضغوط الخارجية (الاحتلال) التي استهدفت دمج المدينة أو تفكيكها، ما ولّد آثاراً سلبية على نمو اقتصاد المدينة وقلّص من قدراته الإنتاجية المحلية إلى حد كبير.

وباختصار: فقد تعرّضت مدينة القدس لثلاث صدمات رئيسة عصفت تدريجياً بنسيج المدينة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، بل بسلامة هيكل المدينة.

فقد تلقت المدينة صدمتها الأولى بعد تقسيمها عام ١٩٤٨، ما أدى إلى قطيعة مفاجئة مع معظم شركائها التجاريين التقليديين المتواجدين في باقي الأراضي الفلسطينية. ووجد الفلسطينيون المقدسيون أنفسهم ضحية بيئة فقيرة اقتصادياً.

وجاءت الصدمة الثانية باحتلال إسرائيل للمدينة وضمها من جانب واحد ودمجها في الاقتصاد الإسرائيلي عام ١٩٦٧، ما عصف بنسيج القدس الشرقية الاجتماعي والاقتصادي وبهيكل المدينة ذاتها.. فقد أدى إدماج القدس الشرقية غير المتوازن في الاقتصاد الإسرائيلي لما يعرف بالقدس الكبرى وتعرّضها للإهمال من قبل السلطات العامة؛ إلى تخلّف المدينة بشكل ملموس.

وحتى بعد اتفاقيات أوسلو لم تحظَ القدس بقدر ملائم من فرص نمو الاستثمار وإعادة بناء الاقتصاد الوطني، ما أسهم في عزلها عن البيئة الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بها.

وتمثلت الصدمة الثالثة في بناء حاجز الفصل العنصري وتكثيف إسرائيل أنشطتها الاستيطانية العدوانية في شرق المدينة. وأكد تقرير «الأونكتاد» أن استبعاد القدس من الولاية التي تمارسها السلطة الوطنية الفلسطينية في باقي مناطق الضفة الغربية المحتلة؛ حرم المدينة من الفوائد غير المباشرة الناتجة عن الطفرة الاقتصادية في الفترة من عام ٢٠٠٨ حتى عام ٢٠١١، والتي تركزت في رام الله وبعض المدن الأخرى في الضفة، ما أجبر القدس على الانعزال والبقاء حبيسة اقتصادها الهش.

وحذر التقرير من أن تلك الاتجاهات المقلقة تشكّل خطراً على مفهوم القدس في قرارات الأمم المتحدة واتفاقيات أوسلو التي تقول إن قطاع غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية تشكّل معاً كياناً إقليمياً وقانونياً واحداً.

كيف تنجو القدس؟

وقد نصح التقرير بتطبيق حزمة من الإجراءات للمساعدة على التخفيف من حدة آثار سياسات الفصل والتفكك والاحتلال التي تتعرض لها مدينة القدس. وتمت الإشارة إلى أن الأولوية تكمن في تطبيق الحل الحقيقي لتحسين حالة القدس وتحقيق التنمية المستدامة الذي يتطلب إنهاء الاستيطان والاحتلال الإسرائيليين للقدس الشرقية طبقاً للقرارات الصادرة عن الأمم المتحدة، وفي مقدمتها قرارات مجلس الأمن أرقام ٢٤٢ و٣٣٨ و٤٧٨.

ويرى الخبراء أن تحرير القدس سيعود بفوائد كبيرة على الاقتصاد الفلسطيني بشكل عام وعلى اقتصاد القدس الشرقية على وجه الخصوص. وتم ترشيح قطاعي السياحة والخدمات بوصفهما أبرز القطاعات الاقتصادية التي ستنتعش فور تحرير القدس. أما بقية الإجراءات الأخرى التي يمكنها أن تساعد على التخفيف من الآثار المدمرة لسياسات الفصل والاحتلال والاستيطان الاستعماري للمدينة؛ فتتمثل في تدخلات قصيرة الأجل، مثل تحسين التنسيق والتخطيط بين المنظمات الدولية والهيئات شبه الحكومية وغير الحكومية العاملة في القدس الشرقية، وتقديم الدعم لقطاعات محددة مثل السياحة والإسكان والخدمات.

ونصح التقرير باتخاذ تدبير تم وصفه ببالغ الأهمية لإنعاش اقتصاد القدس الشرقية، والمتمثل في إيجاد مصادر بديلة وآليات دعم ذاتي لتمويل الاستثمار والإسكان والأنشطة الإنتاجية بالمدينة، ما يحقق التلاحم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للفلسطينيين المقيمين بالقدس رغم استمرار الاحتلال.. فالوضع القانوني للقدس يفتح الباب أمام المجتمع الدولي والمؤسسات الدولية للقيام بدور في مساندة المدينة.

وهكذا أصبحت القدس في حاجة للمساندة الفعلية المادية أكثر من أي وقت مضى حينما كانت المساندة المعنوية كافية للصمود.. فحياة القدس واقتصادها وسكانها في حاجة لمزيد من الجهود حتى تتخلص من الاحتلال والعزل والتفكيك تجنّباً لسقوط المدينة مجدداً في هوّة الخراب.

(الأهرام: ٢٠١٣/٦/١٧)



مرصد الأرقام

احتل الجيش المصري المرتبة الأولى كأقوى الجيوش العربية لعام ٢٠١٣، وفي المركز ١٤ عالمياً؛ في التصنيف السنوي لأقوى جيوش العالم، مع ٤٦٨ ألف جندي و٨٦٣ طائرة حربية وميزانية مخصّصة للدفاع تقدر بنحو ٤,١ مليار دولار. واحتلت الولايات المتحدة الأمريكية المرتبة الأولى، في حين جاءت روسيا في المركز الثاني، وكانت الصين التي تعدّ ثاني أكبر اقتصاد عالمي في المرتبة الثالثة.

(الشاهد: ٢٠١٣/٦/١٨)

بلغ عدد الولادات للاجئات السوريات اللاتي وصلن الحدود الأردنية، (٤٥٠) حالة، وهناك نحو (٦) حالات ولادة أجريت لها عمليات داخل المراكز الطبية على نقاط الاستقبال الحدودية المنتشرة على طول الحدود مع سورية، والبالغة (٣٧٨كم).

(منشور: ٢٠١٣/٦/١٨)

أعلن وزير السياحة المصري، هشام زعزوع، حصول «انفراج نسبي في أزمة السياحة بنمو إيراداتها في الأشهر الخمسة الماضية من هذه السنة، بنسبة ١٢,٥ في المائة، مقارنة بالفترة ذاتها من العام الماضي، رغم الاضطرابات». وقدّر قيمتها بـ «٤ بلايين دولار أنفقها ٥ ملايين سائح».

(الحياة: ٢٠١٣/٦/١٥)

قال الدكتور آدم الحريكي، رئيس التحليل الاقتصادي في اللجنة الاقتصادية الإفريقية التابعة للأمم المتحدة؛ إن إفريقيا لديها ثروة من الأراضي الصالحة للزراعة تصل لنحو ٦٠٪ من أراضيها، فضلاً عن أنها تستحوذ على نحو ٤٢٪ من احتياطي الذهب العالمي، إلى جانب ثروة من المعادن الطبيعية.

(المصري اليوم: ٢٠١٣/٦/١٣)

الليرة السورية تفقد ٧٧٪ من قيمتها.

(الجزيرة: ٢٠١٣/٦/١٨)

تغريدات

مسفر بن علي القحطاني
@mesfer

أمريكا بالكاد اعترفت بوجود استخدام للكيماوي بسورية.. وفي العراق ٢٠٠٣م غزتهم لوجود سلاح كيماوي لم يعثر عليه حتى الآن!!
أليست لعبة مضحكة!؟

د. محمد يسري إبراهيم
@DrMohamadYousri

إهانة الدولة وتوهين رموزها خطأ، وخطر، وخطيئة، وسيصطلي المجتمع بلظاها حين يغلب فجّارها أبرارها، وسيصلكم شررها وضررها.

أحمد الصويان
@Asowayan

بعض المنظمات اليهودية تستغل انشغال المسلمين بأحداث سورية لتدنّس المسجد الأقصى وتتطاول على المرابطين في بيت المقدس بالتهجير والتضييق والإيذاء!

ياسر الزعاترة
@YZaatreh

أشعر بالقهر كإنسان وكعربي ومسلم عندما يجري الخلط بين الشعوب وبين الأنظمة، بخاصة غير المنتخبة منها.. نحن أمة واحدة، فلا تفرقوا تفرق الأنظمة.

د. عبد الكريم بكار
@Drbakkar6h

في الشام رجال يأكلون الصخر، وثري واحد من أثرياء المسلمين يستطيع إنهاء مأساة شعب كامل بـ ٥٠٠ مليون دولار تُدفع على مدار شهرين.. فأين هو؟

قراءة صهيونية في يوميات الثورة السورية



د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com
@adnanabuamer1

لم تعد الأحداث الدامية في سورية شأناً داخلياً أو عربياً أو دولياً فحسب، بل غدت حديث الساعة في إسرائيل، وباتت تتصدَّر نشرات الأخبار وعناوين الصحف وأجندات المجالس الوزارية والكنيست، على اعتبار أن ما يحدث في حمص وبانياس والقصير سيرجع صداه وتأثيراته في حيفا وتل أبيب.

فقد بات واضحاً أن أي عملية إسرائيلية لمنع تهريب السلاح السوري، سواء كان الصاروخي أو الكيماوي، تتطلّب قدرة استخباراتية وعسكرية كبيرة، والتسلل الأمني إلى داخل أسرار النظام السوري، والإغارة على مناطق مزوَّدة بدفاعات جوية من الأكثر تطوراً في العالم.

وقد أوضحت عمليات القصف الإسرائيلية المتكررة على الأهداف العسكرية داخل الأراضي السورية، أن التقديرات الاستخباراتية والتخطيطات العملياتية كانت دقيقة، وأن إسرائيل نجحت في حسابها للمخاطرة التي قامت بها، وبدا صحيحاً افتراضها وجود ردع قوي جداً، وأن لدى سورية وحزب الله وإيران سُلّم أولويات مختلفاً، ولن يجازفوا بالدخول في مواجهة عسكرية مباشرة، ما دفع السوريين لاستيعاب الهجوم، ومن ثم فإن إسرائيل مطمئنة إلى أن النظام السوري يدافع عن بقائه ضد معارضة داخلية باتت تسيطر على ٥٠٪ من أراضي سورية.

ومع ذلك، فإن هناك قناعات تسود في إسرائيل مفادها أن جزءاً من منظومات السلاح السوري التي تشكل خطاً أحمر، قد انتقل فعلاً لحزب الله، لكن ثمة أهمية إسرائيلية كبيرة لتخفيض عدد الصواريخ التي يملكها، باستخدام الأسلوب الذي استخدمته خلال الحرب الأخيرة ضد قطاع غزة، بتدمير جزء كبير من الصواريخ قبل إطلاقها، بينما تدمير الجزء الآخر بواسطة المنظومات الدفاعية المضادة للصواريخ، وما تفعله إسرائيل في سورية سيسهّل عليها المواجهة مع حزب الله في معركة واسعة مستقبلاً.

ولهذا؛ يمكن الافتراض أن تبعات القصف الإسرائيلي لسورية لم تنتهِ بعد: تكتيكياً واستراتيجياً، ما يدفع إسرائيل لاتخاذ قرار في مجالات عدة:

١ إظهار كثير من اليقظة حيال احتمالات تصفية «الحساب المفتوح» من خلال رد محدود أو متأخر على الجبهة الشمالية أو الخارج.

٢ مواصلة العمل ضد نقل السلاح السوري خارج الأراضي، والحيلولة دون امتلاك المنظمات المعادية منظومات السلاح المتطور والحساس، وهي ما تسميها «الأيدي الخطأ»، وكأن بقاءها بحوزة النظام السوري يعني «الأيدي الصحيحة»!

٣ إذا قررت إسرائيل تنفيذ مزيد من العمليات المقبلة، يجب أن تبحث فيما إذا كانت الأوضاع الاستراتيجية تسمح بحرية العمل ضمن إطار مخاطرة منخفضة، أم إن تراكم الحوادث سيؤدي لتصعيد غير مرغوب فيه.

٤ قد يكون من الخطأ اعتبار أن عدم الرد السوري على الغارتين الأخيرتين معناه عدم الرد في المرات المقبلة، فالضغط الكبير الذي يُمارس على الطرف الثاني للرد على الهجوم الإسرائيلي قد يؤدي لرد واسع يتسبّب في تصعيد خطير.

(*) كاتب فلسطيني.



وقبل أيام قليلة نسبت أوساط غربية إلى مسؤول استخباري إسرائيلي رفيع المستوى، رَفَضَ الإفصاح عن هويته، أن إسرائيل تفضّل بقاء الرئيس السوري بشار الأسد بعد الحرب الأهلية، وليس سيطرة منظمات إسلامية متطرفة؛ لأن «الشيطان» الذي نعرفه أفضل من الأشباح المجهولة التي قد تسيطر على سورية، ولذلك فإن نظام الأسد كاملاً، حتى لو كان ضعيفاً، أفضل بعدة مرات من البدائل.

وقد فاجأ الرئيس السابق لجهاز الموساد «أفرايم هاليفي» الجميع مؤخراً بقوله إن الأسد هو رجل تل أبيب في دمشق، وإن إسرائيل تضع في اعتبارها منذ بدأت أحداث الثورة السورية أن هذا الرجل ووالده تمكّنا من الحفاظ على الهدوء على جبهة الجولان طيلة ٤٠ سنة، منذ تم توقيع اتفاقية فكّ الاشتباك بين الطرفين عام ١٩٧٤؛ ولذلك فإن إسرائيل ستتدخل في الأحداث بسورية عند الضرورة فقط، لكن حتى هذه اللحظة لا يوجد أي مؤشرات على أنها قد تتدخل في المستقبل.

ولذلك؛ تبدي إسرائيل قناعة لها كثيرٌ من التأييد بأن جميع من سيأتي بعد الأسد سيكون معادياً وخطيراً عليها، وستغدو الساحة السورية بعيداً عن السيطرة، ولذلك فهي تفضل أن يبقى الأسد في الحكم كي لا تسقط سورية بأيدي محافل إسلامية غير مرغوب فيها.

هنا يظهر التحذير الإسرائيلي من أن استمرار الفوضى في سورية لمدة طويلة، وتوسّع العمليات القتالية؛ سيجلب الإسلاميين إلى البلاد من كافة أنحاء المنطقة، ما سيهدد الهدوء في الدول المجاورة لإسرائيل، بما فيها لبنان والأردن والعراق، كما أن الأسد قد يفقد السيطرة على مخازن الأسلحة الكيماوية.

لكن التهديد الإسرائيلي بإسقاط الأسد، إذا ما استقر رأيه بالرد على إسرائيل؛ لا يتناسب حتى الآن مع الأحداث على الأرض، خاصة أن المعلومات الاستخبارية الإسرائيلية لا تشير إلى نوايا فورية لدى الأسد وحلفائه بتنفيذ تهديداتهم وفتح جبهة ضد إسرائيل في الجولان، ما يعني أنها رسالة موجهة لروسيا لمنعها من تزويد سورية بصواريخ مضادة للطائرات.

ومع ذلك، فإن هناك مفارقة بين عدم الرغبة الإسرائيلية في التدخل السافر بسورية من جهة، ومن جهة أخرى الآثار السلبية لاستمرار القتال الداخلي، وفقدان القدرة على تشكيل دولة سورية بعد نظام الأسد، والتأثير في مستقبلها وطابعها، بحيث يمكن الحديث هنا عن الدوافع المتوافرة لدى إسرائيل والجهات الفاعلة في النظام الدولي والإقليمي لعدم التدخل لوقف إراقة الدماء في سورية، ومنها:

١ الرغبة في تآكل متبادل من الطرفين اللذين يقاتلان بعضهما بعضاً.

٢ رؤية الجيش السوري يسير في عملية الانهيار، ويفقد قدراته العسكرية الأساسية.

٣ عدم الاهتمام بالتدخل العسكري، خوفاً من إجبارها على إرسال قوات برية لسورية.

٤ شلل النظام الدولي وعدم قدرته على اتخاذ قرارات بسبب معارضة حلفاء سورية.

علماً أن المصلحة الاستراتيجية الرئيسية من ناحية إسرائيل تكمن في أن تكفّ سورية عن كونها عنصراً مهماً في المحور الذي تتزعمه إيران، وفي حال سقوط نظام الأسد فإن قدرة إيران في المنطقة ستتراجع كثيراً، وسيفقد حزب الله في لبنان سنداً عسكرياً ولوجستياً، وسيتقلص خطر الصواريخ الذي يهدد إسرائيل، ويبدو أن هذا ما سيحدث في نهاية الأمر لكن بالتدريج، ويفضل ألا تكون إسرائيل ضالعة في حدوثه.

أخيراً.. فإن إسرائيل تجد نفسها مطالبة بمتابعة ما يحدث في الأراضي السورية من كثب، من خلال أجهزة الاستخبارات المتعددة، وتتحسّب لأن تنزلق الأمور نحو مواجهة عسكرية مفتوحة، رغم أنها لم تصل بعد إلى الخط النهائي المحذور، رغم اقترابها من النقطة التي قد تتحول فيها أيّ عملية إحباط موضعي إلى ما من شأنه أن يفتح المسائل على نطاق واسع نحو التصعيد العسكري مع سورية.



أضواء على المجتمع الإيراني بعد الثورة

■ د. غازي التوبة

من المعلوم أن شاه إيران السابق كان يقود بلده في اتجاه التغريب، وكان هناك فساد منتشر، وجاءت الثورة الإسلامية بقيادة الخميني من أجل تحقيق أهداف إسلامية سامية - على حدّ زعمها -، مثل: زيادة التطهر والعفاف في المجتمع، وزيادة الأمن والأمان، وإنهاء الظلم وإقامة المساواة، وإزالة الفقر وإقامة العدالة في توزيع الثروة، والقضاء على الإدمان والمخدرات، وإنهاء الموبقات والدعارة... إلخ.. فهل تحققت كل هذه الأهداف؟ ماذا نجد في واقع إيران بعد ٣٠ سنة من الثورة؟

نجد أن المشاكل ازدادت بدلاً من أن تقل، فأول مشكلة تواجه إيران هي الإدمان على المخدرات، فيقدر الباحثون أن عدد المدمنين في إيران ٢,٥ مليون مدمن، ولو اعتبرنا أن عدد أفراد الأسرة بمعدل وسطي هو خمسة أشخاص، فمعنى ذلك أن هناك ١٢,٥ مليون شخص، مشغولين ومعطلين، مرتبطون بهذا المدمن ومشاكله.

وطبقاً لتقرير المخدرات العالمي الذي أصدرته الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٥ عن مدمني الأفيون في العالم، توجد في إيران أعلى نسبة من المدمنين في العالم، إذ إن ٢,٥٪ من السكان الذين تزيد أعمارهم على ١٥ سنة، مدمنون على نوع من المخدرات، وإلى جانب إيران توجد دولتان في العالم تتعدى نسبة المدمنين فيهما ٢٪، وهما: موريسيوش وقرغيزستان.

وقد أفادت برقيات دبلوماسية عبر موقع ويكيلكس بأن إيران تعدّ من أكبر مهربي المخدرات في العالم. وقد أكد وزير خارجية أذربيجان أن عمليات التهريب بين أيدي أجهزة الأمن الإيرانية، وأنه عندما تعتقل السلطات الأذرية مهربين إيرانيين وترحّلهم إلى بلادهم كي يقضوا فيها أحكاماً بالسجن، يطلق سراحهم بسرعة!

أما بالنسبة لقضية الدعارة، فقد ذكر راديو أوروبا الحرة استناداً إلى الرقم الرسمي، أن هناك ٣٠٠ ألف امرأة يعملن مومسات في إيران، وطبقاً للصحف فإن العدد يرتفع بثبات. وقال رسول نفيسي، عالم الاجتماع وعميد كلية

الدراسات في جامعة «ستراير» واشنطن لخدمة الفارسية؛ إن سبب زيادة الدعارة الآن: ضعف الاقتصاد، وارتفاع معدل الطلاق، واستغلال الفتيات اللاتي فررن من الأسر الفقيرة.

وتشير الدراسات إلى أن الدعارة بعد أن كانت منتشرة بين الفئة العزباء، أصبحت منتشرة بين المتزوجات، كما أن سن البدء بالدعارة انخفضت لتصل إلى ١٥ عاماً، في حين كانت السن في العشرين سنة الأولى من الثورة ٣٠ سنة فما فوق. وكشفت الدراسات عن أن الدعارة كانت في السابق لسدّ احتياجات أساسية للمرأة، في حين أصبحت اليوم لسد احتياجات ثانوية. وتذهب دراسات إلى أبعد من ذلك وتقول إن السن انخفضت إلى (٨-١٠) سنوات، وهو ما أثار ردود أفعال غاضبة في مجلس الشورى الإيراني.

وقد أقرَّ تقرير إيراني نُشر لأول مرة عام ٢٠٠٠، بوجود ظواهر الدعارة وتعاطي المخدرات، وأنها في ازدياد بين شباب إيران. وقد كتب التقرير محمد علي زام، رئيس الشؤون الثقافية والفنية في طهران، ويعدّ شخصية ذات نفوذ، وقد وجد التقرير زيادة حادة في المشكلات بين عامي ١٩٩٨-١٩٩٩. أما بالنسبة للصلاة فقد ذكر التقرير أن ٧٥٪ من عدد السكان، ونحو ٨٦٪ من الطلاب الشباب، لا يؤدون الصلوات.

هناك أرقام تتحدث عن عشرة ملايين إلى ١٥ مليون فقير في إيران. وقد تحدث عن اتساع رقعة الفقر في إيران عالم الاجتماع والاقتصاد الدكتور محمد جواد زاهدي، الذي نشر بحثاً موسعاً حذر فيه من «تسونامي فقر» يهدد الجمهورية الإسلامية، وعلل ذلك بغياب المساواة والفساد الإداري وارتفاع التضخم، إضافة إلى ضعف القطاع الخاص وشيوع الفساد الأخلاقي والاقتصادي، وأسهم غياب مظلة الرعاية الاجتماعية في جرّ الطبقتين الدنيا والمتوسطة إلى حافة الفقر، ولا شك في أن الفقر سببٌ في عدد من المشكلات الاجتماعية الأخرى؛ كالإدمان والإجرام والدعارة، وبناءً على مؤشرات معتمدة للكسب والعمل من قبل البنك الدولي لعام ٢٠١٠، احتلت إيران المرتبة ١٣٧ من بين ١٨٧ دولة.

وتأتي مشكلة سكان العشوائيات في إيران كإحدى المشكلات الاجتماعية التي يعانيها المجتمع الإيراني، ويقدر سكان العشوائيات بخمسة ملايين نسمة، وتقدرها دراسات أخرى بـ ٢٠ مليوناً. ولا شك أن وجود مثل هذه العشوائيات سيكون مرتعاً لتفريخ الجريمة. وتشير دراسة أجريت على هذه الفئة في المناطق القريبة من طهران، إلى أن ٥٩٪ منهم من مرتكبي الجرائم.

شعرت إيران في منتصف عام ٢٠١٠ أن التعليم في خطر، وجاء هذا الشعور بعد أن أحسَّت القيادات بفشل حكومات الثورة المتعاقبة في ترسيخ المبادئ الثقافية للثورة الإسلامية؛ لذلك أعلنت الحكومة الإيرانية عن «الوثيقة الوطنية للتربية والتعليم» من أجل أسلمة التعليم، واستغرق تدوين الوثيقة خمس سنوات، وقد أعلن عنها الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد.

ليس من شك في أن الطهر والعفاف والاستقامة والفضيلة وزوال الفقر وقيام العدالة والمساواة... إلخ؛ هي صفات يتوقع أن يتصف بها أي مجتمع يطبّق الإسلام، ويجعل الشريعة الإسلامية مرجعية له، بعد أن كان يرسف في منهجية مخالفة للإسلام، أو على الأقل نتوقع أن تتقدم وتزداد مساحة الطهر والعفاف والاستقامة والفضيلة فيه، وأن يزداد عدد الأغنياء والمكتفين ويقلّ الفقراء، وأن تقوم المساواة في المجتمع، وأن يصل كل مظلوم إلى حقه.. هذا ما نتوقعه من المجتمع والدولة التي تطبّق شريعة الله، لكننا كما لاحظنا لم يحدث هذا في إيران بعد قيام الجمهورية الإسلامية! فما السبب؟ إذا أردنا أن نعرف فعلينا أن نبحث عن ذلك السبب في داخل المذهب الشيعي ذي التكوين الخاص، وأنا أرجّح أن السبب يعود في رأيي إلى عاملين:

الأول: طبقة الملالي.

والثاني: مفهوم الولاية عند الشيعة.

وسنلقي الضوء على هذين العاملين ونبيّن دورهما في إنتاج الفساد والرذيلة.

الأول: طبقة الملالي:

من الواضح أن إحدى مخالفات الإسلام للديانات التي سبقته، وبشكل أخص المسيحية، هي إلغاء طبقة رجال الدين وعدم وجودها في الإسلام.

فالمسيحية أقرّت بوجود كنيسة ترعى أمور الدين، وأوجدت طبقة رجال الدين التي ترعى الكنيسة وتقوم بدور الواسطة بين المسيحي والله، ولا شك في أن هذه الطبقة الكهنوتية التي كانت تعطي المغفرة للمسيحي وتحتكر فهم الدين، وتوزع النار على العاصين، وتعطي مساحات من الجنة لمن يدفع لها أموالاً أكثر... إلخ؛ ليس من شك في أن هذه الطبقة من رجال الدين كانت أحد عوامل الفساد في المجتمع الأوروبي، والتي قامت عليها ثورة مارتن لوثر في ألمانيا، والتي أنشأت المسيحية البروتستانتية في مطلع القرن السادس عشر، ثم ثارت عليها مرة ثانية في

نهاية القرن الثامن عشر في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وأنهت تحالف الإقطاع مع رجال الكنيسة، وبدأت العصور الحديثة.

لقد ألغى الإسلام طبقة رجال الدين، واعتبر أن العلاقة بين العبد وربه يجب أن تتم بغير واسطة؛ لذلك أدان القرآن الكريم المشركين الذين اتخذوا بعض الأصنام واسطة إلى الله، فقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وطلب القرآن الكريم من المسلم أن يدعو الله وأن لا يدعو غيره، وأن لا يوسط أحداً، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

من الجدير بالذكر أن المذهب الشيعي يشترط على كل شيعي أن يرتبط بمرجعية شيعية معاصرة له، وأن يلتزم باتباعه، وأن يدفع له «خُمس أمواله»، وأن يتبعه في عباداته، وأن يستفتيه في حال طلب الفتوى، وأن يمنحه ولاءه؛ وبهذا أصبحت طبقة الملالي في المذهب الشيعي إلى حد ما تقابل طبقة رجال الدين في الكنيسة المسيحية، وهي سبب رئيسي في انتشار الفساد والرذيلة في المجتمع الإيراني، وبخاصة أنها طبقة غنية بسبب «الخُمس» الذي تأخذه من أتباعها كما ذكرنا، وقد لجأت الحكومة إلى التستّر على فضائح رجال الدين، فهي تمنع نشر ما يتعلق بهم، وقد فعلت ذلك منذ بداية الثورة عندما بدأت تنتشر فضائح صادق خلخالي أحد قيادات الثورة عام ١٩٧٩م.

إن وجود رجل دين على رأس السلسلة الدينية التي ارتبط بها الشيعي ولَّد أثرين سلبيين:

الأول: على الشيعي نفسه، إذ قلّلت فاعليته النفسية لأنه يركن إلى هذا الملا/ الشيخ في بعض الأمور.

الثاني: على المجتمع، إذ تنتج هذه الطبقة فساداً، وهذا ما ثبت في الوقت الحاضر وعلى مدار التاريخ في المجتمعات السابقة، فقد نقلت التقارير والدراسات والصحف والمجلات كثيراً من فساد طبقة رجال الدين في إيران لا يتسع المقام لذكرها وإحصائها.

الثاني: مفهوم الولاية:

لقد أقام الإسلام كيانه على جناحين، هما: العقل والنقل، وعندما يستوي الجناحان تطير الأمة وتحلّق وتبدع، وعندما يحدث خلل في أحد الجناحين تهبط وتتعثر.

ونحن نعتقد أن الوحي قد انتهى بوفاة الرسول ﷺ، وأنه بقي علينا إعمال العقل في تطبيق الشريعة، والاجتهاد في إنزال الأوامر والنواهي التي أمرنا بها الله ورسوله ﷺ على أرض الواقع بواسطة عقولنا.. لكن الشيعة يعتقدون أن الوحي لم ينقطع، بل هناك اثنا عشر إماماً بعد الرسول كانوا يتلقون وحياً عن طريق الإلهام، وأن أقوالهم بمنزلة الوحي الذي هو استكمال للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، ليس هذا فحسب، بل هناك مهدي منتظر، وهو الآن موجود حي يرزق، وهو يظهر لبعض الناس؛ يعلّمهم، ويصوّب لهم آراءهم، ويصحّح لهم فتاويهم.. ليس من شك في أن مثل هذا الاعتقاد يرفع أقوالاً بشرية إلى درجة التقديس، ويفتح مجالاً للأوهام والخزعبلات والتبديل والخرافات... إلخ.

إن مفهوم «الولاية» جزء من «العرفان الشيعي»، وقد ذكر الجابري في «العقل العربي» أن العرفان الشيعي متأثر «بالموروث الهرمسي»، وهو قد التقى في ذلك مع هنري كوربان في كتابه «تاريخ الفلسفة الإسلامية»، الذي قال فيه عن الشيعة: «إنهم أول من تهرمس في الإسلام». ومن المعلوم أن «العرفان» بشكل عام يعتبر أن المعرفة تأتي عن طريق «الكشف» وليس عن طريق «العقل»، وهذا ما يفتح المجال لعالم الخرافات والخزعبلات والأوهام، ويزيد من حجم اللامعقول، ويضعف التعامل العقلي مع الأمور والمشكلات.

لقد جلب «مفهوم الولاية» للطائفة الشيعية انحرافين في مجال النقل والعقل: فهو في مجال النقل أضاف أقوالاً بشرية للأئمة الاثنا عشر تحتمل الخطأ والصواب، وهم اعتبروها وحياً غير قابل للخطأ، وهذا الانحراف الأول.. وفي مجال العقل، فإنه جرى تضخيم اللامعقول في المذهب الشيعي نتيجة ارتباط «مفهوم الولاية» بالعرفان الهرمسي، وهذا الانحراف الثاني.

من الواضح – الآن – أن صورة إيران الاجتماعية ليست صورة وردية، فالثورة «الإسلامية» لم تقضِ على الدعارة والمخدرات والإدمان والفساد والتحلل الأسري وجرائم القتل التي ورثتها عن حكومة الشاه السابقة، بل ازدادت الأرقام، وازدادت المشاكل الاجتماعية استفحالاً، وهذا دعانا للبحث عن الأسباب في داخل المذهب الشيعي، فوجدنا أنها تعود إلى عاملين: طبقة الملالي من جهة، ومفهوم الولاية من جهة أخرى.



الجهاد وشهر الفتوحات

■ د. سيد حسين العفاني

بعيداً عن الجهاد والفتوحات تحوّل الصقر الإسلامي إلى طائر الحجل في لينه، وكما قال إقبال: «علّموا الليث حَجلة الظبي.. ومحوا عنه قصة الأسد». وتسقط الأمة في الوحل وتعيش مرارة الواقع البائس النكد المرير، ويضيع كل شيء، فتعود إلى ذكريات شهر رمضان، شهر الفتوحات، فتحييها أمجاده، وتبث فيها الأمل، فقد امتنَّ الله عز وجل على الأمة فيه بأحلى وأغلى انتصاراتها.. وعلى مدار التاريخ كان شهر رمضان رمزاً للنصر والفتوحات:

ففي السنة الأولى من الهجرة كانت سرية حمزة بن عبد المطلب، ثم سرية عبيدة بن الحارث؛ اللتان بثّتا الرعب في قلوب الكافرين.

غزوة بدر الكبرى (غزوة الفرقان):

وفي السنة الثانية من الهجرة، وفي السابع عشر من رمضان؛ كانت غزوة بدر.

وببئر بدر إذ يُكَفُّ مَطِيَّهم
جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

خرج النبي ﷺ في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً يريدون أبا سفيان والغنيمة وأرادها الله ملحمة، وخرجت قريش بقدّها وقديدها تِسعمائة وخمسين مقاتلاً، فهزمهم النبي ﷺ وأصحابه في أروع غزوة تجلى فيها ثبات الصحابة، وانتصرت العقيدة، ومضت بدر في التاريخ قصة انتصار القلوب المؤمنة الموقنة بربها والتي قلبت بيقينها ميزان الظاهر، فهي آية من آيات الله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وفي رمضان في السنة السادسة من الهجرة كانت سرية غالب بن عبد الله لقتال بني عبد الله بن ثعلبة، انتصر المسلمون، وغنموا كثيراً من الغنائم، وساقوها إلى المدينة.

وفي السنة الثامنة من الهجرة كان فتح مكة:

في العشـــرين من رمضان كان الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورســـوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته من أيدي الكفار والمشـــركين، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشـــرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً.. دخل رســـول الله ﷺ مكة ومعه عشـــرة آلاف من جنود الرحمن رضـــوان الله عليهم، وحول البيت ســـتون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد».

قـــال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَـصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْـحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١ - ٢].

قال ابن كثير: «المراد بالفتح هنا فتح مكة قولاً واحداً». فإن أحياء العرب كانت تتلوّم - أي تنتظر - بإســـلامها فتح مكة، يقولـــون: «إن ظهر على قومه فهو نبي»، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمضِ سنتان حتى اســـتوثقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبقَ في ســـائر قبائل العرب إلا مُظهر للإسلام ولله الحمد والمنة.

وفي رمضان هُدمت الأصنام..

«هبل.. والعُزَّى.. وسواع.. ومناة.. رمضان سنة ثمانية هجرية، واللات سنة تسعة هجرية.. أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فهدم سواعاً، وبعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة فهدمها، وفي الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمانية هجرية أرسل رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى اللات في ثقيف فهدماها.

وفي رمضان ١٣ هـ انتصر المسلمون على الفرس في معركة «البُويب»:

قال ابن كثير في البدايـــة والنهاية (٣٠/٧): «وكانت هـــذه الوقعة بالعـــراق نظير اليرموك بالشـــام».. التقى المســـلمون بقيادة المثنى بن حارثـــة، جيش الفرس بقيادة مهران، وصبر المســـلمون واستبســـلوا في القتال، وحمل المنذر بن حســـان الضبي علي مهران قائد الفرس وطعنه واحتزّ رأســـه جرير بن عبد الله البجلـــي، وهُزم الفرس هزيمة نكراء وقُتل منهم وغرق قريب من مائة ألف، وذلّت لهذه الموقعة رقاب فارس.

فتح بلاد «النوبة» ومعاهدة القبط سنة ٣١ هـ:

وفيها حاصر المســـلمون بقيادة البطل عبد الله بن أبي سرح - والي مصر - بلاد النوبة وعاصمتهم «دُنقُلة» حصاراً شـــديداً حتى اضطروا للتســـليم، وطلب ملكهـــم «قليدور» الصلـــح، وأجرى معه ابن أبي ســـرح معاهدة كان لها أعظم الأثر في نشر الإسلام في ربوع بلاد النوبة.

فتح جزيرة رودس سنة ٥٣ هـ:

وكان ذلك بقيادة البطل «جنادة بن أبي أمية».

زوال دولة «المختار الثقفي» سنة ٦٧ هـ:

وقُتـــل «المختار» في ١٤ رمضان وفرح المســـلمون بزوال دولتـــه، وقُتل الكـــذاب الذي كان يُظهر التشـــيّع ويزعم أن الوحي يأتيه على يد جبريل، وصدق رسول الله ﷺ: «إن في ثقيف كذاباً ومبيراً» أخرجه مسلم.

فتح «الأندلس» في رمضان سنة ٩١ هـ

على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير.. مولى لكن لا تساوي قلامة ظفره ملوكاً وأمراء في قصور العرب اليوم.. رأى طارق رسول الله ﷺ في منامه والخلفاء الراشدين الأربعة يمشون على الماء حتى مروا به، فبشره النبي ﷺ بالفتح، فبشر أصحابه، وقويت نفسه، ولم يشك في الظفر.

والتقى جيش طارق وعدته ١٢ ألفاً، عسكر «لُذريق» ملك إسبانيا وعدتهم ١٠٠ ألف، وكان يوماً مشهوداً نصر الله فيه عباده الموحدين.

عـذراً رُبـى المجـد أن القـوم قـد هـانوا
وإنـهـم فـي أيـادي المعـتـدي لانـوا
عـــذراً فـإن بـلاد الـعـرب لاهـيـة
تَـضـجُّ فـي صـدرهـا عـبـس وذبـيـان

فتوح المسلمين في «جنوب فرنسا» سنة ١٠٢ هـ:

وفتح البطل «السمح بن مالك الخولاني»، والي الأندلس، سنة ١٠٢ هـ، إقليم «سبتمانيا» وعاصمته «أربونة» حتى وصل إلى «طولوشة» عاصمة «أكوتيانيا». واستشهد البطل وخلّف على الغزو والولاية عنبســـة بن ســـحيم الكلبي، وقذف الله

الرعب في قلوب الكفـــار، ووصل في انتصاراته إلى مدينة «ليون»، ووصل جيش المسلمين إلى مدينة «سانس» عاصمة إقليـــم «يوند» على بُعد ٣٠ كيلو متراً جنوبي «باريس»، وهذا نصر عظيم هيَّأه الله لعباده المؤمنين.

وفي سنة ٢٢٢ هـ فتح المسلمون مدينة «البذ»، مدينة «بابك الخرمي» اللعين الذي قتل من المسلمين مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة مسلم. واستنقذ المسلمون من أسره نحواً من سبعة آلاف وستمائة إنسان، وتركوا «البذ» قيعاناً خراباً.

وفي سنة ٢٢٣ هـ كان فتح عمورية على يد المعتصم:

رب وامعتصماه انطلقت
ملء أفواه الصبايا اليتم
صادفت أسماعنا لكنها
لم تصادف نخوة المعتصم

وفي سنة ٢٦٤ هـ في ١٤ رمضان كان سقوط «سرقوسة» من جزيرة صقلية

على يد جعفر بن محمد بعد حصار دام تسعة شهور براً وبحراً. وهزم جعفر أسطولاً رومياً جاء لنجدتها. وكان سقوطها كارثة كبرى لبيزنطة، فقد انهارت الجهود الجبارة التي بذلتها سنوات طويلة لإعادة النفوذ البيزنطي على ساحل البحر الأدرياتي.

وفي سنة ٥٥٩ هـ كانت واقعة «حارم»

في رمضان من هذه السنة بين المسلمين وقائدهم البطل نور الدين محمود زنكي، وبين الجيوش الصليبية، وقتل المسلمون من الصليبيين عشرة آلاف.

وفي سنة ٦٥٨ هـ الجمعة ٢٥ رمضان كانت «عين جالوت»

بين أسود المسلمين من جنود الشام ومصر وملك مصر قطز، وجيش التتار بقيادة كتبغا. وقُتل أمير المغول «كتبغا»، وعلت صيحة سلطان مصر «وا إسلاماه»، فكان النصر.. رحم الله قطز فقد كان بطلاً كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله كما قال ابن كثير.

وفتحت «أرمينا الصغرى» سنة ٦٧٣ هـ على يد بيبرس، سلطان مصر، وعيّد السلطان بيبرس في مدينة «سيس» عاصمة بلاد الأرمن، وأذل الله نصارى الأرمن ذلاً كبيراً فلَطالما خانوا المسلمين وتحالفوا مع أعدائهم.

معركة «شقحب» أو «مرج الصفر» ٢ رمضان ٧٠٢ هـ:

وهــي المعركة التــي كان فيها الخليفة المســتكفي بالله والســلطان محمد بن قلاوون وشــيخ الإســلام ابن تيمية، وجيوش التتار والأرمن والنصارى.. وفيها انتصر المســلمون نصراً عزيزاً وتجلّت فيها شــجاعة ابن تيمية الذي كان يقف مواقف الموت.

فتح «البوسنة والهرسك» سنة ٧٩١ هـ في معركة «قوص أوه»:

انتصر فيها الســلطان مراد الأول علــى جيوش أوروبا الشرقية، ومَنَّ الله عليه بالشهادة.

وفي سنة ٨٢٧ هـ فتحت «بلغراد» على يد السلطان العثماني سليمان القانوني، وانتصر العثمانيون على المجريين انتصاراً كبيراً.

وفي سنة ٩٣٥ هـ كان النصر العظيم في بلاد الحبشة، ودخل البطل المسلم أحمد القرين مدينة «أكسوم» عاصمة الحبشة، وأسَّس الإمبراطورية المسلمة في الحبشة.

وفي سنة ١٣٩٣ هـ كان نصر العاشر من رمضان للمسلمين في مصر على اليهود.

ومتى عاد المســلمون إلى ربهم وتمسّــكوا بدينهم وسنة نبيهم ﷺ واتحدوا؛ كان النصر للإسلام، ولا هُوية لنا غيره، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

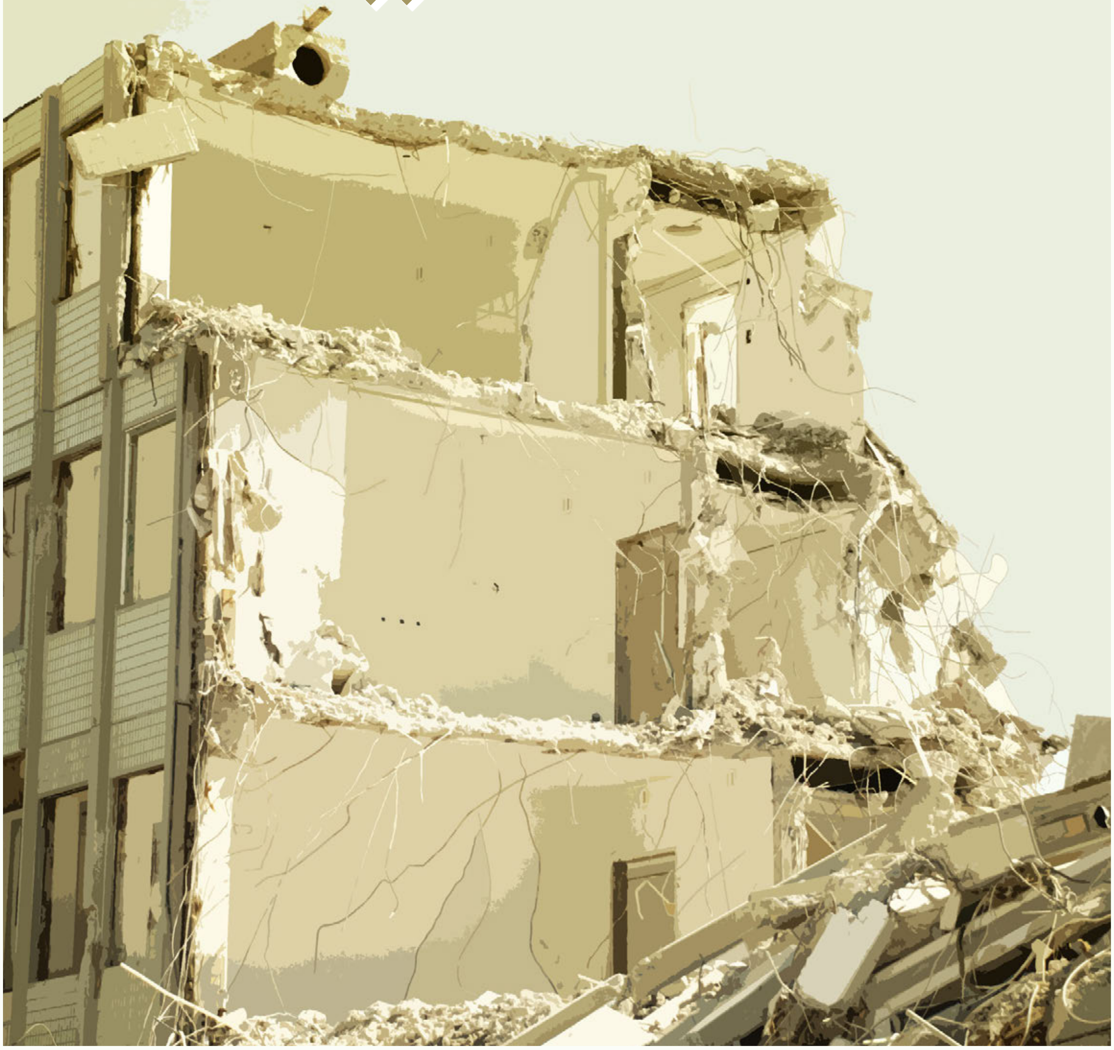
قال رســول الله ﷺ: «إن الله زوى لــي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها».

تُــرى هــل يــرجــع الـمــاضــي فــإنــي
أذوب لــذلــك الـمــاضــي حــنـيـنـا



أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية
مجلة البيان
مفكرة البيان الرقمية
www.albayan.co.uk
واجهه خدمية مميزة
تقويم: هجري/ميلادي
أوقات الصلاة
اتجاه القبلة
والعديد من الخدمات المميزة
Al-Bayan Digital Calendar
Available on the iPhone
App Store
www.albayan.co.uk

النداء الخفي



■ هاني إسماعيل محمد

ينادي ربه في جوف الليل نداءً خفياً، بصوته الذليل المنكسر، ذاك الصوت الذي انحنى ظهره، وخفت ضوءُه، من خريف السنين.. قد اغرورقت بالدموع عيناه اللتان ارتوتا من الليل وسواده.. أنفاسه تتلاحق، تلهث كأنها العاديات ضبحاً، وكأني بنسمات السحر أضحت نقعاً من حوافر العاديات، في حين أن زفيره وشهيقه في حلبة الصراع يأبى كل منهما أن يجدل صاحبه، بيد أن سنا برق دعائه المسلول إلى السموات العلا يفلق الظلمات، وأنين تلاوته الجريحة يشق العجاج ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ

امْـرَأَتِي عَاقِــرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنـكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٤ - ٦].

يخرُّ ساجداً، يجهش بالبكاء، تختنق الكلمـات، لا تسـتطيع أن تقتنص من كلماته سوى يا رب... يا رب... يا رب.. تهدأ ثـورة دموعه، ويخمد بركان أنينه، تخرج جمرات دعواته ملتهبة:

- يا رب قد يئـس الطبيب، وقنط الحبيب، واستسـلم القريـب، إلا أنا يا مجيب، يـا رب ما زلت أقـف ببابك، أتشـبث برجائك، فعطـاؤك ممدود، وكرمك بـلا حدود، ورزقك مشـهود، ﴿رَبِّ هَـبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّـةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

■ ■ ■

الباب يُفتـح.. تعلقت به، تحتضنه، تتواثـب، تطوف حولـه؛ كالطفلة التي تستقبل أباها وقد جاءها بلعبة تتمناها أو بحلوى تشـتهيها.. الدهشة تخطف بصره، وتذهـب بعقله، فأيام الصّبا قد ولت، وريعان الشـباب قد انطفأ، ووقار الكهولة قد استحكم.

- ما الخطب؟ هـل عُدتِ صغيرة؟ أم جُننتِ؟

تقهقه قهقهة الطفل البريء يشاهد ألاعيب القط والفأر.

يحـدق بعينيه الذابلتـين، يتفرس أسـارير وجهها المتفتحـة وقد خطها شـيء من تعاريج الزمن، يتأمل عينيها وما فيهما من بريق نجم سطع لأول مرة في سـمائهما، يقفان وجهاً لوجه، يميل رأسـه قليلاً كأنه يسـترق السمع إلى صـوت خفي، ما زالت عيناه في عينيها تفحصان، تبحثان عن سـر مكنون، أو كنـز مدفون، يخيم الصمـت الرهيب، يسيطر السـكون المخيف، فجأة يمسك بخيط دقيق، بإحساس رقيق، يهمس:

- هل ذهبتِ؟!

- نعم.

يضطـرب قلبه فـي بحر لجي من المشاعر المتناقضة، بين الخوف والرجاء، أكاد أجزم أني أرى قلبه يدفع بكلتا يديه قفصه الصدري ليتحرر من محبسـه، وينطلق إلى رحاب الفضاء الفسـيح.. أرى زلزالاً قوياً يضرب جسده الواهن، فترتجف أوصاله، وتهتز أطرافه، يتلعثم كأعجمـي يقرأ أحرفـاً عربية لا يفقه معناها، ولا يدري مبناها:

- هل أنتِ؟!

- نعم.

- كيف؟!

- أستغفر الله العظيم!

- ولكن...؟

- سبحان الله! أين يقينك؟

- آمنتُ بالله.

- ﴿رَبِّ إِنِّي نَـذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّـلْ مِـنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

■ ■ ■

يوشـك أن يخرَّ من سماء الصدمة فتخطفـه الطيـر، أو تهوي بـه الريح فـي مكان سـحيق؛ ترميـه زوج أخيه بحجارة من سـجيل، ويطعمه أخوه من زقوم، ويسقيه أبناؤهما من حميم، وهو مشـدوه من هول الموقـف العظيم، من تبـدل الأحوال، فمثلهـم كمثل زمهرير جاء فـي يوم صائف شـديد الحرارة، أو شمس حارقة حالت زهر الربيع إلى عصف مأكول.

- أي ميراث تسأل عنه؟

- أي أرض تطلب؟

- متى أنت زرعت أو قلعت أو حتى فلحت؟

- ألـم نطعمك ونسـقيك؟ فأكلت أكلنا وشربت شرابنا؟

يصرخ صرخة اللديغ، صرخة امرأة ثكلى في ابنها الوحيد وزوجها الحبيب:

- هذا كله من مالي وأرضي، تركته لكم ما أسـألكم من أجر، ولا أحاسبكم عن مغنم، تكنزون ثمره، وتدخرون ريعه، أتلك نعمة تمنُّون علـي، أفلا تعقلون؟! أليس فيكم رجل رشيد؟!

- اخـرج مذؤوماً مدحـوراً ما لك عندنا من نقير أو قطمير.

يرجـع إلى بيته وقـد خلُص منهم نجيـاً، ينظر إلى طفلـه الرضيع نظرة اعتذار عن تلك الأحـلام الوردية التي رسـمها له، يمسح على شـعره وكأنه يمحو منه كل الرسـوم الهندسية التي خطها لمسـتقبله وغـده، تداعب أنامله خده العسـلي، وجبينه الذهبي، تبصم عـن تنازل جبري عـن كل الوعود التي قطعتها، يرسـل له قبلة تحمـل طلباً بالعفـو والغفران عمـا فرط في حقه، يضحك الرضيع ضحكة أو ضحكتين.

■ ■ ■

تسـتيقظ المدينة بغتـة على وجبة بنيان قـد انهار بلا إنـذار أو إخطار، فقط قد وقع عليه الاختيار، يركض نحو بيت أخيه، يصرخ:

- ما الأمر؟

- الأمر للـه! ﴿فَـأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِـدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّـقْفُ مِـن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

- إنا لله وإنا إليه راجعون.



مع ابن تيمية في شهر الصيام

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net
@dralabdullatif

لها أحاديث من ذكراك تشغلها
عـن الـشـراب وتـلـهـيها عـن الـزاد

كان ابـن تيميـة قليـل تنـاول الطعـام والشـراب، وينشد كثيراً ذلك البيت(١).

ووُصف ابن تيميـة بالفراغ عن ملاذ النفس من الأكل والشرب، وحكي أن أمّه طبخت يوماً قرعاً مرّاً، فتركتها على حالها، فجاء ابن تيمية، وسـأل: هل عندك أكل؟ فأخبرته أمّه بذاك القرع المرّ، فأكل وما أنكر شيئاً(٢).

وقد جرّب ابن تيمية الحبس في رمضان وغيره، وعاش شهر رمضان خمس مرات في السجن(٣)، وكان حبسه جَنّة وخلوة وأنساً بالله تعالى، بل كان كذلك في حق غيره من المحابيس، فقد كانوا مشـــتغلين بأنواع من اللعب يلتهـــون بها عما هم فيه، ونحو ذلك من تضييع الصلوات، فأنكر ابن تيمية عليهم ذلك أشـــد الإنكار، وأمرهم بملازمة الصـــلاة والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة، وعلّمهم من الســـنة ما يحتاجون إليه، ورغّبهم في أعمال الخير، حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا، والرُّبُط، والمدارس، وصار خلق من المحابيس إذا أُطلقوا يختارون الإقامة عنده في الحبس(٤).

ولئن أمسك وصام ابن تيمية في الحبس، فإنه لم يمسك عن الجهاد فيه؛ فقد جاهد وناظر وقاتل، ومن ذلك أن خصومه شغبوا عليه، فعقد له القضاة مجلســـاً بمصر في رمضان سنة ٧٠٥، ثم حبسوه، وكان يدعو لخصومه قائلاً: اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق. كما أنه جاهد التتار في رمضان سنة ٧٠٢ هـ.

حيث حرّض السلطان على القتال، وبشّره بالنصر، وجعل يحلــف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم. فيقول له الأمراء: قل إن شـــاء الله. فيقول: إن شـــاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وأفتى الناس بالفطر مـــدة قتالهم، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد فيأكل من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل(٥).

وأما عنـــد صلاته التراويـــح فقد كان يـــؤمّ الناس لصلاة التراويح فيعلوه عند القراءة خشوع ورقّة تأخذ بمجامع القلوب(٦).

وأما عن تقريراته العلمية بشـــأن شهر الصيام وما يتعلق به، فهذا يطول جداً، وسأقتصر على طرف منها:

قال – رحمـــه الله –: إعانة الفقراء بالإطعام في شـــهر رمضان هو من سنن الإســـلام، فقد قال النبي ﷺ «من فطّر صائماً فله مثل أجره»(٧).

وجانب الإحسان والإعانة للناس ظاهرٌ في سيرة ابن تيمية، حتى قال الحافـــظ الذهبي: «له محبُّون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه، لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وقلمه»(٨).

قرر في عدة مواضع تمييز أهل الإسلام في صيامهم عن ســـائر أهل الملل(٩)، وأما مخالفة أهل الكتاب وعدم موافقتهم

(*) أستاذ مشارك سابق في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٤٩٧.

(٢) انظر: الجامع لسيرة ابن تيمية (الوافي بالوفيات للصفوي)، ص ٣٠٦.

(٣) سنة: ٧٢٠، ٧٠٩، ٧٠٥، ٧٢٧، ٧٢٨ هـ.

(٤) انظر: الانتصارلابن عبد الهادي (العقود الدرية)، ت: الجليند، ص ٣٠٢.

(٥) ينظر: البداية لابن كثير، ١٤/٢٧.

(٦) ينظر: المداخل إلى آثار ابن تيمية لبكر أبي زيد، ص ٢٠.

(٧) مجموع الفتاوى ٢٥/٢٩٨.

(٨) الانتصار لابن عبد الهادي (العقود الدرية)، ت: الجليند، ص ١٧٨.

(٩) ينظر: رسالة في «الهلال» في المجلد الخامس والعشرين من الفتاوى، واقتضاء الصراط المستقيم ١/١٨٦–١٨٨، ٢٥٠–٢٥٢.

فمقصودة لذاتها، ومن ذلك قوله: عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أَكلة السحر» أخرجه مسلم.

وهذا يدلّ على أن الفصل بين العبادتين أمر مقصود للشارع، وقد صرّح بذلك فيما أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا يزال الدين ظاهراً ما عجّل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون»، وهذا نصٌّ في أن ظهور الدين الحاصل بتعجيل الفطر هو لأجل مخالفة اليهود والنصارى.

وإذا كانت مخالفتهم سبباً لظهور الدين، فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله، فتكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد الشريعة(١).

فتأمّل كيف قرر بالأدلة أن مجانبة أهل الكتاب مقصودة لذاتها، وأن مخالفة أهل الجحيم في تعجيل الفطر سبب في ظهور الدين، بل إن مخالفتهم هي أعظم مقاصد الشريعة.

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فشهر رمضان له خصوصية بالقرآن، وقد احتفى ابن تيمية بالحديث عن دلائل القرآن، وأهمية فهمه، فقرر أن ألفاظ القرآن فيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه(٢)، وأن «القرآن قد دلّ على جميع المعاني التي تنازع الناس فيها، دقيقها وجليلها»(٣)، وأن كل من كان للقرآن أفهم ولمعانيه أعرف كان أشد تعظيماً له، خلافاً للفخر الرازي في قوله إن الإنسان إذا وقف على المعنى سقط وقعه من القلب(٤).

وقرر أن اليقين يحصل بأمور، وذكر منها: تدبر القرآن(٥)، وأطال النَفَس في أن القرآن حافل بالدلائل العقلية خلافاً للمتكلمين الذين يزعمون أن أدلة القرآن خبرية فحسب(٦).

كما نقض مذهب أهل التجهيل (التفويض) الذي يجعلون معاني الصفات الإلهية مجهولة، أو لا معنى لها، واستدل بالآيات التي تأمر بتدبر القرآن وعقله وفهمه، فآيات القرآن بما فيها آيات الصفات، تُعقل وتُفهم، وكما كان على ذلك السلف الصالح في القرون الثلاثة(٧).

بل قال: «من أعظم أبواب الصدّ عن سبيل الله، وإطفاء نور الله، وإبطال رسالة الله: دعوى كون القرآن لا يفهم معناه، ولا طريق لنا إلى العلم بمعناه، ولهذا يسلك هذا الطريق من نَافَق من المتكلمة والمتفلسفة ونحوهم، فإنهم إذا نسدّ عليهم باب الرسالة والأخذ منها، رجع كل منهم إلى ما يوحيه الشيطان»(٨).

ومن أروع إشراقات أبي العباس ابن تيمية بشأن الاحتفاء بالقرآن وتدبّره دون الإغراق في دقائق التجويد، وتحسين الصوت؛ قوله رحمه الله:

«إن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ، وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، ففضل الله ورحمته: القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه.

ثم قال: وهو دائم التفكر في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحِكَمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله، وإلا ردّه.

إلى أن قال: ولا يجعل همته فيما حُجِب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمدّ الطويل والقصير والمتوسط، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه.. وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت(٩).

وحكى أن الراسخين في العلم يذمّون من اقتصر في إعجاز القرآن على ما فيه من الإعجاز من جهة لفظه أو أسلوبه، ويهملون إعجاز معانيه(١٠).

والحاصل أن لابن تيمية تحقيقات عظيمة بشأن رمضان وتلاوة القرآن نفتقر إليها في هذه الأيام، فقد بيّن أن شرائع الإسلام - ومنها الصيام - لأجل تحقيق عبادة القلب لله وحده، ونيل مقاصد الآخرة من النعيم المقيم، والنظر إلى وجه الله الكريم، وليس لمجرد مصالح دنيوية عاجلة انهمك الكثيرون في إظهارها(١١).

كما أن نَفَس التمايز والمفاصلة للكافرين في العبادات والعادات، لا يغيب عن تقريره وتأصيله.

وكذا الاعتزاز والثقة بدلائل القرآن، وكفايته، والفرح به، والاحتفاء بتدبره وفهمه، وليس كما عليه بعض أهل الزمان من الوسوسة والتكلف في دقائق التجويد ومخارج الحروف، أو التصنع بتلحين القرآن، والولع بالمقامات، والمحسنات الصوتية.

فاللهم اجعلنا ممن صام رمضان إيماناً واحتساباً، واجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٨١-١٨٢.
(٢) ينظر: النبوات ٢/٨٧٦.
(٣) الدرء ٥/٥٦.
(٤) ينظر: بيان تلبيس الجهمية ٨/٣٣٢.
(٥) انظر: الفتاوى ٣/٣٣٠.
(٦) انظر: التدمرية ص ١٤٦، ونقض التأسيس ١/٢٤٦، والفتاوى ١٣/١٣٧.
(٧) انظر: القاعدة المراكشية، والقاعدة الخامسة من التدمرية، وجواب الاعتراضات المصرية على الفتوى الحموية.
(٨) جواب الاعتراضات المصرية ص ٢٤.
(٩) انظر: مقالي «الصيام والآخرة»، ومقالي «الصيام غذاء الأرواح وجنة من العذاب».
(١٠) ينظر: جواب الاعتراضات المصرية، ص ٢٨.
(١١) انظر: مقالي «الصيام والآخرة»، ومقالي «الصيام غذاء الأرواح وجنة من العذاب».